سيرج لاتوش

ترجمة: خليل كلفت



تغريب العالم





تغـــريب العالم

بحث حول دلالة ومغزى
وحدود تنميط العـالم

تغريب العالم

بحث حول دلالة ومغزى وحدود تنميط العالم

الطبعة الأولى
١٩٩٢

الناشـــــر: دار العـــــالم الثالث
ت: ٣٩٢٢٨٨٠ /٣٥٥٥٥٠٢
فاكس: ٣٥٥٠٨٧١

هذة ترجمة لكتاب:

L´occidentalisation du monde

تأليف: Serge latouche

الناشر: Édition La Découverte,Paris,1989

صدر هذا الكتاب بالتعاون
مع
البعثـــة الفرنســـية
للأبحـــــاث والتعاون
قسم التـــرجمة- القاهرة



الجمع :بوحدة الماكنتوش
بدار العالم الثالث

اهداءات ١٩٩٨
مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

سيرج لاتوش

تغـــــريب العالـــــــم

بحث حول دلالة ومغزى
وحدود تنميط العالم

ترجمة
خليــــل كلفــــت

هذه ترجمة كتاب Serge Latouche:

L'Occidentalisation du Monde, Éditions La Découverte, Paris, 1989.

لنفس المؤلف

Épistémologie et économie, Anthropos, 1973.

الابستمولوجيا والاقتصاد

Le projet marxiste, PUF, 1'973.

المشروع الماركسي

Critique de l'impérialisme, Anthropos, 1'980.

نقد الامبريالية

Le Procès de la Science Sociale, Anthropos, 1'984.

تطور العلم الاجتماعي

Faut - il refuser le développement? PUF, 1'986.

هل نرفض التنمية؟

«لا، لا، وألف لا! لا تحدثونى عن التعاطف مع السود. رسالة الرجل الأبيض هى أن يكون مقاول العالم ولا ينبغى له أن يتوقف كثيرا عند عوارض هى خطرة بقدر ما هى عديمة الجدوى».

جاك لندن

Jack London, L' Inévitable Blanc (Robert Laffont, Paris, 1985, p. 578).

تـــنـــويـــه

يستعيد هذا البحث بشأن عدة نقاط كل أو قسما من تحليلات سبق نشرها. هكذا كان القسم الثانى من الفصل ٣ واردا بخطوطه الرئيسية فى مقالى «إخفاق التغريب»، الذى نشرته مجلة **العالم الثالث** Tiers - Monde (العدد ١٠٠، أكتوبر – ديسمبر ١٩٨٤) .
ويستعيد القسم الثانى من الفصل ٤ الجانب الأكبر من عرض تم تقديمه فى منتدى Decta III بكلية بوردو للعلوم الاقتصادية حول مسألة التبعية الإقطاعية فى فرنسا، بعنوان: «ألا يزال يمكن الحديث عن قومية اقتصادية فيما يتعلق بفرنسا؟» (سيصدر ضمن Les Cahiers de l' ISMEA)

كما ظهر عرض موجز للفصل ٥ فى مجلة **البديل الاقتصادى / الاقتصاد من خلال أسئلة** Alternative économique / Économie en questions (يوليو ١٩٨٦)، بعنوان: «الاحتكاك الثقافى». وأخيراً، اقتبسنا هنا وهناك بعض الإشارات من كتابنا: **«هل نرفض التنمية؟»** (PUF, 1986) ومن مساهمتنا فى المؤلف الجماعى: **كانت هناك ذات يوم تنمية** Il était une fois le développement

.(Rist et Sabelli, Éditions d'En bas, Lausanne, 1987)

قرأ نسخة أولى من هذا النص أصدقائى ألان كاييه Alain Caillé جان شينو Jean Ches-neaux، أحمت إنسيل Ahmet Insel ، تييرى باكو Thierry Paquot ، دومينيك بيرو Dominique Perrot، جلبرت ريست Gilbert Rist. لقد كانت ملاحظاتهم وانتقاداتهم لا غنى عنها بالنسبة لى. وقد توخيت أن أضعها فى اعتبارى، غير أن من المفهوم تماما أن الأخطاء والنواقص ونواحى عدم التوفيق فى هذا الكتاب تخصنى وحدى.

وأتوجه بشكر خاص إلى السيدة جانين بورجوا Jeanine Bourgeois من جامعة ليل – ٢، التى توخت، بصبر وإخلاص، أن تهذب وتصقل مخطوطتى.

أخيراً، يسرنى بوجه خاص أننى لا أدين بشكر لأية شركة متعددة الجنسية ولا لأية مؤسسة وطنية. لقد أتاح عدم تمويل هذه الجهات النجاح فى القيام بهذا البحث بكل حرية وبالعوز المطلق للجامعى الفرنسى الأصيل.

مقدمة

«انظر، الشوارع خالية: إنه زمن دالاس» - هذا ما أكده صديق جزائرى كنت أتجول معه فى نهاية أصيل فى ١٩٨٥ فى مدينة الجزائر، ولأننى كنت لا أزال متحيرا رويت هذه الحكاية لطلبة أفارقة فأكدوا لى بكل هدوء: «الأمر سيان، فى نظرنا».

ومنذ خمس وعشرين سنة، أثناء إقامتى الأولى فى أفريقيا، وكنت فى تسيكاپا، التى كانت آنذاك عاصمة اتحاد كاساى، أحد أقاليم الكونغو البلجيكى السابق المجزأ الواحد والعشرين، دفعنى الفضول إلى الذهاب إلى إدارة الإحصاء. دخلت كوخا من الآجرّ، بأرضية من التراب المدكوك، يقسّمه مئزر معلق بخيط إلى قسمين. فى أحد «المكتبين»، سألت الـ «ماما La mama» المنهمكة بلا توقف فى تسوية واكس Wax («مئزر») لامع، ما إذا كانت هناك وثائق ومعلومات متاحة. سمعت الإجابة: «ليس بعد، نحن فى انتظار أجهزة الكمبيوتر». وهكذا فمنذ ربع قرن، بالكاد، فى حين أن الملونين كانوا قد تخلصوا رسميا من وجود البيض، كان التغريب occidentalisation قادرا ما يزال على أن يحتفظ بهذه الذكرى العاطرة لخدعة خبيثة مثل هذه الصور الفوتوغرافية القديمة لزعماء الهنود الحمر وهم يرتدون قبعة الرسميات وسط ريشهم. واليوم، ولا سيما غدا، أصبح العالم مدعوا إلى أن يعيش على نمط موحد. على أن الغد قد بدأ بالفعل. تم إطلاق الأقمار الصناعية الخاصة بالاتصالات عن بعد. ويجرى ربط الشبكات الموحدة للكهرباء. كما تم تأمين شبكة الاتصالات لكى يكون بوسع الأسواق المالية، التى تتتابع حول الكرة الأرضية فى مختلف المناطق الزمنية، أن تعمل كمكان واحد مفتوح أربعا وعشرين ساعة فى الأربع والعشرين ساعة. وتنتشر المعلومات والمشاهد والأذواق والأوامر وكافة مضامينها فى الحال من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق. حتى الأستار الحديدية أو الخيزرانية لا تقاوم ذلك، ولا يشكل الفقر والإقصاء déréliction الاستوائى عقبة أمامه.

يكتب ك. موريل C. Maurel: «إذا أرّخنا للمعارك فقد أخفق الاستعمار. ويكفى أن نؤرخ للعقليات لنتبين أننا إزاء أعظم نجاح فى كل العصور. إن أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار... لقد انتقل البيض إلى الكواليس، لكنهم لا يزالون مخرجى العرض المسرحى»(١).

ألا يزال الأمر يتعلق بالتغريب؟ إن الغرب لم يعد غربيا كما أن الرجل الأبيض لم يعد رجلا أبيض. فهل ينبغى أن تعتبر غربيين هؤلاء القادمين الجدد إلى الملحمة الصناعية كما هو الحال

مع اليابانيين، فى المقام الأول، ومقلديهم المحظوظين فى جنوب شرقى آسيا من بعدهم؟ الواقع أن المجازات الإعلامية تقدمهم إلينا وكأنهم ماكينات بشرية عجيبة تغزو أجزاء من السوق وتدير الآلة التقنية أفضل من أساتذتهم السابقين وتطرحهم علينا كنموذج، فيما تواصل الهلوسة الاستعمارية عن الخطر الأصفر.

ثم ما مدى عمق انتصار الغرب؟ ومكبرات الصوت الجبارة، آخر صيحة للتقنية، المنصوبة على المآذن، ألا تدعو الناس إلى الصلاة وليس إلى شراء المنظفات؟ وإذا كانت الرغبة فى الوصول إلى مستويات استهلاك عواصم الثروة مشتركة عالميا، فهل تستند هذه الرغبة إلى دوافع متماثلة فى كل مكان؟ وهل تتساوى هذه الرغبة مع استيعاب عميق لأنماط التنظيم الاجتماعى ولمنطق كل من الإنتاج وإعادة الإنتاج؟ وسواء أكان هذا تغريبا أم طبعا للعالم بطابع المجتمع الواحد، فهل يمكن لعملية التعميم العالمى للحياة الاجتماعية ولمستوى المعيشة أن تتتابع بلا حدود، وأن تكتسح كافة العقبات، وأن تنتهى إلى توحيد حقيقى للعالم؟ وإذا كان قد تكشف أن العقبات مستعصية، وأنها تعمق تناقضات مشروع العالمية ذاته، فهل لنا أن نتوقع سُبُلا بديلة؟

وفى المقام الأول، ما هو الغرب؟ هذا السؤال لم يطرح نفسه عندما انقضّ الصليبيون والفاتحون الأسبان والمستعمرون على العالم. عندما كانت العقيدة تخرج العالم المسيحى عن طوره، عندما كان اليقين فى الاضطلاع بعبء التنوير يدفع الغزاة الامبراطوريين إلى رسالتهم الحضارية، لم يكن لدى الغرب أدنى نزوع إلى الشك أو يكاد فى اليقين الراسخ فى حقه المطلق وحتى واجبه. كان الغرب موجودا حقا فى ذاته ولذاته، بوصفه عالما مسيحيا فى البداية، ثم بوصفه أوروبا التنوير بعد ذلك، ولم تكن العربدة الدموية والشراهة اللصوصية سوى التكاليف العرضية للمسيرة المظفرة لقاطرة التاريخ ساحقةً بعض الأزهار البريئة. وكان الشرفاء يَرْثون للتجاوزات لكنهم لم يعترضوا مطلقا على شرعية التوسع الغربى.

لقد ولى زمن الحقائق اليقينية البسيطة هذا. تسلل الشك، وتزعزع اليقين. ثم جاء انهيار الامبراطوريات الاستعمارية. فهل كانت هذه النهاية للغرب هى التى تنبأ بها رومان رولان فى فترة ما بين الحربين؟

«ما تشهده اليوم هو الغليان الهائل فى العالم، هو نهوض كافة الحضارات المضطهدة ضد حضارة الرجل الأبيض. سيكون الصراع طويلا ومرعبا. وأعتقد تماما أن حضارة الرجل الأبيض ستخسره. وسيكون هذا عصرا وسيطا جديدا سوف تتشكل فيه خلال قرون من الظلمات التى يضيئها البريق عصور المستقبل الكلاسيكية للعقل والاضطهاد »(٢).

ثم جاءت تصفية الاستعمار، هادئة نسبيا، وعلى أية حال بلا كوارث. ولم تكن النهاية الأكيدة لتفوق الرجل الأبيض نهاية الحضارة الغربية. لم يكن موت الغرب لذاته نهاية الغرب فى ذاته.

والواقع أن استمرار سيرورة «حضارية» عميقة الجذور فى التاريخ السابق يعيد طرح السؤال حول معنى ومكان الغرب. كما أن الإضفاء المعاصر للطابع العالمى على الأبعاد الرئيسية للحياة ليس سيرورة «طبيعية» أحدثها انصهار بين الثقافات والتواريخ. ولايزال الأمر يتعلق بالسيطرة بما يلازمها من استعباد وظلم ودمار. وفى حين أن الغرب لذاته انفجر إلى شظايا، فإن التحقق من هذه السيرورة مسألة هامة. فمن هو المسئول عن تنميط أساليب الحياة، عن تنميط عالم الخيال؟

ما هى القوة الحسنة أو السيئة التى تفرض طابع البعد الواحد للحياة وامتثالية السلوك على أطلال الثقافات المهجورة؟ لم يعد الغرب أوروبا، لا جغرافياً ولا تاريخيا، كما أنه لم يعد مجموعة منسجمة من المعتقدات التى تشترك فيها جماعة بشرية تجوب الكرة الأرضية، ونحن نقترح أن نفهمه على أنه آلة لا شخصية، بلا روح ومن الآن فصاعدا بلا صاحب، وضعت البشرية فى خدمتها. ومتحررة من كل قوة بشرية قد ترغب فى إيقافها تتابع الآلة المجنونة عملها المتمثل فى اجتثاث الجذور على نطاق الكرة الأرضية. ومقتلعة البشر من مواطنهم ter-roirs، حتى فى أقصى أركان المعمورة، تقذف بهم هذه الآلة إلى صحراء المناطق الحضرية الجديدة دون أن تدمجهم مع ذلك فى العمليات التى تحفزها: التصنيع، البقرطة، التقننة technicisation بلا حدود. أما الثروة، التى أصبحت من الآن فصاعدا بلا معنى، فتنمو فى قلب مدن بلا تخوم. ودون أن يدرى صانعوها، لا تحدث هذه الآلة تمايزا إلا مع تحطيم النسيج الاجتماعى. وهذا التمزيق الاجتماعى يكبح بصورة جدية الإمكانات الملموسة لتعميم كل نموذج اجتماعى زائف يمكن تصوره. إن حركة التغريب قوة مرعبة. وهى تلغى حتى الاختلافات بين الأنواع. وإذا كانت تحرر من أغلال التقاليد، فإن الحكمة التى تدعى أنها تستند إليها تنطوى على ما يدفعها إلى الطيش. والواقع أن عدم تجانسها يهدد بالأخطار بقاء الإنسان وبقاء الكرة الأرضية [٣].

وتحت هرأسة التغريب يبدو أن كل شىء قد تم تدميره وتسويته وسحقه بالفعل، لكنْ فى كل مكان، فى الوقت ذاته، يكون كل ما هنالك فى كثير من الأحيان أن تضاريس الأرض مشقوقة، فهى تقاوم أحيانا وهى متأهبة لإعادة تكوين أديمها.

والواقع أن استبعاد المكاسب المادية والرمزية «للتحديث»، وهى وفيرة دائما، يمكن ويجب

أن يبتكر حلولا جديدة من أجل البقاء كمكان وكإنسانية. وهذه التطلعات المغايرة تستكشف نفسها من خلال الارتجال والتلفيق. ويمكنها أن تنتج مسوخا، أو أن تستردها الآلة، لكنها كذلك تغذى الأمل فى ألا يكون حصار الآلة نهاية العالم بل فجر بحث جديد عن الإنسانية التعددية.

١ - الصعود الأكيد للغرب: انتقام الصليبيين

«باليقين المطلق لمؤمن نفترض أن التدوين التاريخى الذى ندرج فيه (بغير قليل من الصعوبات والتشويهات!) أحداث وتغيرات ذلك الجزء الضئيل من الأرض أى هذا النتوء لأوراسيا الذى نسميه أوروبا الغربية هو أيضا التدوين التاريخى للبشرية[١]».

روبرت نيسبيت

عندما وفد الجنرال جورو إلى دمشق، بعد معاهدة فرساى واقتسام حطام الامبراطورية العثمانية، لتأكيد استيلاء فرنسا على سوريا، دخل المسجد الأموى حيث يرقد رفات صلاح الدين، القاهر العظيم للصليبيين، ووطىء قبره بقدميه وصاح: «استيقظ، يا صلاح الدين، لقد عدنا».

فى ذلك الزمان، كان على كل من يود الحديث عن تغريب العالم أن يستدعى صعود **سيادة** imperium الرجل الأبيض على كافة أراضى اليابسة. من ناحية أخرى، كان سيساء فهم «التغريب»: «أتقصد الاستعمار؟»

على أن سيطرة الرجل الأبيض لم تنحصر فى مجال سباق الأعلام. والواقع أن التبشير وغزو الأسواق والتزود بالمواد الأولية والبحث عن أراض جديدة بل حتى الحاجة إلى الأيدى العاملة كانت الرفاق الطبيعيين للامبريالية الكولونيالية.

مع ذلك، كشفت لنا تصفية الاستعمار أن هذا التغريب من الطراز القديم شهد مدا وجزرا. إن ما نشهده اليوم يبدو حقا أعمق وأبقى. «البيض انتقلوا إلى الكواليس»، لكن أمّن العلم والتقنية والتنمية بديلهم. فأية تصفية استعمار يمكن تصورها بخلاف ذلك؟

بالمقابل، أليس من التعسف أن نرى فى ظواهر مختلفة إلى هذا الحد تجلى نفس «الجوهر»: الغرب؟ ألا ينبغى أولا أن نستخلص خصائص هذا المسخ إن لم يكن طبيعته؟ إذا تقبلنا هذا النقد الاسمى الضمنى ورفضنا أن ننشىء وَهْما **قبليا** ولم نجدد هكذا بتساهل سوى مجموع من المظاهر، وجدنا أنفسنا منقادين بالتالى إلى إثبات أن تاريخ العالم انقلبت أوضاعه نتيجة حركة نوعية نشأت فى أوروبا الغربية، وأن هذه الحركة تجاوزت إلى حد كبير التصور الساذج لسمات وطبيعة ما يتحرك. وفقا لعبارة شهيرة لماركس - «تشريح الإنسان هو مفتاح فهم تشريح القرد» - يقدم لنا الغرب الراهن مفتاح فهم أصله. على أن نفس التراث الهيجلى - الماركسى يرى فى القرد «جرثومة» الإنسان التام التطور. فالتطورية والحتمية تتكاملان دون

أن تستبعد إحداهما الأخرى وتغدوان كلتاهما مفرطتين. والواقع أن التصور الإغريقى عن الـ tekhnê * (الصنعة أو فنون الصناعة)يفسر جزئيا الانتصار الراهن للمجتمع التقنى ويسهم فى إلقاء الضوء على هذا الأخير، غير أنه لا يمكن إلا لتشبث بالاعتقاد الميتافيزيقى فى استمرارية مطلقة وحتمية صارمة أن يستبعد المصادفة والأعراض والطوارئ. ليس للغرب قوام متماسك إلا فى سياق تاريخ فعلى لا هو حتمى كليا ولا هو قابل للاستنتاج من معطيات الحاضر. فالماضى يوضح الحاضر، يفسره، لكنه أحيانا يناقضه ويسمح بتوقع مصائر أخرى لم تقع. أما الحاضر فيسعى إلى تحقيق أهداف بعينها للماضى لكنه يجدد أيضا تجديدا جذريا.

والبعد التاريخى ضرورى، ليس فقط لأن الأمر يتعلق بسيرورة تتحقق عبر امتداد الزمن، وحتى عبر امتداد الزمن الطويل للغاية، بل أيضا لأن هذه السيرورة تمد جذورها فى ثقافة. والحقيقة أن نجاحات وإخفاقات الامبريالية الأوروبية لها نفس طبيعة الحركة الراهنة للتغريب المنتصر، وهذه الأخيرة تهتدى بتلك.

أولا: المد والجزر القديمان

هل يمكن تحديد تاريخ نبدأ به؟ أليست كافة الامبراطوريات استبدادية وامبراطورية؟ إن أباطرة أشور أو بابل أو الصين أو المكسيك أوبيرو، أيا كانوا، هم جميعا مزهوون مثل كارلوس الخامس**؛ فالشمس لا تغيب أبدا عن امبراطورياتهم. إنهم ملوك الملوك، سادة السراء والضراء، والجهات الأربع، والعناصر الخمسة. وكل سيادة امبراطورية تنشد العالمية. إنهم أبناء السماء، آلهة على الأرض، آلهة أحياء، قادرون على كل شىء فى الداخل وفى الخارج...

عندما تسقط روما الأولى فى ٤١٠ تحت ضربات ألاريك***، يكون البديل مضمونا تماما رغم المظاهر. ذلك أن روما الخالدة، ابنة أورشليم، كانت قد شرعت من قبل فى غزو الأرواح. والآن تتأهب روما الثانية، بيزنطة، لأن تشهد عهدا جديدا من المجد قبل أن تنقل مشعله إلى

---

* وهى اللفظة التى أخذت منها التقنية ومشتقاتها فى اللغات الأوروبية الحديثة - المترجم.

** كارلوس الخامس (١٥٠٠ - ١٥٥٨): الملك الأسبانى باسم كارلوس الأول (١٥١٦ - ١٥٥٦) والامبراطور الجرمانى (١٥١٩ - ١٥٥٦) امتدت امبراطوريته الواسعة لتشمل أسبانيا ومستعمراتها والفلاندر والنمسا وألمانيا. خاض حروبا مع فرنسا على مدى أكثر من ثلاثين سنة وحارب الأتراك (١٥٣٢). قاد حملة ضد تونس (١٥٣٥) والجزائر (١٥٤١) انتهت إلى الفشل. اعتزل وانسحب إلى دير «يوست» بأسبانيا (١٥٥٦) ومات فيه (١٥٥٨) - المترجم.

*** ألاريك الأول (٣٧٠ - ٤١٠) ملك قبيلة قوطية ظهرت فى القرن الرابع الميلادى؛ استولى على روما ونهبها فى ٤١٠ - المترجم.

يدى قيصر الشمال، إيفان الرابع الملقب بـ «الرهيب»، الذى سيؤسس روما الثالثة فى موسكو، تلك التى زعم لها آيزنشتاين وستالين* الخلود... والحماس الامبرواطورى الذى ولد من قلق الإغريق ومن انتظار اليهود للمخلص - هل سيشتعل من جديد فى أوروبا الغربية فى مواجهة البطولات العربية - الإسلامية؟ يقوم شارلمان بالفعل - الصليب فى يد والسيف فى الأخرى - بتغريب التخوم الشرقية لأوروبا الغربية وبتأمين الحدود الجنوبية. ووُلد العالم المسيحى. لم يولد فى هذا الشرق الذى رأى فيه النور والذى لم يعرف كيف يصونه. لقد وُلد عبر استعباد الساكسونيين وإعادة فتح أسبانيا. هكذا بدأت حركة تغريب العالم كحرب صليبية. وتعانى الحرب الصليبية الكارولينچية جزرا طويلا بسبب الغزوات، غير أن هذه الجزر للسيادة لم يحل دون الغزو الروحى السريع ولا دون الإدماج البطئ لبرابرة شمالى وشرقى أوروبا. وعلى خريطة أوروبا، فى حين تتفكك الأبنية السياسية من جراء التجزئة الإقطاعية، تغدو الأديرة بالمقابل أعلاماً صغيرة تقفز إلى صدارة الزحف القادم.

من إخفاق الحروب الصليبية إلى انتصار الفاتحين الأسبان

تشهد النهضة الأولى فى القرن الثانى عشر ظهور انطلاقة جديدة أوفر قوة أيضا. ويتحرك العالم المسيحى فى كافة الاتجاهات. والحروب الصليبية مغامرة من أكثر المغامرات التى تصورها العقل البشرى جنونا على الإطلاق. وهذه الامبراطورية الإقطاعية التى انبثقت منها لا مستقبل لها. ذلك أيضا ما ستحققه بيزنطة. لكن العالم المسيحى الأرثوذكسى، فى سياق تغريب العالم، ليس العالم المسيحى كله، إنه فى المرتبة الثانية: تبشيره هزيل، كما أن هلاكه يعزز الأساس الغربى ويجعله متجانسا.

من هذه الانطلاقة، رغم الجزر، ستبقى نتيجة حاسمة، إعادة فتح جزء من أسبانيا، نتيجة باقية على التخوم الشرقية المدفوعة حتى بروسيا بفضل فرسان الأخوية التيوتونية، نتيجة نموذجية، امبراطوريتا جنوا والبندقية اللتان تستبقان ما ستكون عليه الهيمنة الهولندية والبريطانية.

يكتمل تغريب العالم فى شكل العالم المسيحى مع انتصاره ذاته فى القرن السادس عشر. ويشهد القرن الذهبى لشبه الجزيرة الأسبانية مع حركة الفتح، المتحققة، انطلاقة جديدة

* أخرج آيزنشتاين فيلمه إيفان الرهيب فى عهد ستالين (فى ١٩٤٤) - المترجم.

وحاسمة. ويفتح الملاحون العظام والمكتشفون العظام الطريق أمام كبار مغامري السماء والأرض. ويبدأ عهد العالم المتناهي مع فاسكوده جاما وماجلان. وسيرفع القديس فرانسوا – خابيير* الصليب حتى في وجه اليابان.

ويعيد الفاتحون الأسبان رسم خريطة العالم. وتغدو الوكالات التجارية والحصون والإرساليات شبكة اتصالات الغرب على مستوى الكرة الأرضية. وتنتصر عناصر الامبريالية الثلاثة: **العسكريون، التجار، المبشرون**. وتؤمّن جماعات المرتزقة غزو الأراضي والبشر، وشركات الهند غزو الأسواق، ورهبانية اليسوعيين الغزو الروحي. وتغدو الكرة الأرضية «ممسوحة بحساب المثلثات» (تمهيدا لرسم خرائط دقيقة) من خلال تدفق التوابل والرقيق، الذهب وبضائع البحارة. كان العالم قد شهد العديد من الامبراطوريات تقوم وتنهار، والعديد من الغزاة يمرون، من الاسكندر الأكبر إلى تيمور لنك. لكن، هذه المرة، جرى شيء ما لارجعة فيه. والحقيقة أن فتوحات عديدة لهذه الدولة الغربية أو تلك ستكون بلا مستقبل، غير أن وضع يد الغرب على الكرة الأرضية صار نهائيا.

والواقع أن الفتح ليس مجرد فتح عسكري أو سياسي خالص، كما أنه ليس مجرد نهب وسيطرة محكمة. وبالتالي فإن الاستعباد التجاري والمالي، وحتى الاستغلال الإنتاجي، وهو استغلال منهجي بلاشك، لا يستنفدان معناه تماما. كما أن المشروع الاستعماري صنو لمشروع السيطرة الشاملة على الطبيعة. فبعد المأثرة البحرية للقرن السادس عشر، تأتي المأثرة العلمية للقرن الثامن عشر. ووراء وضع اليد على الثروات وعلى الأرواح يأتي المسح الموسوعي للكون.

إن الرحلة تغدو فلسفية، فالأمر يتعلق بتجميع الملاحظات والمعارف، كل المعرفة عن كل شيء. وتتضاعف الرحلات الاستكشافية: كوك، لابيروز، وأقرانهما. ولا يجري إهمال الأهداف السياسية والاقتصادية والاستراتيجية بسبب ذلك. وبطبيعة الحال، يترابط كل ذلك ويتعزز. والسيطرة على الطبيعة مشروع شامل، وحتى شمولي. لذلك ينبغي رسم خرائط دقيقة، إحصاء الموارد الطبيعية، مسح عادات وتقاليد السكان الأصليين. وتظهر الاثنوغرافيا وتسهم

* القديس فرانسوا – خابير (١٥٠٦ – ١٥٥٢) أحد أوائل أعضاء الأخوية اليسوعية، بشّر في شرقي آسيا واليابان – المترجم.

فى نجاح الكل. وسيبحر نابليون قاصدا مصر بحمولة من العلماء والأجهزة العلمية(٢).

وخلال قرنين من الزمان، ستهضم أوروبا هذه الكعكة الهائلة. مات العالم المسيحى، وكانت الامبراطورية - العالم L'empire - monde لكارلوس الخامس سريعة الزوال.وولد نظام الدولة - الأمة L'État - nation، وكذلك الاقتصاد - العالم L'économie - monde الرأسمالى. إن العالم الذى كان باختصار حكرا على الغرب آنذاك، وعلى أية حال تحت حصاره، سيعاد تقسيمه وفقا للتغيرات الهيكلية للاقتصاد - العالم وللتنظيم المتعدد الأصوات، إن لم يكن المتنافر، «للفكرة الأوروبية» ثم مجتمع الأمم. تسترد هولندا من أسبانيا ومن البرتغال الجانب الأكبر من امبراطوريتهما الشاسعة، فتنصُر أقل وتتاجر أكثر. وتجرب فرنسا حظها فوق البحار، وتقتطع لنفسها امبراطورية أولى، غير أن الهيمنة البريطانية تتأكد فى الواقع مع معاهدة باريس فى ١٧٦٣، وسوف تصبح السيطرة المطلقة لامبراطورية البحار أكيدة بعد واترلو.

سباق الأعلام

من المألوف إعلاء شأن الموجة الاستعمارية التى انطلقت بعد ١٨٨٠ تحت تسمية «سباق الأعلام». فبعون تطور وسائل الانتقال، تنقضّ الدول الأوروبية فى سياق سباق محموم على البقايا الأخيرة من الأراضى «غير الواقعة تحت السيطرة» من الكرة الأرضية. ويعتقد الرجل الأبيض، واثقا أكثر من أى وقت مضى بتفوق حضارته، أنه مكلف برسالة مقدسة. وهذه الرسالة عبء لكنه يحمله بحبور وجشع مشبوهين. فالمبشرون والتجار والعسكريون من مختلف الدول يتنافسون بشراسة، وأحيانا تنافسا داميا، من أجل السيطرة على مناطق جديدة. وفى كل مكان، يتكشف المغمورون من المستكشفين والمغامرين والجنود عن رجال يريدون أن يكونوا ملوكا، بالقوة أو بهالة الزعامة الملهمة: امبراطور الصحراء، ملك الباتاجون، سلطان كافير ستان، عاهل مورونى، عاهل جزيرة باك، الخ. وفى غضون عقود، تختفى المناطق البيضاء من خريطة العالم ويتم إلحاق الأراضى المجهولة (من جانب البيض) بنظام الدولة - الأمة.

ومهما يكن مذهلا فى المسعى والنتائج، فلا شىء من ذلك كله يعد جديدا حقا. لقد غير المرتزقة الأسلحة، والتجار الأساليب، والأنبياء الرسالة، لكن الأخيلة ظلت كما هى. يحلم نابليون بأن يحذو حذو الاسكندر فيزحف على مصر. وباستيلائه على مدينة الجزائر يستأنف

شارل العاشر الحرب الصليبية. والحقيقة أنه ليس هناك انقطاع بين حلم دوبلكس* وحلم جول فيرى**. وإذا أعاد المرء قراءة قصص الفروسية، يمكنه أن يجد فيها بالفعل كل عالم خيال الملحمة الاستعمارية. إن مآثر الفرسان المتجولين تمتد إلى ما وراء البحار. وهناك شئ من دون كيشوت فى هؤلاء الإخوة الأصغر فى العائلة: من كورتيز إلى سافورنيان دوبرازا***، من دييجوده ألماجرو**** إلى لورد كيتشنر، الذين ينطلقون لبناء امبراطوريات[٣].

إن نداء العالم الفسيح لا ينقطع. ويعاد تلفيق مسوغاته بلا انقطاع.

هكذا يعتبر هارى ماجدوف أن فترة ١٧٦٠ - ١٨٧٥ طور هام من أطوار الامبريالية، ذلك أن الأمر يتعلق، فى رأيه، بامبريالية ملزمة بالتصنيع وبالبحث عن أسواق تصريف. وبطبيعة الحال فالدوافع أكثر إبهاما وأبعد منالا وأشد تعقيدا، وتعد امتدادا لدوافع الحروب الصليبية والفاتحين الأسبان. يبقى أنه فى ١٨٠٠، كانت أوروبا تسيطر نظريا على ٥٥٪ من الكرة الأرضية وتستغل فعليا ٣٥٪ من مساحتها [٤]. و«الامتدادالإقليمى للمستعمرات الأوروبية»، وفق عنوان كتاب لأحد الجغرافيين فى مستهل هذا القرن، هو الشكل الأكثر كاريكاتورية لهذا التغريب الفج. وينقل عنه لينين هذه الإحصائيات البليغة:

---

* جوزيف فرانسوا دوبلكس (١٦٩٦ - ١٧٦٣): إدارى فرنسى، مدير عام شركة الهند - المترجم.

** جول فيرى (١٨٣٢ - ١٨٩٣): رجل دولة فرنسى؛ كوزير للتعليم أعلن مجانية وعلمانية وإلزامية التعليم الأولى؛ كوزير للخارجية حبذ التوسع الاستعمارى الفرنسى فى تونس والكونغووتونكين - المترجم.

*** بييرسافورنيان دوبرازا (١٨٥٢ - ١٩٠٥): استعمارى فرنسى، حصل سلميا لفرنسا على جزء من الكونغو وأسس مدينة برازافيل - المترجم.

**** دييجوده ألماجرو (١٤٧٥ - ١٥٣٨): فاتح أسبانى، رفيق بيزارو فى فتح بيرو، دخل فى صراع مع بيزارو فاغتيل بأمر منه وانتقم له ابنه دييجو فقتل بيزارو - المترجم.

النسبة المئوية للأراضى التابعة
للدول الاستعمارية الأوروبية (+ الولايات المتحدة)

	١٨٧٦	١٩٠٠
أفريقيا	١٠,٨٪	٩٠,٤٪
بولينيزيا	٥٦,٨٪	٩٨,٩٪
آسيا	٥١,٥٪	٥٦,٦٪
أستراليا	١٠٠٪	١٠٠٪
أمريكا	٢٧,٥٪	٢٧,٢٪

إن زحف الأعلام الصغيرة للدول الرئيسية يمكن متابعته يوما بيوم تقريبا (٥).

سنوات	إنجلترا		فرنسا		ألمانيا	
	مساحة أ	سكان ب	مساحة	سكان	مساحة	سكان
١٨١٥ - ١٨٣٠	؟	١٢٦,٤	٠,٠٢	٠,٥	-	-
١٨٣٠ - ١٨٦٠	٢,٥	١٤٥,١	٠,٢	٣,٤	-	-
١٨٦٠ - ١٨٨٠	٧,٧	٢٦٧,٩	٠,٧	٧,٥	-	-
١٨٨٠ - ١٨٩٩	٩,٣	٣٠٩,٠	٣,٧	٥٦,٤	١	١٤,٧

أ - بملايين الأميال المربعة.
ب - بملايين السكان.

إذا أضفنا بلجيكا الصغيرة مع الكونغو الشاسع والبرتغال مع ممتلكاتها الاستعمارية العديدة، والولايات المتحدة مع البقايا الأسبانية، والشهية الفتية لليابان، وإذا سلمنا بأن فارس والصين وتركيا كان قد جرى الهبوط بها آنذاك إلى مرتبة أشباه مستعمرات، أمكننا أن نستنتج مع لينين أن العالم تم تقسيمه بين الدول الكبرى.

إحصائية أخيرة إجمالية وبليغة من وجهة النظر هذه:

المتلكات الاستعمارية للدول الكبرى (أ)
(بملايين الكيلو مترات المربعة وبملايين السكان)

	المستعمرات				المتروبولات		إجمالى	
	١٨٧٦		١٩١٤		١٩١٤		١٩١٤	
	كم٢	سكان	كم٢	سكان	كم٢	سكان	كم٢	سكان
انجلترا	٢٢,٥	٢٥١,٩	٣٣,٥	٣٩٣,٥	٠,٣	٤٦,٥	٣٣,٨	٤٤٠
روسيا	١٧	١٥,٩	١٧,٤	٣٣,٢	٥,٤	١٣٦,٢	٢٢,٨	١٦٩,٤
فرنسا	٠,٩	٦	١٠,٦	٥٥,٥	٠,٥	٣٩,٦	١١,١	٩٥,١
ألمانيا	–	–	٢,٩	١٢,٣	٠,٥	٦٤,٩	٣,٤	٧٧,٢
الولايات المتحدة	–	–	٠,٣	٩,٧	٩,٤	٩٧,٠	٩,٧	١٠٦,٧
اليابان	–	–	٠,٣	١٩,٢	٠,٤	٥٣,٠	٠,٧	٧٢,٢
إجمالى الدول الكبرى الست:	٤٠,٤	٢٧٣,٨	٦٥	٥٢٣,٤	١٦,٥	٤٣٧,٢	٨١,٥	٩٦٠,٦
مستعمرات الدول الأخرى (بلجيكا، هولندا، الخ.)							٩,٩	٤٥,٣
أشباه المستعمرات (فارس، الصين، تركيا)							١٤,٥	٣٦١,٢
بلدان أخرى (ب)							٢٨,٠	٢٨٩,٩
مجموع الكرة الأرضية							١٣٣,٩	١٦٥٧,٠

(أ) Lénine, op. cit., p. 278.

(ب) وما هي هذه «البلدان الأخرى»؟ سيام، الحبشة...، وكذلك أشباه مستعمرات أخرى غابت حقيقتها عن فطنة لينين.

بلغ التغريب، فى شكله الكولونيالى، ذروته عشية الحرب العالمية الأولى. الجميع يؤكدون ذلك ويتكيفون معه. ينبغى أن تسن الشعوب القوية القوانين للشعوب الضعيفة أو الأعراق الدنيا، لا بل المنحطة، فى كافة الظروف والأحوال - وتعتقد أوربا العجوز وأوروبا الجديدة، الاسم الحقيقى لأمريكا، كما قيل آنذاك، أنهما مشرعو العالم، «الرومان المحدثون» وفقا لإعلانات تيودور روزفلت، وبالفعل، يعلن صحفى يانكى، ستيد Stead: «أمركة العالم زاحفة».على أية حال، أليس هذا عبء الرجل الأبيض؟

إفلاس عناصر الامبريالية الثلاثة وإفلاس النظام القديم

فى ١٩١٤، اكتمل أخيرا تغريب العالم فى شكل **الإدارة الاستعمارية** الأوروبية. لقد أصبح الرجل الأبيض يسيطر على الكرة الأرضية بأسرها: قطاراته وبواخره تجتاز القارات وتجوب المحيطات، بل حتى تمخر مصعدة فى الأنهار الكبرى. ذلك هو العهد الجميل (مطلع القرن العشرين)!

ماذا يبقى من هذا الحلم بالسيطرة العالمية بعد ذلك بأكثر قليلا من نصف قرن؟ لا شئ أو لا شيء تقريبا. ومن الآن فصاعدا تغدو عطايا الامبراطورية أعباء حقيقية لم تعد الدول الاستعمارية السابقة تدرى كيف تتخلص منها. لقد أفلس ذلك التغريب. وكان الغرب ضحية لنجاحه ذاته ولتناقضات ذلك النجاح.

وإذا كان النظام الغربى القديم استعماريا من الناحية الجوهرية من حيث شكله السياسى، فقد ساهم فى إقامة تنظيم اقتصادى دعمه من جهة ومن جهة أخرى طعن فيه. ويمكن توضيح هذا التنظيم الاقتصادى بأسلوب كاريكاتورى بصورة لأوروبا هى ورشة العالم، وبقية العالم وهى متعهد توريد المواد الخام والحاصلات الزراعية. وكان من المفترض أن هذا التقسيم «العفوى» للعمل يتوافق مع الهبات الطبيعية لعوامل كل شريك وأنه يحقق مزايا للجميع. وما كان لهذا التنظيم الاقتصادى أن يوجد «بصورة طبيعية» على الإطلاق لو لم ينشئه النظام الكولونيالى والامبريالى عن طريق العنف المكشوف (فتح الأسواق على طلقات المدافع، المحاصيل الزراعية الإجبارية،...) أو العنف الرمزى (الترغيب والترهيب). ومع ذلك اكتسب هذا التنظيم الاقتصادى، بمجرد إقامته، رسوخا كبيرا ونزوعا إلى تأبيد نفسه ثم، بعد أن حقق هذا، إلى إعادة إنتاج النظام الذى كان يدعمه. ومن الناحية الجوهرية، ماتزال بلدان نصف الكرة الأرضية الجنوبى إلى يومنا هذا متخصصة فى إنتاج المحصول الواحد من حمضيات

استوائية ومواد أولية نباتية ومنتجات منجمية. هكذا كان بوسع النظام الاستعمارى أن يؤيد بقاءه بحرية اقتصادية لا تشوبها شائبة تقريبا. وكانت الليبرالية أيديولوجية تثير الإعجاب فى مجال تبرير هذا النظام القديم على هذا النحو. والواقع أن التبادل الحر يستبعد، فيما يفترض، كل ظلم وكل تفاوت على المستوى الاقتصادى.

على أنه كان لابد للتنافس بين مختلف الدول الأوروبية، وذات واقع أن نظام الدولة - الأمة الذى كان يحكم تعايشها يستند إلى حق الشعوب فى تقرير مصيرها، أن يؤديا مع مرور الزمن إلى أزمة للسيادة الغربية القديمة وإلى انحلالها. ذلك أن حق البلدان الأقوى فى السيطرة سياسيا على العالم يدخل فى تناقض مع الحق المتساوى للشعوب، وهو أساس السيادة القومية، والذى لا وجود بدونه لنظام عالمى. إن سيادة الرجل الأبيض أو السيادة الأوروبية تُخفق فى توطيد نفسها.

هكذا يبدأ الجزر حتى قبل أن ينتهى المد، وبالإضافة إلى ذلك فإن الإمبريالية الكولونيالية الآفلة هى محاولة يائسة لسدّ ثغرات النظام القديم. وإذا كان من الضرورى تحديد تاريخ يرمز إلى نهاية سيطرة الرجل الأبيض بلا منازع، يمكننا أن نأخذ هزيمة القوات الإيطالية فى عدوا فى ١٨٩٦ أمام جيوش الراس منليك*. ومنذ ١٨٩٧، لاحظ الدبلوماسى الفرنسى كارتونّية ديه فوسّيه ما يلى: «انتشرت أخبار عدوا عبر القارة السوداء بسرعة لا تُصدَّق». وهو يضيف أنها علّمت الأهالى أن الرجل الأبيض لم يعد قوة لا تُقهر. وسيؤكد سحق اليابانيين للروس فى ١٩٠٥ هذه الحقيقة بقوة وسيسجل بداية عصر جديد.

يصف أنا تول فرانس، بفكاهة لاذعة، الفضيحة التى كان يعنيها هذا النصر الآسيوى فى ذلك الزمان: «هذه حرب استعمارية، هكذا قال بصراحة موظف روسى كبير... غير أن العنصر الجوهرى فى كل حرب استعمارية هو أن يكون الأوروبى متفوقا على الشعوب التى يحاربها؛ وبدون ذلك لا تعود الحرب استعمارية، وهذا أمر بديهى. وفى هذه الأنواع من الحروب، لابد أن يهاجم الأوروبى بالمدفعية وأن يدافع الآسيوى أو الأفريقى عن نفسه بسهام، وهراوات، ومزاريق، وفئوس. ونحن نسلم بأنه قد يتزوّد ببعض بنادق الصوّان العتيقة والخراطيش. لكن لن يحدث بحال أن يتسلح أو يتدرب على الطريقة الأوروبية... لقد تحوّل اليابانيون عن ذلك. إنهم يحاربون وفقا للمبادئ التى يعلمها الجنرال بونال فى فرنسا. وهم يتفوقون كثيراً على خصومهم بالمعرفة والذكاء. وفيما كانوا يقاتلون أفضل من الأوروبيين فإنهم لم يراعوا مطلقا

* منليك الثانى (١٨٤٤ - ١٩١٣): امبراطور أثيوبى (١٨٨٩ - ١٩٠٩)، هزم الإيطاليين فى عدوا فأمّن بذلك استقلال بلاده - المترجم.

الأعراف السارية وهم بذلك يتصرفون بأسلوب مخالف للقانون الدولى العام».

«انتبهوا إلى أنكم حلقات وسيطة بين القرد والإنسان، هكذا قال لهم متفضلا السيد البروفيسور ريشيه، ومن هذا ينتج أنكم إذا هزمتم الروس أو الفنلنديين - اللاتفيين - الأوجريين - السلاف*، فهذا سيكون بالضبط وكأن القرود هزمتكم»، وينتهى أناتول فرانس إلى القول: «لم يرغبوا فى أن يسمعوا شيئا... »(٦).

وهكذا، عندما لم تكن المغرب بعد محمية فرنسية، وقبل أن تسعى عدوا ثانية فى ١٩٣٥** إلى أن تُغرق فى الدم الأثيوبى الذكرى المحرقة لعدوا الأولى بوقت طويل، بدأت بالفعل نهاية تفوق الرجل الأبيض. وهذه الأخيرة ستصبّ فى تصفية الاستعمار الشاملة، عبر سلسلة بأسرها من الأزمات. فلنستدع، استنادا إلى علامات طريق فى سياق النمو الملموس للتناقض النظرى للنظام الامبراطورى القديم، أربع ظواهر تدل، دون أن تستنفد المسألة، على مراحل تطور لارجعة فيه.

الظاهرة الأولى ليست شيئا آخر سوى أزمة الأيديولوجية والقيم الغربية. وتعود هذه الأزمة إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. فالمجتمع الحديث، الذى كان قد وجد توازنه وشكله الكلاسيكى فى صورة المجتمع البرجوازى، يرى قيمه تغدو موضوع رفض عنيف، خاصة مع صعود الاشتراكية. وتتعرض الرشادة الاقتصادية، الأساس الجوهرى للحداثة، للهجوم مع رفض المعتقد الليبرالى عن الحرية الاقتصادية وعن التنظيم الرأسمالى لأسلوب الإنتاج. ويترافق هذا الرفض للأسس النظرية، ولا سيما الأيديولوجية، للنظام القديم، والذى تدفعه الماركسية إلى أبعد مدى، مع رفض عملى. إن تمرد البروليتاريا يهدد بتدمير المجتمع البرجوازى. وتمثل الامبريالية، هذا الشكل الوحشى الأحمق لتغريب العالم، محاولة لتصدير التناقضات الداخلية لأوروبا العجوز. ولا يحول النجاح الجلى للمشروع الاستعمارى دون الزعزعة العميقة لنظام السلطة الملتزمة بالسيطرة شبه المطلقة للبرجوازية الرأسمالية. لقد فقدت هذه الأخيرة رشدها، أعنى ثقتها بتلاؤم ممارساتها مع قيمها. وأصبح يتعين عليها أن تستخدم العنف والنفاق لتحافظ على بقائها. وإذا كان إفساد النخب، ثم مجموع البروليتاريا، قد نجح نجاحا فاق كل أمل فى تحييد خطر دمار النظام فى أوروبا الغربية، فقد كان ذلك مقابل تبدلات خطيرة. فالليبرالية السياسية تعانى أزمة عميقة للغاية تفتح الطريق أمام صعود النظم الشمولية، هذه الكوارث المشئومة للحداثة.

---

* إشارة إلى بعض شعوب روسيا القيصرية - المترجم.

** إشارة إلى الغزو الإيطالى لأثيوبيا فى ١٩٣٥ - المترجم.

وسوف يتواصل النقد النظرى أكثر جذرية، لكن أكثر غموضا، مع نيتشه ثم هايدجر.

نشأت الظاهرة الثانية من خلال الحرب العالمية الأولى التى تؤدى دفعة واحدة إلى انقطاع فى عمل Fonctionnement النظام وتكشف بوضوح ساطع حدود الرسالة الحضارية للغرب. وعلى المستوى الاقتصادى، يجرى ترك مناطق شاسعة من مناطق «المحيط» Périphérie وشأنها. كما أن التقسيم الدولى للعمل، الذى كان قد حفر فى الهياكل الإنتاجية ضرورة السيادة الغربية، يُعاد النظر فيه جزئيا فى سياق الأحداث. ذلك أن العديد من المستعمرات أو أشباه المستعمرات (كالبرازيل) تغدو محكوما عليها بالاكتفاء الذاتى إن لم يكن بتنمية اقتصادية مستقلة. وحتى إذا كانت هذه التجارب محدودة وحتى إذا كانت الامبريالية الأمريكية قد احتلت، فى أحوال كثيرة، لمصلحتها، المكان الذى تركته شاغرا الدول الأوروبية الغائبة والموقعة على بياض، فقد تغيرت الأمور ولم يعد شئ كما كان من قبل. لقد تم إثبات أن «الحضارة والتقدم» يمكن أن ينموا دون وصاية غربية، دون مرور بالتقسيم الدولى للعمل – بالعكس تماما. والحقيقة أن سيطرة الأمم بنفسها على سياستها الاقتصادية هى الشرط الضرورى لازدهار أكيد. وبالتالى، يبدو الاستقلال مأمولا وضروريا، وذلك باسم نفس القيم التى استخدمها الغرب من أجل استعباد هذه البدان. وقد تعزّز كل هذا بطبيعة الحال بهذه النتيجة الأخرى للحرب العظمى، الثورة الروسية، التى كان صداها هائلا فى المستعمرات، فالتجربة السوفيتية تقدم مثالا يحتذى، وتأثيرها النفسى هائل. فها هو شعب كبير، شبه مستعمر، وشبه آسيوى فضلا عن ذلك، حرّر نفسه من النير الغربى ويعلن بناء مجتمع جديد رافضا فيما بدا قيم الحداثة: الفردية، الليبرالية الاقتصادية، الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج.

يشكل هذا الحدث ثغرة هامة فى ادّعاء الغرب أنه النموذج الوحيد للحضارة. وسوف تقضى بربرية الحرب ذاتها على كل أساس لهذا الادعاء. والواقع أن البرجوازية التى أقامت سلطتها بفضل خرافة استئصال الموت بأشكاله الثلاثة (العنيف، البائس، الطبيعى) لا تُؤمّن السلام الداخلى إلا مقابل مذابح هائلة. أما أولئك الأكثر «بدائية»، المجندون فى جيوش قُردان فقد شُهد لهم بأنهم، فضلا عن ذلك، صالحون تماما للاستخدام وقودا للمدافع على قدم المساواة مع المواطنين. وبإشراكه للمستعمرين (بفتح الميم) فى مهرجاناته الدامية، يفقد الغرب ذريعة رسالته الحضارية.

وهكذا تُقوّض السلطة الاستعمارية أركانها الخيالية. ولن يبقى لها أكثر من قوتها، الواهنة تماما مع ذلك. لقد زال الإجماع والشرعية إلى الأبد فى ميادين القتال فى المارن.

ويشكل إخفاق النموذج الاقتصادى الليبرالى فى الغرب ذاته الظاهرة الهامة الثالثة. ففى

الثلاثينات، فى سياق الأزمة الكبرى، تتخلى بلدان «المركز» الغربى عن التبادل الحر بل تتنكّر، على الصعيد الداخلى، لمزايا المنافسة. وفى كل مكان، ترتفع حواجز الحماية الجمركية، وتتنافس كافة البدان على تدخل الدولة، التخطيط، الاقتصاد الموجّه. كما أن الثقة باليد الخفية، داخل التنظيم الطبيعى والتلقائى فيما يزعمون، يجرى التنكّر لها. وفى الوقت ذاته فإن كل ما كان يمثل عظمة الغرب، أساطير عصر التنوير، يُلطَّخ فى الأوحال على يد الفاشيات المظفرة. وتكمل هذه الضربة الجديدة تجريد التغريب الامبراطورى من أدنى مسوّغ.

لم يكن لحرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ نفس مغزى حرب ١٩١٤، لأن الرجل الأبيض كان قد فقد مكانته منذ وقت طويل. ولما كان النظام الاستعمارى لم يعد يرتكز إلا على ضعف المستعمرين (بفتح الميم) ولم يعد يحافظ على بقائه إلا بالقوة، فإن الإنهاك الذى انتهى إليه التنافس الحربى بين الدول الاستعمارية يجعل تصفية الاستعمار محتومة. وتتنكّر الدولة المسيطرة الجديدة، الولايات المتحدة، حيث سيتجسّد من الآن فصاعدا غرب جديد جدّد شبابه بحمام الدم هذا، للميراث الاستعمارى. وفى سبيل أمركة العالم على أفضل نحو، يتنكّر روزفلت الثانى لروزفلت الأول. والحقيقة أنه، فى عالم يقبل على نحو شامل من الآن فصاعدا قيم الحضارة والتقدم، لم يعد الاستعمار الكولونيالى يبدو ضروريا للسيطرة الغربية. ذلك أن العلاقات المتميزة بين المتروبولات والمستعمرات القديمة ضارة أيضا بالتوسع الأمريكى. إن الامبراطوريات تتهاوى. وكانت المحاولة الأخيرة، تلك التى قام بها موسولينى بغزو أثيوبيا، هى الأولى التى تنقلب فجأة إلى مسخرة مهزلة مأسوية كان قد فات أوانها. أما الامبراطورية الأخيرة التى كانت لاتزال هامة، فى الستينات، الامبراطورية اللوزيتانية*، فهى مشروع غير مربح ولا يجنّب متروبولها المكانة المهينة لبلد التخلف.

تبدو تصفية الاستعمار وكأنها المرحلة الأخيرة لأزمة النظام القديم ونتيجتها. غير أن هذه النهاية مؤقتة لسببين: أولا، لأن النظام القديم يؤبّد نفسه فيما بعد تصفية الاستعمار، تحت شكل استعمارى جديد، ثانيا، لأن «الأساس الاقتصادى» يتحول مع التصنيع المحيطى الذى يجرى تحت الراية المزدوجة للتنميات القومية والشركات عبر القومية.

وبالمقابل، فيما وراء كافة هذه التقلبات، يبدو أن شيئا ما من الغرب يدوم وكالعنقاء يُبعث من رماده أكثر جمالا وأكثر شبابا بعد كل جَزْر.

* أى الامبراطورية البرتغالية - المترجم.

ثانيا: انتصار نموذج عالمى

مع تصفية الاستعمار، غادر المبشّرون المتأهبون للانطلاق من الغرب مقدّمة المسرح، لكن «الرجل الأبيض يبقى فى الكواليس ويجذب الخيوط». وهذا التأليه للغرب لم يعد تأليها لوجود واقعى، لسلطة مُذِلّة بوحشيتها وغطرستها. إنه يقوم على قوى رمزية: سيطرتها المعنوية أكثر خبثا، لكنْ أيضا أقل إثارة للاعتراض. وهذه العناصر الجديدة للسيطرة هى العلم، والتقنية، والاقتصاد، وعالم الخيال الذى تقوم عليه هذه العناصر: قِيَم التقدم.

التأليه العالمى للعلم والتقنية

أصبحت التقنية أداة جبارة لاستعمار الأجساد والأرواح. لقد كسرت الزوارق الحربية البرتغالية بقيادة ألبوكيركه احتكار العرب لتجارة التوابل وأنشأت سلسلة من الوكالات التجارية تربط لشبونة بما كاوا مرورا بالكاب، هرمز، جوا، ملقا. وصنعت بنادق الفتائل الأسبانية المعجزات ضد أسلحة مونتزوما* المصنوعة من الزجاج البركانى. وأخيرا، فى سياق عملية الاستعمار فى القرن التاسع عشر، أصبح للتفوق العسكرى دور حاسم.

مع ذلك، كما نعرف، فمن القرن السادس عشر، إلى القرن التاسع عشر، لم يكن التفوق التقنى لأوروبا أكيداً فى مواجهة الصين والهند، ولم يكن بوسع التفوق العسكرى لأسلحة كورتيز وبيزارّو** أن يعوّض وحده النقص العدديّ الهائل.

وفى هذه الحالة الأخيرة ينبغى أن نضع فى اعتبارنا دور الدهاء، وانعقاد العزم على مشروع امبراطورى عدوانى، والترغيب، والاستخدام الفطن للأساطير المحلية. كان كل ذلك بلاشك محصلة «لهذا الإسهام الغربى بصفة نموذجية»، والمتمثل فى الوعى بالذات، وفقا لكورنيليوس كاستورياديس Cornélius Castoriadis . وكما يقول هذا الأخير: «من جهة أخرى هناك حضارات راقية للغاية لكن قائمة على الوعى الجمعى بالجماعة، بالقبيلة، بالطائفة، جرى اكتساحها بتأثير الإنسان الغربى. ليس لأنه كان يمتلك سلاحا ناريا أو خَيْلا، بل لأنه كان يمتلك حالة عقلية مختلفة جعلته قادرا على أن ينتزع نفسه من العالم وعلى أن يستردّه عن طريق فعالية داخلية»(٧).

والحقيقة أن التفوق الأوروبى يرتبط بفعالية أسلوب تنظيمى يجند كافة التقنيات من

---

* مونتزوما (١٤٦٦ - ١٥٢٠): امبراطور الأزتيك (١٥٠٢ - ١٥٢٠) - المترجم.

** فرانسسكو بيزارّ و(١٤٧٥ - ١٥٤١): فاتح أسبانى، فتح بيرو بمساعدة أخويْه جونزالو وهيرناندو، وقُتل فى ليما على يد أنصار غريمه ألماجرو - المترجم.

أجل تحقيق هدفه فى السيطرة، من الانضباط العسكرى إلى الدعاية، أكثر مما يرتبط بهذه التقنيات ذاتها.

وسوف يتضح أيضا أن هذا «النظام الآلى» Machinerie الاجتماعى جوهرى فى سياق المجابهة مع الشرق. ورغم نقصها دون شك فى البداية على المستوى الدقيق لمعارف علمية بعينها وفى مجالات تقنية عديدة، تقدم أوروبا تنظيما تقنيا أكفأ كثيرا بالفعل. والواقع أن البحث المهووس عن الأداء Performance فى كافة المجالات يسمح لها بأن تدمج فى الحال كافة العناصر الأجنبية التى من شأنها أن تعزز قوتها، سواء فى أساليب التنظيم أو التقنيات أو المنتجات. وسوف يغدو هذا التفوق التقنى الحاسم منذ القرن التاسع عشر ورقة رابحة للسيطرة ذاتها كما يظل حجة للسيادة النيوكولونيالية. وكما يقول رينيه بيرو-René Bu-reau: «عندما يكون المرء قادراً على صُنْع صواريخ زنة مائة طن تصعد فى عشر دقائق إلى ارتفاع عشرة كيلو مترات، تكون له حقوق على أولئك الذين لم يخترعوا العجلة: هذا ما نعتقد، اعترفوا بهذا»(٨).

وهو يضيف: «شرٌ من ذلك، سمعتُ أفارقة يقولونها». وفى ذلك يكمن السرّ الحقيقى للتغريب الراهن للعالم. إن حق السيطرة لم يعد استبعاداً للضعيف من جانب ذلك الذى تجعله التقنية قويا، بل هو الخاصية المباشرة للتقنية بحكم بداهة تفوقها. لقد غدت التقنية جزءاً من عقيدة عالمية – النتيجة الملموسة والحضور الجلىّ للإلة الجديد: العلم.

أسهم المبشرون المسيحيون كثيرا فى نشر هذه العبادة العلمانية. ذلك أن تنصير السكان «الهمجيين» لم يكن يحتاج إلى شيء احتياجه إلى إثبات فعالية سحر الرجل الأبيض. وعندما يتجلى، بفضل التقنية، أن سحر الرجل الأبيض متفوق على سحر السكان الأصليين، يكون التنصُر من حُسْن الفطِن... وينبغى فهم نسق الرجل الأبيض بوصفه كُلاً. فالرؤية العلمية للعالم، والهندسة التقنية، والطقس الدينى، هى من نفس طبيعة الكُلّ. وبتفوقهما على الآباء البيض، سيتفوق العلم والتقنية على مبدأ **التقليد الأعمى** Mimétisme فى التعاليم المسيحية. وبينما نرى نحن فى ذلك انقطاعا، يشعر غير الغربيين عن حق باستمرار ووحدة الغرب.

أدخلت الامبريالية الآلهة الجديدة. وكان على شعوب العالم، لكى تحرر نفسها من النير الاستعمارى وتخرج من الوضع المذلّ الذى يمثله استعباد البيض لها، أن تستوعب عدداً من وسائل السيطرة، وتتقمص هوية العدو، وتتوق إلى قوته. ومن الآن فصاعدا يكتسب العالم بأسره، على عدة مستويات، طبيعة مجتمع تقنى واحد. فالعلم واحد، والرياضة هى اللغة

المشتركة الحقيقية لكافة الأمم. ويؤكد طقس جوائز نوبل، بصفة دورية، عالمية ووحدة جماعة العلماء. وتقوم العبادة العالمية للتقنية بتهيئة الأمم والشعوب للخضوع بلا نفور لمقتضياتها.

على أن الإعجاب بالتقنية، وعبادتها، وحتى معرفتها المجردة، لا تكفى للتحول إلى غربيين. ذلك أن تحقيق مجتمع تقنى يمرّ بالتصنيع: أىْ بانقلاب فى العمق فى أهداف ووسائل عمل المجتمع. إن إرادة القوة ينبغى أن تتخذ شكل التراكم غير المحدود، كما ينبغى إلهاب المجتمع بأسره بحماس لا يقاوم للإنتاج، وألاّ يحصل على مُتَعه إلا فى سياق تقدمه غير المحدود.

سيطرة ما هو اقتصادى:
السوق الواحد وخرافة التنمية

أحدث الاستعمار انقلابا عميقا فى الهياكل الاقتصادية لكافة مناطق العالم، حتى أقاصى المعمورة. وتأثرت كافة الشعوب بعمل السوق العالمى وتُسهم فى التقسيم الدولى للعمل. ومن خلال قلب أوضاع التنظيمات التقليدية للإنتاج والاستهلاك بواسطة متطلبات السوق، وقوانين المنافسة، والعنف المكشوف، وخلق الأبنية التحتية للاتصال، أقامت أوروبا سوقا عالميا واحدا، فدمجت التجمعات الأكثر همجية فى النظام الآلى الواحد. ومن الآن فصاعدا، ستُعيد الهياكل الإنتاجية إنتاج نفسها «عفويا» من خلال مجرد قوة القصور الذاتى وآليات السوق، مغلقةً على المثلين داخل جدران مصير يتعذر تقريبا كسره. وتغدو التغيرات الوحيدة هى تلك التى تُمليها «الآلة». وما من أمر سماوى ترسّخ منذ الأزل كما كان «دور» جُزُر الأنتيل فى إنتاج السكر. وبتحويل كوبا إلى مزرعة ضخمة لقصب السكر، ثبّتت أوروبا مصيرها لعدة قرون. بل إن ثورة اشتراكية طمحت إلى الصناعة الثقيلة لم يكن بمستطاعها أن تقلب هذا الوضع للأمور.

وبدمج مختلف أجزاء العالم فى سوق عالمى، فعل الغرب أكثر من مجرد تعديل أساليب إنتاجها: لقد دمر معنى نظامها الاجتماعى الذى كانت تلتحم به هذه الأساليب بقوة بالغة. وبالتالى يغدو ما هو اقتصادى مجالا مستقلا للحياة الاجتماعية وغاية فى حد ذاتها. وتحلّ محلّ الصيغ القديمة للكينونة أكثر الغاية الغربية المتمثلة فى الامتلاك أكثر. وتُوجّه الرفاهية كافة المطامح (السعادة، بهجة الحياة، التفوق على النفس...) وتتلخص فى بعض الدولارات الإضافية.

هكذا يجرى تعميم الطموح إلى التنمية. فالتنمية هى التطلع إلى نمط الاستهلاك الغربى،

إلى القوة السحرية للبيض، إلى المكانة الموتبطة بهذا الأسلوب للحياة. أما الوسيلة المفضلة لتحقيق هذا التطلع فهى التقنية بطبيعة الحال. ويعنى الطموح إلى التنمية المشاركة فى الإيمان بالعلم وتبجيل التقنية، لكنه يعنى أيضا المطالبة بالإصالة عن النفس بالتغريب، للكون أكثر تغريبا، من أجل التغرُّب من جديد.

الغزو الثقافى

ينطلق فيض «ثقافى» بمعنى فريد من بلدان المركز ويجتاح الكرة الأرضية... تتدفق صُور، كلمات، قيم أخلاقية، قواعد قانونية، اصطلاحات سياسية، معايير كفاءة، من الوحدات المبدعة على بلدان العالم الثالث من خلال وسائل الإعلام (صُحُف، إذاعات، تليفزيونات، أفلام، كتب، أسطوانات، فيديو). ويتركز الجانب الأكبر من الإنتاج العالمى «للعلامات» فى الشمال، أو يُصنع فى معامل يسيطر عليها، أو حسب معاييره وموضاته.

وسوق المعلومات شبه احتكار لأربع وكالات: أسوشييتيدبرس ويونايتيد برس (الولايات المتحدة)، رويتر (بريطانيا العظمى)، فرانس برس. وتشترك فى هذه الوكالات كافة إذاعات العالم، كافة شبكات تليفزيون العالم، كافة صحف العالم. ويتدفق ٦٥٪ من «المعلومات» العالمية من الولايات المتحدة. ومن ٣٠٪ إلى ٧٠٪ من البثّ التليفزيونى مستورد من المركز. وعلى أية حال، يستهلك العالم الثالث السينما أقل ٥ مرات، الإذاعة أقل ٨ مرات، التليفزيون أقل ١٥ مرة، ورق الصحف أقل ١٦ مرة بالمقارنة مع المركز[٩].

وهذا الفيض من المعلومات لا يمكنه إلا أن «يشكّل» رغبات وحاجات المستهلكين، أشكال سلوكهم، عقلياتهم، مناهج تعليمهم، أنماط حياتهم. وتعد هذه الدعاية الخبيثة «هبة» لا تقاوم تشهد على الحيوية الطاغية للمجتمعات العالية التطور، لكنها تختق كل إبداع ثقافى لدى الأسرى السلبيين للرسائل. وعلى هذا النحو تقوم فرنسا بتأمين خدمة إعلامية مجانية عن طريق الأقمار الصناعية عند أجواء الإذاعات والتليفزيونات الأفريقية. وهى تقدم يوميا عشر دقائق من أحداث الساعة العالمية والأفريقية، وأفلاما تسجيلية. كما أنها تبث ٢٥٠٠ ساعة سنويا من البرامج المجانية. وهى، أخيراً، توزع أفلاما فرنسية وتقدم إعانة مالية لـ ٨٠٪ من الأعمال السينمائية لأفريقيا الناطقة بالفرنسية.

وبطبيعة الحال تجنى فرنسا بعض المكاسب من هذه الهدية المقدمة إلى رؤساء الدول الأفارقة. وقد تبنت كافة بلدان أفريقيا الناطقة بالفرنسية نظام سيكام SECAM باستثناء الكاميرون التى اختارت النظام الألمانى بال PAL غير أن فرنسا تمدها بـ ٨٠٪ من المعدات[١٠].

على أن العوائد التى لا جدال فيها لصناعة المسموعات والمرئيات الفرنسية قد لا تكون الأكثر أهمية. وسيكون من العبث إجراء محاسبة مبتذلة. فالحقيقة أن الدينامية تدفع إلى الهبة، والنواتج سياسية بقدر ما هى رمزية، وتنضح بمنطق اجتماعى يعزز هذه الدينامية.

والنتيجة الأكثر وضوحا فيما يتعلق بأفريقيا هى أنه لا وجود لصناعة مسموعات ومرئيات أفريقية حقيقية ولا لسعى حثيث لاستحداثها. وتنتهى هذه السيرورة إلى فقدان الذات. ذلك أن الجماعة المغزوة لم يعد بمستطاعها أن تفهم نفسها إلا من خلال مقولات الآخر. وهكذا تجد أيديولوجية العلم والتقنية والتقدم والتنمية نفسها منقولة عبر هذه القناة، بصفة مباشرة، أو «مدمجة» فى رسائل أخرى. كما أن التحويل عبر القومى Transnationalisation للاتصالات بفضل الأقمار الصناعية وتقنية معالجة المعلومات بالكمبيوتر L'informatique سيعززاتساق النماذج وعدم رتابة فيض المعلومات. ويمكننا الحديث بهذا الخصوص عن **سيادة** ثقافية للبدان الغنية بشرط أن نفهم آليتها جيدا. وإنما بالهبة وليس بالاغتصاب (أو النهب كما يفضل القول أنصار العالم الثالث) يجد المركز نفسه متمتعا بقدرة استثنائية على السيطرة. على أن هذا المنطق الخانق للهبة يعمل فيما يتعلق بكافة عناصر الثقافة بالمعنى الواسع وليس فقط فيما يتعلق بالسلع «الثقافية» بالمعنى الضيق. ونلقاه من جديد فيما يتعلق بالتغذية وكذلك فيما يتعلق بالتكنولوجيا.

تنميط عالم الخيال

يشكّل القبول الفعلى للتقنية فى استخدامها اليومى، والإيمان المشترك بالعلم بوصفه مصدر معجزات التقنية، والخضوع القسرى لما هو اقتصادى – بعد أن أنعشها وعززها جميعا الغزو الثقافى – عوامل لا تُقاوم لتنميط عالم الخيال. وينقل العلم والتقنية والاقتصاد محتوى خياليا بالغ الثراء. وتتحدد علاقة الإنسان بالعالم ضمن هذه الأشياء أعمق تحديد. إن الأمر يتعلق بتصور الزمان والمكان، بالعلاقة بالطبيعة، بالعلاقة بالانسان ذاته. ومن الآن فصاعدا تعيش الإنسانية بأسرها فى التقويم المسيحى وعلى أساس توقيت جرينتش. ولن نفكر أبدا كما ينبغى فيما يعنيه ذلك. وبطبيعة الحال هناك تقاويم أخرى: التقويم الهجرى فيما يتعلق بالإسلام، والتقاويم البوذية، وبعض التقاويم الأخرى. وهناك تقسيمات أخرى للسنة غير تقسيمات السنة الميلادية الغربية التى تقتفى أثر حياة المسيح، بأطوارها المتميزة. ونحن نعرف السنة التنينية والتيت... غير أن هذه المخلفات المثيرة والفولكلورية ليس لها كبير تأثير على جداول مواعيد الطائرات. فالتنظيم العملى يسير، لضرورات «تقنية»، على

النظام الواحد. ويغدو المثل الأعلى إعادة تسطيح الكرة الأرضية وإلغاء المناطق الزمنية. ولهذا يضبط أعضاء هيئات بعض الشركات عبر القومية ساعاتهم على توقيت مركز شركاتهم، أىْ على توقيت نيويورك. وفى الفيلم الممتاز للغاية، **ألف مليار دولار**، نرى المديرين من كافة الأمم ومن كافة الألوان يُحْيُون حفلهم السنوى الكبير فى الساعة ٣ صباحا بالتوقيت المحلى.

ومن اللافت للنظر أن العالم خضع لهذا التقسيم فى وقت أقلّ بكثير من أوروبا ذاتها. ولم يحدث إلا فى ١٥٦٤، فى عهد شارل التاسع، أنْ تم تثبيت بداية السنة الرسمية فى أول يناير. ولن تتبنى روسيا هذه «الطريقة الجديدة» إلا مع بطرس الأكبر فى ١٧٢٥، وانجلترا فى ١٧٥٢. وكان بونابرت هو الذى قضى على المقاومات الأخيرة، هنا وهناك، فى بقية أوروبا! وفى القرون الوسطى كان تحديد التاريخ يختلف من بلد إلى آخر. كانت السنة تبدأ رسميا فى يوم عيد الميلاد فى ألمانيا، وسويسرا، والبرتغال، وأسبانيا، وفى أول مارس فى البندقية، وفى ٢٥ مارس فى انجلترا. وفى روما تارة فى ٢٥ يناير وأخرى فى ٢٥ مارس. وفى روسيا فى الاعتدال الربيعى. وفى فرنسا كانت بداية السنة الرسمية فى يوم عيد القيامة، أى فى عيد غير ثابت التاريخ: كانت السنوات «على الطريقة الفرنسية» تتراوح إذن بين ٣٣٠ و ٤٠٠ يوم. وكان لبعض السنوات ربيعان. ولم تنتقل روسيا من التقويم الجوليانى إلى التقويم الجريجورى إلا وهى تتحول إلى الاتحاد السوفيتى. ومن المعروف أن ثورة أكتوبر يُحتفل بها فى نوفمبر!

أما توقيت جرينتش فهو يسجل انتصار التصور الميكانيكى والنيوتونى عن الزمن على التصورات التقليدية، المرتبطة بتعاقب الفصول وبمواقع النجوم. وكانت النتيجة المنطقية لذلك تنميط بالغ لأساليب الحياة والفكر ومحاكاة mimésis معممة. وفى عالم من الطائرات والمطارات «محوّ الحدود الإقليمية» يلتقى المرء بأناس بكافة الألوان ومن كافة الأقاليم، مرتدين ملابسهم بنفس الطريقة، نازلين فى نفس الفنادق التابعة لمجموعات الفنادق الدولية، ومتحدثين بالانجليزية الدولية، ومتناولين الأطعمة الدولية. ويجد **مجتمع النفاثات** jet society عبر القومى هذا بعض الامتدادات حتى فى أقصى أطراف الكرة الأرضية. هكذا يمكن للمرء أن يسمع فوق مرتفعات غينيا الجديدة آخر أسطوانة رائجة فى نيويورك تنطلق من ترانزستور، وأن يرى فى أعماق أدغال جنوبى آسيا فلاحا يشرب كوكاكولا، وأن يلتقى فى قرية فى أدغال أفريقيا بسيارة تويوتا يقودها وجيه محلى... ورغبةً فى التشبه بالأسياد، أو بحكم ضرورات الحياة، أو لأن الامتثال للقواعد المقررة هو القانون، يندفع التقليد بلا حدود، كاريكاتوريا فى المؤسسات وبعض أنواع السلوك، خبيثاً فى مجال السيطرة بلا منازع على

تقنيات السيطرة على السكان، والقمع، والتدريب على الأسلحة والممارسات البوليسية. وما كان تقليدا أخرق بريئا يغدو صورة مرآة مقطبة تردّنا إلى حقيقتنا. وبطبيعة الحال لا تزال هناك أكواخ من الطين المجفّف حيث يقوم سكان أصليون أنصاف عراة يحملون المسالف بتقديم القرابين إلى التمائم – لكن إلى متى؟ ألا يحلمون باستبدال التراب المدكوك بأحجار رباط، وقش السقف بصفائح حديد متموجة، ولمبة الجاز بالكهرباء، والتمائم بأجهزة كهربائية منزلية وعلماء؟ ومهما كانت رغبتهم، فهل سيمكنهم أن يفلتوا من توحيد العالم بينما يمكن لعين أقوى الأقمار الصناعية أن ترصد أدنى حركة يأتون بها ويمكن لآذانها أن تسجل أخصّ أحاديثهم؟ لقد بدأ حقا عصر العالم المتناهى وقد بدأ بوصفه نهاية لتعدد العوالم. هناك عالم واحد يتجه إلى أن يغدو عالما متماثلا. وهذا الانعدام للتمايز بين الكائنات البشرية على مستوى الكرة الأرضية هو فى الواقع تحقيق للحلم الغربى القديم. وبالامتثال **لطريقة الحياة الأمريكية** american way of life، تكمل الكائنات البشرية إنجاز الحلم الجامح لتيودور روزفلت بأمركة العالم، بل كذلك حلم كافة الامبرياليين. وكما يقول أناتول فرانس: «الحلم بانجلترا عظمى، بألمانيا عظمى، بأمريكا عظمى، يقودنا مهما شاء المرء أو فعل إلى الحلم بإنسانية عظمى»[11].

وهذا التوحيد للعالم يكمل انتصار الغرب. ونحن ندرك تماما أن قيام أخوّة عالمية ليس على الإطلاق غاية هذا التوسع المسيطر. فالأمر لا يتعلق بانتصار **لل** إنسانية بل بانتصار **على** الإنسانية، ومثل المستعمرين (بفتح الميم) منذ عهد قريب، فالإخوة هم **أيضا** وأولاً رعايا. على أية حال، ما هو هذا الغرب المنتصر الذى ينهب **السيادة** فى نهاية المطاف ويتقلد السلطة الامبراطورية؟

٢ - ما هو الغرب؟

«إن الآلة الإنتاجية الأكثر ضخامة هى لذلك بالذات الآلة التدميرية الأكثر هولا. الأعراق، المجتمعات، الأفراد، الفضاء، الطبيعة، الغابة، باطن الأرض! كل شئ ينبغى أن يكون نافعا، كل شئ ينبغى أن يكون مستغَلاً، كل شئ ينبغى أن يكون منتجا، إنتاجا مدفوعا إلى طاقته القصوى».

پييركلاستر[1]

تكشف التجربة التاريخية الفريدة والنوعية للعالم الحديث عن مجموع من القوى المستمرة نسبيا والأبعاد الثابتة تحت أشكال متجددة دوما. ومن الطبيعى تماما أن نعزو العناصر الدائمة التى تتكشف على هذا النحو إلى ذات تُسمَّى «الغرب». والواقع أن ما يعرف بهذا الاسم فى الاستعمال الشائع يشمل التجربة المتعددة الأشكال والإخفاق التاريخى اللذين التقينا بهما من قبل.

على أن الاتجاه المعاكس والمتمثل فى تعريف دقيق للغرب ممارسة محفوفة بالأخطار أكثر بكثير لكنها مع ذلك ضرورية. ويفترض تقييم ظاهرة التغريب وبصفة خاصة تحديد مغزاها أن نقدم، كفرضية على الأقل، نظرة مجملة لجوهر الغرب. على أنه ليس من السهل أن نفهم فهما كاملا لا النوع المميز للغرب ولا اختلافه النوعى.

وتُبيِّن لنا الإلمامة التاريخية السريعة فى الفصل السابق أن الغرب ينبغى النظر إليه ضمن كيان جغرافى: أوروبا، وضمن ديانة: المسيحية، وضمن فلسفة: التنوير، وضمن عرق: العرق الأبيض، وضمن نظام اقتصادى: الرأسمالية، كما تُبيِّن أنه مع ذلك لا يتطابق مع أية ظاهرة من هذه الظواهر. ألا يتعلق الأمر إذن، إلى حد بعيد، بثقافة أو حضارة؟ غير أنه بافتراض حلّ المشكلات المفزعة التى ينطوى عليها تعريف هذين المفهومين، يبقى استخلاص الخصوصية الغربية لهذه الثقافة ولتلك الحضارة. غير أن مجموع السمات المتتابعة التى نستخلصها من المجمل التاريخى ومن الفحص التحليلى لهذا البحث السريع يرسم صورة لا تشبه أى شئ نعرفه ولا يمكن إلاّ أن تُصيبنا بالذهول، وحتى بالرعب؛ والواقع أن الأمر يتعلق، بكل معنى الكلمة، بمسخ بالقياس إلى مقولاتنا المتصلة بتصنيف الأنواع: نصف جهاز آلى نصف جهاز عضوى. هكذا يبدو لنا الغرب وكأنه آلة حية تروسها بشر، وهى مع ذلك، فى استقلال إزاء أولئك الذين تستمدّ منهم القوة والحياة، تتحرك فى الزمان والمكان على هواها.

أولاً: الغرب: مكان ومصير
من شبه الجزيرة الأوروبية
إلى الشكل الثلاثى الأضلاع

الغرب قبل كل شئ **كيان جغرافى**. ومن اللافت للنظر أن هذه اللفظة لا تدلّ على موقع أو مكان بعينه بل على جهة. وهذا الموضع، حيث تغرب الشمس، يتبدل معها حيث أننا نعلم أن الأرض تدور. وبطبيعة الحال، لا وجود للغرب، ولا للشمال، ولا للجنوب، ولا للشرق، غير أنه فى منطقة ما، يغدو الشرق الأقصى الغرب المجاور. فالولايات المتحدة الشرقية تقع غرب المغرب (ومعناه الأصلى الغرب[٢]). وتقع اليابان غرب ساحل كاليفورنيا... وهى «بلاد المساء» تماما كما هى بلاد الشمس المشرقة. كما أن كوريا ليست بلاد الصباح الهادىء أكثر منها بلاد «المساء المضطرب»...

وهناك غرب جنوبى وغرب شمالى.

وإذا كانت أعمدة هرقل* قد ظلت طوال قرون الغرب الأقصى لعالم متوسطىّ**، فإن إنجلترا و - فى الطرف الأقصى - آيسلندا (L'Ultima Thulé) *** هما نهاية غرب العالم المسيحى الشمالى. ويغرق الغرب المغربى نهائيا فى الاستشراق بينما يتزحزح مركز ثقل التاريخ الحديث من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلنطى. ولكى تصل مراكب الكارافيل إلى الشرق فإنها تدفع الغرب إلى الوراء حتى الهند الغربية****.

لقد أصبح الغرب، فى الوقت الحالى، فكرة أيديولوجية أكثر منها جغرافية. وفى الجغرافيا السياسية المعاصرة يعنى العالم الغربى مثلثا تحيط أضلاعه بنصف الكرة الأرضية الشمالى حيث أوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة. ويرمز الشكل الثلاثى الأضلاع جيدا إلى هذا المكان الدفاعى والهجومى.

هكذا صار الغرب فكرة يميل مدلولها وحتى الانحرافات عن أساسها الجغرافى إلى اختزالها إلى مكان خيالى. ومع ذلك لا يمكن فهمه إلا انطلاقا من أصله الجغرافى.

وإذا كان الغرب يُظهر مثل هذا الشرود الجغرافى، فهل ينبغى أن نرى فيه، انطلاقا من

---

* أعمدة هرقل: تسمية أسطورية للجبال على ساحلىْ مضيق جبل طارق باعتبار أنها نهاية العالم - المترجم.

** نسبة إلى البحر الأبيض المتوسط - المترجم.

*** اسم أطلقه الرومان عل جزيرة آيسلندا ومعناه: أقصى شمال المعمورة - المترجم.

**** الهند الغربية: أمريكا كما سماها كولومبوس - المترجم.

بعض دروس التاريخ، كيانا عرقيا أو اقتصاديا أو أخلاقيا أو دينيا؟ لاشك فى أن أبعاداً كهذه ماثلة فى بعض العهود ويمكن أحيانا أن تبدو أساسية أو سائدة.

عبء الرجل الأبيض

هل يمكننا، على سبيل المثال، أن نختزل الغرب إلى **كيان عرقى**؟

لا جدال فى أن القرن التاسع عشر آمن بتفوق العرق الأبيض. وسوف تصبح مهمة تمدين العالم عبء الرجل الأبيض، وامبراطورية العالم جائزته. وليس هناك أدنى شك فى أن عصر الامبريالية كان الشكل الأبيض للتغريب.

وإذا كان الغرب قد أصبح منذ وقت طويل قابلا للاستيعاب فى لون واحد للبشرة فإن ذلك لا يخلو من مشكلات – وعلاوة على ذلك فاللون الأبيض هو قبل كل شئ أمر رمزى: «البيض» يتراوحون بين اللون الوردى والأسمر البرونزى... -؛ فهذا التغريب متناقض تماما. وبدون الدخول فى مجادلات الأنثروبولوجيا الجسمانية حول انعدام تماسك فكرة العرق الأبيض، نشير إلى أن التفوق لا يخصّ كل البيض، ولا يخصهم كلهم بصورة متساوية، ولا يقتصر قطعا على البيض... وقد اعتقدت كافة شعوب أوروبا تقريبا أن لها دورا خاصا فى هذه الامبراطورية. ولم تتأكد نزعتا الجامعة الجرمانية والجامعة السلافية إلا فى مواجهة الطموح الأنجلوساكسونى، وحتى اللاتينى، إلى الهيمنة. ومع ذلك يشكل النجاح الأكيد لليابان، الذى خلّص آسيا من أسطورة الرجل الأبيض، تحدّيا رهيبا لتفوق العرق الأبيض. يضاف إلى هذا أن «الأداء» المتواضع لبيض جنوبى أوروبا، منذ القرن السابع عشر، وناهيك ببيض شمالى أفريقيا والشرق الأوسط، يُربك كل التصنيفات. وكان على بيض جنوبى أفريقيا أن يقرروا أن رجال الأعمال اليابانيين هم «بيض شرف»، فى حين أن «الآسيويين» (الهنود من العرق الآرى مع ذلك) هم «الملوّنون» Coloured .

على أن تغريب العالم لا يمكن أن يكون تحويلا لغير الأوروبيين إلى بيض...، ويصطدم المشروع التمدينى بالتناقض المستعصى المتمثل فى أن الناس لا يمكن أن يكونوا سادة ومتساوين. والواقع أن تعريف الغرب بالعرق الأبيض يختزل تغريب العالم إلى استعباده فى سياق المشروع الاستعمارى. ولا شك فى أنه تكمن هنا حقيقة عميقة من حقائق التغريب لا ينبغى إغفالها فى سياق الأشكال الأكثر رهافة للتغريب المعاصر. وعلى أية حال، يمثل إخضاع الكرة الأرضية لعرق متفوق مشروعا مناقضا لمسار الاستيعاب والتنميط الذى سبق لنا تشخيصه.

تحت راية الصليب

هل يمكننا إذن أن نستوعب الغرب فى **كيان دينى**؟ فى كثير من الأحيان يقترن بالغرب نعت المسيحى: وتعبير «الغرب المسيحى» لدى الحركات المتطرفة الرجعية - أليس تحصيل حاصل؟ ألم نلتق كشكل أصلى للغرب بـ: العالم المسيحى؟ والواقع أن التوحيد ينطوى على أساس متين للغاية لتبشير نشيط. كما أن الهداية بالسيف والإيمان أساس من أسس التوسع الغربى. ومع ذلك فإن العالم المسيحى يتقاسم هذا الأساس تماما مع الإسلام الذى يؤسس توحيده الأكثر صرامة دعوة أوفر قوة أيضا. والواقع أن حالات دخول الإسلام أكثر عددا بكثير فى الوقت الحاضر من حالات التنصير وتبدو أكثر صلابة.

على أن للرسالة المسيحية للإنجيل محتوى أكثر **عالمية** مما للقرآن. ذلك أن الاعتراف بالفرد كقيمة مطلقة أوضح فى المسيحية مما فى الديانتين التوحيديتين الأخريين. وهو يقيم صلة **شخصية** ممتازة بين كل مؤمن وبين الله. ولهذا تجد المسيحية نفسها مجردة من **كل أصل ثقافى**. وهى قابلة عمليا للاتساع لكل البشر (بشرط محو ثقافتهم...).

كان الخلاص المسيحى مكونًا هاما من مكوّنات الغرب. وقد ظل تغريب العالم زمانا طويلا، ولم يكف تماما عن أن يكون، تنصيرا. غير أن العالم المسيحى كلٌّ غير متجانس، وذلك منذ نشأته تقريبا، ولئن كان مسيحيو الشرق (الأقباط، الملكيون) أو أفريقيا (أثيوبيا) أقرب على الأرجح إلى المسيحية الأصلية فإنهم لم يُظهروا دينامية داخلية وخارجية ذات وزن. ومنطوين على أنفسهم، فى موقف الدفاع، يستهويهم التنسُّك أكثر من المشروع العلمانى المتمثل فى السيطرة على الكون. ذلك أن الورع لم يتجه إلى القيم العلمانية للعلم والتقنية، كما أن الأنوار السماوية لم تُنورّ الدنيويين قطّ. والواقع أن نفس الشئ ينطبق نسبيا على **العالم المسيحى الأرثوذكسى**.

ولايزال رفض «الفيض عن الابن» Filioque يخلّف أصداء عميقة إلى يومنا هذا فى روسيا السوفييتية [٣]. ذلك أن الصراع بين السلطتين، المدنية والعسكرية، لن يحدث هناك.كما أن الصراع بين البابوية والامبراطورية، الحاسم لتحرير المدن التجارية، وكذلك الصراعات العديدة بين السلطتين، لن يكون لها مكان هناك أبدا. وسوف يظل المجتمع المدنى مكبوحا وضامرا دائما، كما أن الفردية سوف تحتفظ بشكلها الهامشى كما هو الحال فى المجتمعات الكلانية holistes؛ وسوف تكون قسمة النساك، المتشردين، الراسبوتينات... والواقع أن الديانة الأبوية، حيث يجرى تقديس الأمير ويُمنح رجال الدين امتيازات دنيوية، امبراطورية

أكثر من الامبراطوريين. وفيما وراء المطامح المباشرة للسلطة فما من قوة، ما من خميرة غليان، تسعى بصفة دائمة إلى إخراج المجتمع عن طوره. ولم يكن التبشير الأصلى للمسيحيين الشرقيين، والذى يدفع بالنسطوريين حتى الصين، سوى حماس سريع الزوال. وعلى العكس من ذلك فإن العالم المسيحى الغربى الكاثوليكى، المستقل نسبيا، دعم حقا توسُّعية الموجة الأولى وحتى الثانية من الاستعمار. كما أن الدور العهشيرى للغرب قبل الحرب الصليبية الأولى يتجلى تماما فى سياق فورات التنصُّر الذاتى. ويقول فرنان بروديل Fernand Braudel عن حق: «الواقع أن التجربة الكارولنچية هى المنطلق، أو أنها، إن شئتم، أكدت ميلاد العالم المسيحى وكذلك أوروبا، فالتعبيران متطابقان إذن تقريبا، شأنهما فى ذلك شأن شكلين هندسيين متطابقين تماما»(٤).

ومقاومة شارل مارتل عند بواتييه، لكن أكثر أهمية أيضا: التنصير الوحشى للساكسونيين على يد القديس بونيفاس - ألا يمثلان «الحرب الصليبية الأولى»، أىْ فعل تأكيد الذات للغرب كعقيدة وكقوة؟

ومع ذلك فإن هذا التأكيد للذات لا يجد مصدره ذاته فى الرسالة المسيحية الوحيدة التى ينشرها، وسوف تنتهى «كثلكة» العالم إلى اللهاث أمام المقاومات الدينية والثقافية(٥).

والواقع أن البروتستانتية فى شكلها البيوريتانى (وبعض إسقاطاتها فى كاثوليكية التقوى) سوف تعطى الغرب اندفاعا جديدا. ذلك أن الفردية مدفوعة إلى أقصاها تخلق «أخلاقا» دنيوية واقتصادية بصورة جذرية: **النفعية**. وفى الوقت ذاته فإن عالمية هذا التصور تهب نفسها محتوى إيجابيا لم تنته قوته التدميرية من استنفاد نفسها: إعلان حقوق الإنسان.

ولم يكن بوسع الإثراء الحتمى، الذى أدت إليه ممارسة تقشّف شخصى يرفع من شأن الجهد والحساب ويتابع بقلق دلائل الاصطفاء الإلهى فى مجال النجاح الدنيوى، إلا أن يقود بسرعة إلى إضفاء طابع دنيوى على هذا الدين، المذهبى والطائفى مع ذلك. والشكل الدنيوى للبروتستانتية هو الاقتصاد السياسى. وفى نهاية المطاف فإن تطابق الغرب مع هذا الكيان الدينى يعود فيستوعبه داخل كيان اقتصادى.

ولم يكن للتبشير البروتستانتى الخالص مدى يفوق تبشير العالم المسيحى الكاثوليكى، رغم ثراء ودينامية الطوائف. إنه يصطدم بنفس الحدود. وبالمقابل فإن تبشير الرسالة الدنيوية، تبشير حقوق الإنسان، والديمقراطية الشكلية، والنفعية، والحساب الاقتصادى، والعلم

والتقنية، والنمو والتنمية، سيشهد نجاحا مذهلا لكن يمكن استيعابه وربما إعادة اكتشافه وحتى تجاوزه من جانب شعوب ذات تراث بوذى، وكونفوشى، وشنتوىّ. ومثال اليابان والبلدان الصناعية الجديدة فى جنوب شرقى آسيا شاهد على ذلك.

لاشك فى أن وحدة الغرب - العالم المسيحى تنطوى، رغم حدودها، على حقيقة عميقة. وتكمن هذه الأخيرة فى الفردية إذا سلّمنا بتحليل لوى دومون Louis Dumont[٦]: «من الناحية السوسيولوجية، ربما كان تحرير الفرد خارج - الـ - العالم داخل جماعة تدبّ على الأرض لكنْ وقلبها فى السماء صيغة مقبولة للمسيحية»[٧]. وهو يضيف: «يبدو لى أن هذا المخاض المسيحى وحده يجعل مفهوما ما أسميته (البروميثية الفريدة والغريبة للإنسان الحديث)»[٨].

هذه الفردية، وهى نتيجة غير مقصودة للمزيج اليهودى - الهيلينى، لا تنتشر حقا إلا مع الإصلاح الدينى وخاصة كالفن: «النموذج الأصلى للإنسان الحديث، بإرادته الحديدية التى تمد جذورها فى الإيمان بالقضاء والقدر»[٩]. وهذه الإرادة تمتزج بالقلق عندما يهبط الخلاص من السماء إلى الأرض ليخلق روح المغامرة، حب الاكتشاف، طموح الفتح. وبعد أن فقد هويته الثقافية، يستدير الإنسان الحديث نحو الآخر للإمساك بظله المفقود. وإذا خلصته إرادته الحديدية، بصفة عامة، من الاستيعاب من جانب الآخر، فإنها تؤدى بالتأكيد إلى تدمير الآخر. ومن المحتمل حقا أن يكون هذا هو الثمن الذى ينبغى دفعه فى سبيل الوصول إلى «الوعى بالذات».

لاشك، إذن، فى أن الظاهرة «التبشيرية» حقيقة أكيدة من حقائق الغرب تبقى بعد كافة مضامينها الدينية. ونحن نلقاها دائما وهى تفعل فعلها تحت أكثر الأشكال تباينا. ففى أوكورومبا، فوق مرتفعات غينيا الجديدة، يقع المقر العام الكبير للمعهد الصيفى للغويات Summer Institute Of Linguistics. وعلى خريطة ضخمة وردت فيها أسماء الجماعات الإثنية البابوية السبعمائة والخمسين ذوات اللغات المتباينة، يضع المجلس القيادى الكبير أعلاما صغيرة بمختلف الألوان أولا بأوّل كلما تم إخضاع اللغات، كلما تُرجمت التوراة والأناجيل بواسطة المبشرين الموفدين إلى هناك بهدف غزو الأرض. ونفس الظاهرة موجودة فى الأمازون. ويتبع زرع وكالات الغوث الكاثوليكى فى أفريقيا، من ١٩٤٥ إلى يومنا هذا، نفس منطق الغزو. ويرتفع عددها من ٤ (داكار، لومى، دوالا، برازافيل) إلى ٢٢ فى ١٩٥٨ ثم إلى ٥٧ فى ١٩٦٥. ويبدو أن مضاعفة الهيئات غير الحكومية (ONG) والمنظمات

الخيرية، وكذلك تنسيقها المتزايد وترشيد عملها، تخضع حتى لمنطقٍ للجبهة...: يتقدم كلٌّ ببيادقه، فى سياق مباراة رهانها شكل أكيد من أشكال السيطرة على العالم. وبحكم قوة الأشياء لم يكن بوسع الأفرقة، وهى فى كثير من الأحوال واجهة كما هو الحال فى المجال السياسى، أن تُبدّل طبيعة هذا المسار، لأن قاعدة اللعبة هى ذاتها وهى بلاشك من نفس طبيعة جوهر الغرب.

على أن غزو الرأى العام الغربى وتعبئة الطاقات، عن طريق إرهاف الحس إزاء مآسى العالم الثالث (وكنت أوشك أن أكتب: إزاء المسألة الكولونيالية كما كان الأمر أيام الحزب الذى كان يحمل نفس الاسم)، يحدثان وفق أساليب وتقنيات ألتقى بأثرها فى حياتى الشخصية التى عشتها طفلا.

فعندما كنت تلميذا فى دار تعليمية دينية فى إقليم بريتانى مسقط رأسى، شاركتُ وفقا لمبدأ التطوع الإلزامى والحماسى فى حركة اسمها «الحرب الصليبية لسّر القربان المقدّس». (أىْ نعم!). وكان الأمر يتعلق بمساعدة العمل التبشيرى الكبير حسب قدراتنا كأطفال (وقدرات آبائنا). وكان المطروح علينا أن نفتدى، باستخدام مبالغ صغيرة، زنوجا صغارا وصينيين صغارا وأن نكسبهم للمسيح عن طريق التنصير. وكان بوسع المرء، مقابل ١٠٠ فرنك قديم (ثمن عشرين قطعة من الكاراميلّة)، أن يغدو إشبيناً لأصفر صغير أو السيد الرمزى لأسود صغير. وربما لأن ثورة ١٩٤٩ الشيوعية جردتنى من استثماراتى الآسيوية الطفولية، تُصيبنى الحيرة عندما أقرأ جدول أسعار الأعمال الصالحة الذى نشرته هيئة الغوث الكاثوليكى فى ١٩٦٤ لابتياع ضمير مرتاح بالتحويل المالى الصغير. وها هو مقتطف منه يستدعى على نحو لا يُقاوم فيما يخصّنى مراراتى القديمة:

- حمار لنقل الخضروات.. ٧٥ فرنكاً
- منحة لتدريب معلم.. ٥٠٠ فرنك
- محرك (موتور) لبئر.. ٣٠٠٠ فرنك
- بئر... ٥٠٠٠ فرنك
- منحة لتدريب مسئول متفرغ لدورة تدريبية فى باريس.............. ٤٠٠٠٠ فرنك

لاشك فى أن هذا النشاط الإحسانى والعقلانى ليس سوى مظهر، ومظهر جذاب، للغرب، لكننى أعتقد أن الغرب يتمثل فى ذلك أيضا. وحتى فى الوقت الحاضر، ينشأ الجانب الأكبر من مشروعات التنمية كقاعدة فى العالم الثالث، على نحو مباشر أو غير مباشر، تحت راية الصليب...

الرسالة الأخلاقية أو الفلسفية للغرب

مرة أخرى يمنعنا الإلحاد المعاصر أو، على الأقل، اللامبالاة الدينية من أن نرى فى الغرب عالما مسيحيا. على أن علمنة الدين ذاتها لا تجعل من الغرب مكان الحامل التجريدى أكثر فأكثر لرسالة أخلاقية. وهكذا يغدو الغرب مجموعا من القيم سمتها السائدة هى **العالمية**.

وربما كان ينبغى الحديث عن **علمنات** بصيغة الجمع. والحقيقة أن تفسير الرسائل التى تنتج عن ذلك هو موضوع لمجادلات ومساجلات. ولاشك أن الاقتصاد السياسى ديانة دنيوية، غير أن العقلانية البروتستانتية، مختزلةً إلى النفعية، ليست رسالة أخلاقية بقدر ما هى وصفة عالمية بجلاء للنجاح فى «الأعمال التجارية». وفى نظر كثير من المدافعين عن «الثقافة الغربية» يعد اختزال الغرب إلى كيان اقتصادى سوء فهم متعسفا. وفى انسجام مع تقاليد معادية للثورة مناهضة للرأسمالية ترى اتجاهات يمينية جديدة متباينة فى الانحرافات المركنتيلية الدليل على النفوذ اليهودى. وإذا كانت عالمية الديمقراطية والفردية والحرية مرفوضة أيضا مع نيتشه باسم جماعة عضوية أسطورية جرمانية - آرية، يغدو إلزاميا أن نستنتج أن الغرب غارق فى المستنقعات المعتمة لتخوم الشمال الأوروبى وأحلام اليقظة الأوسيانية.* ولا يمكن لغرب كهذا أن يفرض نفسه حتى على نفسه إلا عن طريق إرهاب شنيع وبشع، والواقع أن التغريب لم يحدث بفضل هذا الغرب. ولم يجر الشروع فيه فى سياق التجربة النازية والفاشية إلا لقاء تناقضات عديدة فى مفهومه ذاته. والحقيقة أن النفعية والتقنية والاقتصاد كانت ضرورية كوسائل وقد فرضت نفسها كغايات أيضا فى سياق هذه التجارب التى ادّعت التخلى عنها.

و«الغرب، بلاد المساء»، وفق تعبير هايدجر[١٠] - هل هى البلاد الأسطورية التى تُولد فيها الفلسفة مع حلول المساء، عندما تظهر بومة منيرفا وتكون الشمس قد قطعت لتوها مشوارها الطويل؟

الواقع أن أثينا ثم أثينا الجديدة، برلين، وبصفة أعمّ ألمانيا، هى المواقع التى وُلدت وتطورت فيها التجربة الفلسفية. فهل ينبغى أن نرى فى هذه التجربة (أكثر مما فى محتوى الرسائل) نواة ما يشكل ما يمكن أن نسميه «الغرب»؟ لاشك فى أن هذا صحيح تماما بشرط

---

* أوسيان Ossian: محارب وشاعر أسطورى آيرلندى من القرن الثالث الميلادى، نشر جيمس ماكفرسون (القرن الثامن عشر) أشعارا نثرية نسبها إليه وزعم أنها ترجمات لنصه الأصلى وكان لها تأثير كبير على الأدب الرومانسى - المترجم.

عدم إضفاء طابع المثال على الغرب، والتسليم بانحرافاته وثورات هذيانه حتى فى تجارب إباداته الجماعية، المبيتة والتقنية، للآخر الذى يلازمه كظله والمتمثل فى اليهودى الذى جرى الهبوط به إلى مرتبة الحثالة.

والحقيقة أن التقنية، التكنوقراطية، هذا الصعود للصحراء والذى يشجبه هايدجر عن حق، ليست أشياء غريبة على الغرب. إنها الغرب ذاته. وهذه الصحراء تزحف على الكرة الأرضية بعيدا جدا عن مسقط رأسها.

هذه الصورة الغروبية ليست هى التى تقدم فيها رسالة الغرب نفسها تحت الضوء الأكثر بريقا. وهذا الالتواء العدوانى الهاذى دليل على أزمة مأسوية. إنها مسألة إثبات - نفى مدفوعة إلى ذروتها. ويقود الحنين إلى الهوية المفقودة إلى الاستدارة لواقعها التاريخى للبحث - بوسائل استحدثها بدورها ما نتنكر له (الاقتصاد والتقنية) - عن تحقيق الوهم الخيالى لما نريد أن نكونه. والواقع أن هذا النهج الانتحارى (بما يتضمنه ذلك فى صورة الإبادة الجماعية للآخر) هو أيضا حقيقة من حقائق الغرب، وخطر محدق دائماً فى الأفق.

فى مقابل هذه الصورة القاتمة تنتصب صورة عصر التنوير المنتصر. فالرسالة الأخلاقية للغرب، فى تراث المفكرين الليبراليين وفلاسفة القرن الثامن عشر، ستغدو قيم حقوق الإنسان والديمقراطية. ولا تتمثل رسالة الغرب فى استغلال العالم الثالث، ولا فى تنصير الوثنيين، ولا فى سيطرة الرجل الأبيض، بل تتمثل فى تحرير البشر (ولا سيما النساء...) من الاضطهاد والبؤس. والحقيقة أن إعلاء شأن الفرد ضد ضغوط تحيزات ومعتقدات وولاءات المجتمعات التقليدية يساعد على ازدهار الإنسان وبناء مجتمع للأنداد. وتسمح هذه القيم ببناء سلام عالمى، مجتمع للأمم من شأن مقرطته وتمدينه (احترام حقوق الإنسان) أن ينتهيا إلى الإخاء العالمى. وضدّ كراهية النفس التى تميز الرؤية المعادية للامبريالية والتى تصبّ فى الشمولية الحمراء، ينبغى كفكفة نحيب الرجل الأبيض وتأمين نجاح هذا التغريب للعالم.

أما واقع أن العالم قد تمّ بالفعل تغريبه بهذا المعنى إلى حد بعيد فإن وجود إعلان عالمى لحقوق الإنسان لمنظمة الأمم المتحدة ووجود قانون دولى عام وخاص كان ملهماهما جروتيوس Grotius* وبوفيندورف Puffendorf** ماثلان لتذكيرنا به. مع ذلك، هل كان بوسع هذه

* جروتيوس (١٥٨٣ - ١٦٤٥): رجل قانون ودبلوماسى هولندى، مؤلف: مجموعة القانون الدولى العام (١٦٢٥) -- المترجم.

** بوفندورف (١٦٣٢ - ١٦٩٤) رجل قانون ومؤرخ ألمانى، مؤلف: قانون الطبيعة والبشر - المترجم.

العالمية أن تفرض نفسها بحكم قوة إغرائها لو لم يكن الغرب سوى هذه الرسالة الأخلاقية؟ وهل يمكن لإلغاء البؤس أن ينتج حقا عن تحرير الطاقات على نحو برىء؟ والانفلات النفعى للمصلحة الشخصية - ألا يفرّغ الديمقراطية من الجانب الأكبر من محتواها من خلال تحويل البشر إلى تروس فى الآلة التقنية الهائلة؟

والواقع أن اختزال الغرب إلى الأيديولوجية الخالصة للعالمية الإنسانوية خادع للغاية دون أن يتفادى لذلك فخاخ الأنا وحدية الثقافية التى تقود كل حق إلى الإبادة الإثنية L'ethnocide. ومن الصعوبة بمكان أن نفصل المنحدر التحررى؛ أىْ ذلك الخاص بحقوق الإنسان، عن منحدر الاغتصاب؛ أىْ ذلك الخاص بالصراع من أجل الربح. فالاثنان وجهان لعملة واحدة ينطوى اسمها «الليبرالية» على كل التناقض. ذلك أن حرية التجارة هى الضمانة والعلاج فى مواجهة الخطر الشمولى. وهى لا تخلق «الثروة الجديدة للأمم» ولا القديمة بثمن أقلّ من الإيمان بانسجام المصالح.

الغرب والرأسمالية

أليس الغرب هو المكان الذى يجسد العلاقات السلعية أو هذا الحد الأقصى من العلاقات السلعية: العلاقات الرأسمالية؟ الواقع أن التبادل السلعى هو المنبع «لآلة» توسعية ومنفلتة. ومهما كان مبلغ عدم اليقين بصدد تفسير النص الشهير لأرسطو فى السياسة (١. ٨ إلى ١١)، فإن الأمر يتعلّق رغم كل شئ بشجبٍ لعدم تكافؤ العلاقة السلعية وبتحريفٍ «لطبيعة» النقود. فبعد أن كانت وسيلة، تغدو هذه الأخيرة غاية، دون أن يكون أىّ قيد ماثلا فى صميم منطق التبادل. وينطوى كل مجتمع توجد فيه العلاقات السلعية على خميرة تدمير للنظام السياسى والأخلاقى. وتندسّ قيمة (وهى القيمة الاقتصادية، وعلى وجه الدقة لا - قيمةanti valeur - أخلاقية) فى تروس الصلة الاجتماعية. وتجد الجماعة نفسها جزئيا فى حالة انفجار وغليان، فاقدةً استقرارها على أيدى التجار الذين يتسع الأفق أمامهم بلا انقطاع، بحثا عن مصادر جديدة للأرباح.

على أن استيعاب الغرب فى العلاقات السلعية ليس مُرْضيا حيث أن هذه الأخيرة توجد فيه على أية حال منذ زمن وجودها فى الامبراطورية السماوية وفى المناطق التى ستشكل الأراضى العربية - الإسلامية. ولن تغدو هذه المجتمعات السلعية أساليب إنتاج سلعية أو مجتمعات تجار. كما أن التجار لن يصبحوا سائدين فيها. ذلك أن «عدم تكافؤ» العلاقة السلعية يجرى تحييدها بصفة دائمة وفعالة من جانب التنظيم الاجتماعى السياسى. ففى

الصين يطمح أبناء التجار المثرين إلى المناصب الامبراطورية العليا. وفى العالم العربى تصادر الثروات المتضخمة فى أكثر الأحيان - إن لم تبدد فى نفقات احتفالية. وهذه المجتمعات لا تناضل ضد رأسمالية تجهلها، بل من أجل بقائها، بالإبقاء على توازن ما بين مختلف القوى الفاعلة فيها وباستخدام الديناميات الطاردة المركزية فى تماسك الكل.

وبالمقابل فإن مطابقة الغرب مع الرأسمالية أكثر جدية بكثير ومبررة إلى حد بعيد بلاشك. لقد نشأت الرأسمالية بلا جدال فى أوروبا الغربية، فى وقت واحد فى الشمال والجنوب. وفيها تطورت خلال قرون. ومن هناك انتشرت فى بقية العالم، غير أن هذا الانتشار كان على وجه التحديد شكلا من أشكال إخضاع العالم للغرب. ولم يكن هناك سوى القليل من الإحياءات الرأسمالية ومراحل النضج خارج المنطقة الأصلية. وعندما تطورت رأسماليات «أصيلة» فى أماكن أخرى، كما فى الولايات المتحدة واليابان، صارت هذه البلدان بدورها جزءاً دائما من الغرب.

على أن هذا الاختزال للغرب إلى نظام اقتصادى ليس مُرْضيا تماما. حقا يمكن حل المشكلة التى تطرحها بلدان أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى بسهولة: لدينا سلسلة بأسرها من البراهين القوية التى تؤدى إلى اعتبار أن الاشتراكية كما تحققت فى الواقع ليست سوى شكل خاص مختلف من النظم الرأسمالية والمجتمعات «الغربية». فنحن نلقى هناك، بكل تأكيد، التصنيع مع التمدين وتحويل الجماهير إلى بروليتاريا، لكنْ بوجه خاص: عبادة الآلة والتقنية والعلم والتقدم واستئناف مشروع الحداثة المتمثل فى سيطرة شاملة على الطبيعة. وإذا كانت النتائج متواضعة فليس هذا عيب واقع أن هذه البلدان جعلت من أخلاق العمل والسعى وراء الأداء هاجسا إعلاميا.

مع ذلك، هناك عقبات أكثر خطورة: فاختزال الغرب إلى نظام رأسمالى يفترض أن ما حدث قبل ميلاد الرأسمالية لم يعد يخصّ الغرب! على أنه، رغم محاولات الاقتصاديين اختزال الرأسمالية إلى مجرد آلية، طبيعية عند الليبراليين، اصطناعية عند الاشتراكيين، يبدو حقا أن الرأسمالية هى على وجه التحديد مظهر من مظاهر الخصوصية «الغربية» للغرب وليست طبيعته الجوهرية. وإلاّ لما تعارض شئ مع هذه الإحياءات العالمية للرأسمالية، ولأصبح العالم منذ الآن بمثابة سوق واحد، أمة واحدة، مجتمع واحد متجانس ومتماثل، استهلاكىّ وأجرىّ.

هكذا يغدو التأكيد الذاتى للاقتصاد غير مُرْض على نحو مزدوج، فهو يشق تاريخ أوروبا المسيحية وتاريخ توسعها إلى شقّين. شقّ قبلى تُعزى ديناميته إلى عوامل «ثقافية»، وشقّ

بعدى تنشأ حركته من آليات اقتصادية. وهو، من جهة أخرى، ينفى خصوصية الغرب لحساب آلة طبيعية أو، على الأقل، قابلة للنقل reproductible (إلى مناطق أخرى).

أما المزيد من حصر الهوية: الغرب يساوى **التصنيع**، فيظل أقل إرضاء. ولا شك فى أن التصنيع، كما تجلى منذ القرن التاسع عشر، بجانبه المثير، بالاضطرابات العنيفة التى يؤدى إليها، بمساره التراكمى غير المحدود، هو السمة الخارجية الأكثر جاذبية للغرب ولممارسة قوته. غير أن هذه مقولة غير متماسكة محصورة بين النظام الرأسمالى كتنظيم اجتماعى والتقنية كمجموع لعلاقات الإنسان - الآلة - المادة. فالتصنيع مظهر منتشر ومتصل ومتكرر على مدى عدة قرون من مظاهر قوى أكثر عمقا تفعل فعلها فى المجتمع الغربى. أما التصور النمطى عن ثورة صناعية وقعت فى انجلترا فى منتصف القرن الثامن عشر فهو تصور خرافى إلى حد بعيد جدا. والحقيقة أن الانتقال من الأداة إلى الآلة، وتعميم الآلات، وتطور قدرة الآلات، هى عمليات انطلقت فى أوروبا منذ القرن الثانى عشر مع طواحين الماء والهواء الكبرى (والموجّهة ذاتيا من خلال آلية سيبرنطيقية منذ القرن الرابع عشر) وتتلاحق أمام أعيننا. ولا يمثل التفرد البريطانى سوى لحظة مثيرة فى سياق حركة شاملة بمحاولاتها وإخفاقاتها. (الدانمرك حيث يصطدم التوسع فى استخدام الآلات بقصور القاعدة الصناعية، بوهيميا حيث تُحبط الصناعة المنجمية ميكنتها...).

ولا شك فى أن العلاقة الرأسمالية هى القالب الرئيسى للتصنيع مع أن هذا النظام لا يستنفد جوهر الغرب.

***

إذا سلّمنا بأن هذا المفهوم للغرب فى محله كوحدة جوهرية تُشكّل أساسا لسلسلة بأسرها من الظواهر التى انتشرت عبر التاريخ، لن يكون بوسعنا أن نحيط به إلا فى سياق حركته. ولأنه غير قابل للفصل عن أساسه الجغرافى الأصلى، يميل توسيعه وتفريعاته إلى اختزاله إلى عالم خيال. فهو من الناحية الجغرافية والأيديولوجية متعدّد أضلاع ذو ثلاثة أبعاد رئيسية: إنه يهودى - هيلينى - مسيحى. فحدود نطاقه الجغرافى تتعين بدقة إلى هذا الحد أو ذاك وفقا للعصور. وتغدو تخومه أيديولوجية أكثر فأكثر.

فباعتباره أرض الهيلينية، ثم العالم المسيحى الوليد، والامبراطورية الرومانية المظفرة، وحتى الامبراطورية العربية - الإسلامية، يكتسب وجهه الملامح الأكثر تميزا وهو يبدّل موقعه من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى ضفتىْ المحيط الأطلنطى. وبمقتضى سيرورة من التبدلات الصغيرة، يغدو متعدّد الأضلاع الغربى خاضعا فى سبيل ازدهاره لتأثيرات ثقافية

أخرى أقل ظهورا، لأنها بلا آثار «فكرية». ومن اللافت للنظر أن موقع العالم المسيحى الدينامى يغطى منطقة احتلال الكلتيين الذين لا يزال عدد من إسهاماتهم (وصحيح أنها ثانوية) ملحوظة. وليس أقل مدعاة للانزعاج أن نلاحظ أن هذا الحيز ذاته هو تقريبا حيز الغزوات الجرمانية وامتداداتها الفايكنجية.

وتنطوى الحرية الجرمانية، كما تطالعنا بقاياها فى الإقطاع، وأكثر أيضا فى مغامرات الفايكنج والنورمانديين، على نوع من التجسيد المسبق فى آن معا للمنافسة الحرة، والحرية المدنية، والمغامرات الاستعمارية.

ومن ذا الذى سيخبرنا فى يوم من الأيام ما هو الـ ظرف الذى لعب دور **العامل المساعد** فى هذا التهجين الثقافى ليصنع من الغرب هذه الآلة الهائلة التى ستقلب أوضاع الكرة الأرضية؟

وباعتباره الممالك البحرية التى تنطلق منها مراكب الكارافيل، وجمهوريات الشمال التجارية الحاذقة، ومواطن الفحم والحديد، والتصنيع، يمدّ الغرب جذوره فى القارة الأوروبية، بموقعها الجغرافى الفريد كبرزخ عند ملتقى الخطوط التجارية والثقافية، وتاريخها التعددى، قبل الشروع فى فتح وإعادة فتح العالم عبر حملات ينازعه فيها العنف على الإغراء، وهو يمتد ويولد من جديد من الجهة الأخرى للمحيط، وربما فى امبراطورية الشمس المشرقة. فأين سيكون غدا؟ على حافة المحيط الهادى، أىْ الـ Rim(«ساحل»)، كما يوجهه بعض الاستراتيجيين الحالمين من مقاعدهم الوثيرة.

لقد تطابق الغرب كليا تقريبا مع نموذج **محوّ الحدود الإقليمية** استحدثه بنفسه[11].

والشيء الهام فى رأينا هو الإيمان، الذى لم يسبق له مثيل على مستوى الكون والثقافات، بزمن تراكمى وخطّىّ وإسناد رسالة السيطرة الكلية على الطبيعة إلى الإنسان، من جهة، والإيمان بالعقل الحسابى لتنظيم نشاطه، من جهة أخرى. والواقع أن عالم الخيال الاجتماعى هذا الذى يكشف عنه برنامج الحداثة، كما هو موضح عند نيوتن وديكارت، يعود بجذوره بجلاء إلى الذخيرة الثقافية اليهودية، وإلى الذخيرة الثقافية الإغريقية، وإلى اندماجهما.

أما خارج الأساطير التى تبرّر الطموح إلى السيطرة على الطبيعة وخارج التصور المطرد، الخطّىّ والتراكمى للزمن، فإن أفكار التقدم والتنمية لا تملك قطعا أى معنى كما أن الممارسات التقنية والاقتصادية التى تنطلق منها مستحيلة تماما لأنها جنونية أو ممنوعة.

ثانيا: الخصوصية الغربية

ليس الغرب، غير القابل للاختزال إلى إقليم، مجرد كيان دينى، أو أخلاقى، أو عرقى أو حتى اقتصادى. إن الغرب كوحدة تركيبية من هذه التجليات المتباينة، كيان «ثقافى»، ظاهرة حضارية. ولا يزال علينا أن نتفق على معنى هذه الألفاظ وأن نستخلص خصوصية هذه الحضارة.

ثقافة «ثقافية» وثقافة «حضارية»*

لكلمة Culture (ثقافة، حضارة، الخ.) عديد من المعانى، كما تُستخدم فى سياقات متباينة للغاية، بدلالات متغايرة إلى حدّ أن هذه الكلمة تخلق طائفة من أشكال سوء التفاهم. فهل ينبغى، وفقا للاسمية الصارمة، إلغاؤها من اللغة «العلمية» ومضاعفة الكلمات الجديدة ذات المقابلات الواضحة، الدقيقة، المتميزة، فى مجال الواقع الفعلى لإزالة كل التباس؟ وبالاضافة إلى أن من غير المحتمل أن نواصل السير فى هذا الطريق فمن المشكوك فيه أن ينتهى بنا هذا الإجراء إلى النتيجة المأمولة. والحقيقة أن تعدّد معانى كلمة Culture هو السبب وراء نجاحها ذاته. فهى تسمح بأن تُفرغ فيها رغبات وطموحات هى عميقة بقدر ما هى غير دقيقة.

وفى أعمال سابقة عديدة[١٢]، عرّفنا الثقافة Culture بأنها الاستجابة التى أسهمت بها الجماعات البشرية إزاء مشكلات وجودها الاجتماعى، ويرتبط هذا التصوّر الذى نسميه «حضاريا» Culturale للثقافة بالمدخل الأنثروبولوجى. ففى المجتمعات السابقة للعالم الحديث، تغطىّ الثقافة كافة جوانب نشاط الإنسان. ذلك أن هذه المجتمعات تجهل تماما الاقتصاد بما هو كذلك. حيث أن «المجال» الاقتصادى يكون «منتظما» فى الكلّ الثقافى وصنواً لهذه الاستجابة الشاملة لتحدّى الكينونة. أما المجتمع الحديث فإنه «مخترعا» الاقتصاد، أىْ مُضفيا استقلالا على «مجالٍ» لإنتاج وتوزيع واستهلاك الثروات المادية، وهو مجال يغدو من المشروع والضرورى له تخصيص الموارد تخصيصا أمثل، فقد اختزل الثقافة إلى الشواغل «الثقافية» للوزارات التى تحمل اسمها. والحقيقة أن هذا الاختزال يجد أصله فى الميتافيزيقا الغربية التى تُجزّىء، منذ أفلاطون، وحدة الكينونة إلى مادة وروح. وهكذا لا تغدو الثقافة أكثر من الوعى (وحتى الوعى الزائف) الذى يمتلكه مجتمع بممارساته «المادية»

---

* حضارية Culturale: وسنورد هذه الصفة الفرنسية مع العربية عندما لا تكون هذه الأخيرة ترجمة لأحد مشتقات لفظة Civilisation – المترجم.

عَبْر الدين والفن وكافة وسائل التعبير. وهذا التجلّي الثقافى قد يصبّ بكل سهولة فى الفولكلور، مثل «زنجية» négritude سنغور، عندما تكون الأشياء «الجادة» التى تخصّ الاقتصاد هى المعنية. فاحترام الثقافات لا يمس إذن نموذج التنمية ولا يكون البُعْد الثقافى سوى ترف يمكن للمرء فى نهاية المطاف أن يتقدم به كقربان فى طقس اليونيسكو، عندما يقيم مهرجانا للفنون الأفريقية أو يفتتح متحفا للتقاليد الشعبية.

ويتداخل معنيان آخران لكلمة Culture مع المعنييْنْ السابقيْنْ. الثقافة بوصفها مجموع التصورات والرموز التى يمنح الإنسان بواسطتها معنى لحياته، لتجاربه العينية، وثقافة الإنسان المتعلم Cultivé. والمعنى الأول يصوّره على أكمل وجه تحليل ج - ب. دوبوى J. - P. Dupuy وج. روبير J. Robert: «البرنامج الذى يشكل ثقافة يمكن النظر إليه على أنه نسق متّسق من **الرموز** (اللغة، الفن، الأساطير، الطقوس) يسمح للبشر بعقد صلات ذات مغزى فيما بينهم ومع عالمهم، وبالعثور على معنى لبيئتهم ولحياتهم، وبالتالى بتوطيد إحساس ما بالأمان، الهش والمهدّد دوما أمام مرور الزمن واستفهام الموت»(١٣).

هذا التعريف للثقافة ليس بعيدا جدا عن تصورنا الحضارى Cultrale للثقافة. ففى نظر المؤلّفيْن اللذين استشهدنا بهما، تجلب الحداثة مخاطرات دراماتيكية **بفقدان المعنى** وهى تعمل جزئيا بوصفها معادلة ثقافة anticulture. على أن هذا التصور لا يُدمج مجموع التجربة الإنسانية فى هذا النسق للمعنى وفى الثقافة؛ ويظل هناك خارجٌ un extérieur بالنسبة للثقافة تُعتبر التقنية والاقتصاد فى عداده دون شك جزئيا على الأقل. وهكذا تكون انزلاقة ما ممكنة نحو التصور الثقافى. وتجد مثل هذه الانزلاقة مكانا عند جان زيجلر Jean Ziegler على سبيل المثال(١٤). أما المعنى الأخير، معنى ثقافة التعلّم cultivée، فهو ممكن تماما بلا لبس فيما يتعلق بما هو ثقافى. ففى مجتمع بدائى، ليس هناك أىّ معنى لأن يقال عن شخص ما أنه ليس متعلّما cultivé . ويظل ذلك صحيحا إلى حدّ كبير فى المجتمعات التقليدية. ذلك أن كل عضو فى الجماعة، مهما كانت منزلته، يكون مندمجا فى الأنساق الرمزية التى تعطى معنى لتجربة الجماعة، عَبْر ممارساتها المتباينة (الغذائية، الثقافية، اللّعبيّة ludique). كما أن معرفته للأساطير والطقوس ولأنواع الرقص والموسيقى هى نتيجة ودليل انتمائه وتكريسه. وهذا الأخير ليس تعليما اختياريا. وهكذا يكون المرء «مثقفا» culturé وليس متعلّما cultivé. ذلك أن الشفوية والبساطة النسبية للتقنيات تختصران المسافة بين منتجى ومستهلكى الإبداعات الثقافية. وعلى النقيض تماما من مجتمع الاستعراض، فإن إنتاج ما هو اجتماعى هو قضية الجميع، وتكون مشاركة كل فرد فى ذلك واجبة، حتى إذا لم تكن بنفس

الطريقة بالنسبة لجميع الأعضاء.

فى المجتمع الحديث، حيث شهدت الممارسة المادية معناها ينحط ويُختزل إلى مجرّد وظيفة، تتألف الثقافة الثقافية من تراث معارف وإبداعات ترتبط به؛ وهى تشمل الفنون والعلوم، المعرفة التقنية والانفعالات الجمالية. ولم يعد الأمر يتعلق بنسق رمزى يمنح معنى للوجود بقدر ما يتعلق بشفرة انتقائية من علامات التمييز. والواقع أن تلك الثقافة قابلة للاستحواذ والاستيلاء. وهى تغدو قيمة داخلية بالنسبة للحضارة. وإذا ظلّت متماسكة للغاية ومشتركة للغاية، فإنها تستمر فى تقديم معنى للحياة وللموت. وهذا جلىّ فى حالة اليابان؛ فهى إذن تُنمىّ الفعالية بلا جدال بالقياس إلى مجتمعات عجوزة وبالية. فالمرء يعمل بفعالية أكثر فى عالم لايزال مسحورا. وإذا وجدت أهداف العالم المحرّر من السحر مكانها هناك، يمكننا أن نتوقع أداءات جيدة. وفى المجتمع الحديث، بوجه عام، يكون المرء متعلما إلى هذا الحد أو ذاك، وتجهل أجزاء ضخمة من السكان الكتلة الأضخم من الإبداعات «الثقافية» لحضارتهم الخاصة. إنهم أميون إلى حد بعيد. **ويمحو ثقافة** شعوب العالم الثالث، يحولّها التغريب على هذا النحو إلى جماهير أمية. وتغدو تلك الثقافة إخراجا من أجل مستهلكين سلبيين غرباء على ثقافتهم الخاصة.

مع التعريف/ التصور الحضارى Culturale، تسير الأمور على نحو مختلف من حيث المبدأ. وإذا كانت الثقافة «ليست ترفا أو متعة جمالية خالصة، بل مجموع الحلول التى أوجدها الإنسان للمشكلات التى طرحتها عليه "بيئته"»، وفقا لصيغة جارودى التى يردّدها باولوفريره Paulo Freire [١٥]، فإن إنتاج وتوزيع واستهلاك الثروات، إن لم يكن الاقتصاد، تشكل حقا جزءاً من الثقافة. ولو كانت كل جماعة بشرية تعطى إجابة خاصة بها لتحدّى الوجود، لكانت هناك نظريا طُرُق لحل مشكلات ما نسميه فى «الثقافة الغربية» بـ «التخلف» بقدر ما هناك من ثقافات. والثقافة فى هذه الحالة ليست **بُعْداً** من أبعاد التنمية، بل إن التنمية هى التى تغدو بالعكس بُعْداً من أبعاد «الثقافة الغربية» الوحيدة. ويطرح ذلك مشكلتين جديدتين: مشكلة الكيان الثقافى ومشكلة طبيعة الثقافة الغربية. وعلى هذا النحو يمكن إعادة النظر فى تنوّع الثقافات وفى مشروعية هذا التنوع.

وإذا كانت الثقافة إجابة على مشكلة الكينونة، فهى تشتمل على مقدار لانهائى من التفريعات كالكينونة ذاتها؛ إن مستويات الإجابة يمكن أن تكون لا نهائية. كما أن تقاطعات المجالات والمستويات يمكن أن تقود إلى عدد لا نهائى من التركيبات. فهناك الثقافة الدينية، الثقافة الجمالية، الثقافة الغذائية، الكسائية، الخ.، وسنؤجل مؤقتا النقطة الخاصة بمعرفة ما

إذا كان بمقدورنا الحديث عن ثقافة تقنية وثقافة اقتصادية. وهناك الثقافة المحلية، الإقليمية، القومية... وهناك منطقة ثقافية مسيحية، منطقة ثقافية إسلامية، منطقة ثقافية بوذية...

غير أن هناك ثقافة بريتونية*، باسكية، وحتى سمات ثقافية خصوصية لكل قرية.

وإذا كانت تجربة اللغة **سمة ثقافية هامة** تسمح بتعيين حدود الكيانات الثقافية، فإن تجربة العمل، تجربة نمط الحياة، ليست أقل أهمية: يمكن الحديث إذن عن ثقافة عمالية أو تخلف ثقافي Sous - Culture عمالي، عن ثقافة فلاحية أو ريفية...

ومن جديد يسمح هذا التنوع اللانهائي «بتحويل فولكلوري» للثقافة؛ فإذا لم يكن هناك «مرجع» متين وواضح **للهوية الثقافية**، فإن وحدة النوع البشرى تهتدى إلى حقوقها عبر تجارب عالمية قابلة للتطور، لكن ليس عبر بدائل حقيقية: بدائل العلم والتقنية والاقتصاد وحتى السياسة. وهذه البدائل هى الإجابات الحديثة والوظيفية على «الحاجات» الطبيعية والأبدية للإنسان. غير أنه ليس من المشروع حقا بطبيعة الحال أن نحدّد كحامل أوحد «للثقافة»: «الشعب» أو «الأمة». ونحن نعرف أية انقسامات متعسفة تماما ومفتعلة تماما أدى ويؤدى ذلك إلى ظهورها، حتى فى البلدان العجوزة لأوروبا. والحقيقة أن النظر إلى **الثقافة القومية** على أنها حامية الهوية الثقافية ومعاملة بقية الأشياء (الإقليم، الطبقة، الخ.) على أنها مواقع التخلف الثقافى أمر غير مشروع على الإطلاق. ذلك أن الإجابة على مشكلة الوجود الاجتماعى تتحقق من خلال الوسط العائلى والمحلى والإقليمى واللغة والدين بقدر ما تتحقق من خلال الانتماء القومى. وهذا الأخير ليس فقط مخادعا، بل هو يغدو، مع التحويل عبر القومى للاقتصاد، وهميا أكثر فأكثر.

الثقافة ضدّ الحضارة

علاوة على ذلك، أليست القيم الثقافية سمات مترسبة وحكائية لوحشية وبؤس العصور السابقة للتنمية؟ الواقع أن هذه الفرضية ليست خالية من الصحة إذا فحصنا أوروبا ذاتها و«محو ثقافة» الأرياف مع الاندماج فى الاقتصاد الحديث. فالثقافة إذن معارضة للحضارة.

واللفظتان لهما نفس **الدلالة**. وفى كتابه **هوية فرنسا** يعرّف فرنان بروديل الحضارة بأنها: «الطريقة التى نولد بها، ونحيا، ونحب، ونتزوج، ونفكر، ونؤمن، ونضحك، ونتغذى، ونلبس، ونبنى منازلنا، وننظّم حقولنا، ويتصرف بعضنا إزاء بعضنا الآخر»(١٦).

---

* بريتونية: نسبة إلى إقليم بريتانى فى غربى فرنسا – المترجم.

هذا التعريف هو نفس التعريف الذى أعطيناه للثقافة بمعناها المقصود هنا. والواقع أن كافة التعريفات الممكنة للحضارة تطرح نفس المشكلة. ومع ذلك، أعطى الاستعمال للفظتين دلالات مختلفة تمضى إلى حد جعلهما متعارضتين. وهكذا تقدم «الثقافات» المحلية سمات عديدة مشابهة «للمخلفات الثقافية» التى يفهرسها الإثنولوجيون فى العالم الثالث: الأعراف، لغات الحديث، الأعياد، المعتقدات، الشعائر، التقنيات، وكل هذا المتحف للفنون والتقاليد الشعبية شبيه بمتحف الإنسان، ويدل على عهد سابق للحضارة، أىْ على حياة خشنة وبائسة حكم فيها الجهل بالتقنية العلمية على الإنسانية بمجرد بقاء تُطيِّبه بعض «التوابل»: *الثقافة*.

وفى كتاب رائع التوثيق، يشير أو يُجن فيبر Eugen Weber إلى نهاية الثقافات الشعبية تحت تأثير الاندماج فى التقدم والحداثة(١٧). فالمجتمعات الريفية فى فرنسا ذاتها كانت لها ثقافات غنية، شبيهة تماما بثقافات مجتمعات العالم الثالث. وعلى أى حال فإن نمط حياتها مزعزع بصورة لا تُصدّق وبائس. وهذه «*الوحشية*» تجرى معارضتها **بالحضارة**. وتبدو الحضارة بالتالى كمشروع نشأ فى المدن. «الحضارة مدينية urbaine (civilée, bourgeoise, civique, civile)* وبطبيعة الحال، وهو نفس الشىء»، من التهذيب urbanité؛ تماما كما أن ألفاظ التهذيب politesse، والسياسةpolitique، والبوليس police تأتى من لفظة polis: وهى تعنى دائما المدينة cité»(١٨). ومشروع «الحضارة»، الذى نشأ خارج جذور **الموطن**، هو مشروع الحداثة. وهو مشروع عالمى، وقيمه هى العلم والتقنية والتقدم. وهو يدمر الثقافات ويجلب الرفاهية من خلال تحطيم العزلة الاقتصادية **للموطن** وإحلال قوانين السوق محل العلاقات الاجتماعية التقليدية. وهكذا يتناثر ضيق إطار الحياة الثقافية إلى شظايا فى حين أن المنافسة المطلقة العنان والبحث عن الأداء يؤديان إلى تراكم مادى لم يسبق له مثيل، يحفزه تقدم العلم والتقنيات. فالثقافة بالتالى هى دوما «زراعة – ثقافة» agri - culture.

وهنا نلتقى بأحد تناقضات هذا المشروع. ذلك أن التسوية بين الروابط الاجتماعية العينية والإنسانية المجردة للحداثة إنما تنعقد حول برنامج الدولة – الأمة فهذه الدولة – الأمة هى مكان الوطنية المجردة لإنسان إعلان ١٧٨٩، وبالتالى دولة لامتسرولين sans - culottes **مدينيين** citadins، هم الأطفال المرعبون للحضارة، غير أنه لن يدافع عن هذه الدولة حقا، حتى ١٩١٤، إلا الفلاحون – المواطنون، الذين هم أبناء ثقافات **الموطن**(١٩). وعندما تكون

* نعوت متعددة بمعنى: مدينى أو حضرى وهى مرتبطة بالمدينة لكن أيضا بالحضارة – المترجم.

الحداثة قد حققت نهاية الفلاحين ونهاية الموطن، لن يعود هناك شخص يدافع عن الوطن. وسيكون هذا بالتالى نهاية نظام الدولة - الأمة[٢٠].

والواقع أن هذا المشروع التمدينى نضج فى الغرب، وهو يتطابق معه إلى حد بعيد. وليس الشكل السائد لهذا المشروع، فى الوقت الراهن، شيئا آخر سوى «التنمية». ويطرح ذلك مشكلة الطبيعة «الثقافية» الخصوصية للغرب.

الغرب بوصفه معاداة ثقافة

إذا كان الغرب معادة ثقافة anticulture، سواء كما يحلله روبير جولان Robert Jaulin، لأنه يدمر ثروة الجماعات الإثنية فى العالم الثالث[٢١]، أو وفقا لتحليل أويجن فيبر، لأنه يقوم بإحلال الرفاهية المجهولة للنمو الاقتصادى محل بؤس موطن المركز، فإن مشروعه هو، بصورة لا تقل عن ذلك، إجابة على مشكلة الكينونة الاجتماعية، وهو بهذا المعنى «ثقافة».

والواقع أن الإحساس **باختلاف جذرى** لهذه الثقافة بالنسبة لكافة الثقافات التى سبقته أو التى تمثل عقبة أمامه، والذى لا يجد مصدره فقط فى تحيز عرقى إيجابى أو سلبى، قاد كثيرا من المفكرين إلى بحث **خصوصية** هذه الثقافة. والإجابة التى تُقدَّم فى كثير من الأحيان هى أن الغرب هو الثقافة المفتوحة الوحيدة التى اهتمت، على مدى التاريخ، بالثقافات الأخرى والتى، لأنها طرحت نفسها ذاتها للنقاش، كان لها لهذا السبب دور عالمى. وبكلمات أخرى، أمكنها أن تشتمل على «ما بعد ثقافة» métaculture سمح لها بأن تتصور نفسها، بأن تضع نفسها على مسافة، بأن تتأمل نفسها[٢٢]. ومن هنا يأتى تفوقها. وإذا كانت هذه الإجابة مغرية للوهلة الأولى فإنها إشكالية وناقصة.

ولو كانت المسافة النقدية مصدر التفوق لثقافة، لكان ذلك متناقضا ذاتيا. ولم يكن للغرب أن يكون متفوقا إلا بقدر ما، ولأنه، يشك فى تفوقه... على أن هذه «الصفة» لا تكفى لتعريف الخصوصية الغربية على الوجه الأكمل، لأننا، عندما ننعم التفكير فى ذلك، يمكننا القول أن كل ثقافة تشتمل على «ما بعد ثقافة» يسمح لها بإخراج نفسها. ولن يكون الاختلاف، على الأكثر، إلا فى الدرجة. وإذا كانت «الثقافات الصغيرة» المحلية تبدو أقل انفتاحا ولا تمارس تأثيرات إغراء على الثقافات الأخرى، فليس الأمر كذلك بالنسبة «للحضارات الكبرى» المنافسة للغرب: الهند، الصين، الإسلام. ومن جهة أخرى فإن هذه الأخيرة بدورها هى من نفس طبيعة الحضارة التى تم تعريفها من قبل على أنها «معاداة ثقافة». وهى أيضا وليدة مدن هامة، ومهذبة بأخلاق «متحضرة». على أنه حتى إذا كانت

هذه «المناطق الثقافية» الكبرى لاتزال تمارس فى الوقت الحاضر «تأثيرات إغراء» على الثقافات الصغيرة المجاورة فإنها تتعرض بدورها لتأثيرات ذات سحر كبير من جانب الغرب. فهناك ما بعد مجتمع métasociété عالمى يرتكز على السيطرة النابعة من «آلية» للتبادلات (ليست فقط اقتصادية) تربط كافة أنحاء الكرة الأرضية أكثر مما يرتكز على الهيمنة البريطانية أو الأمريكية وحتى على الأمم المتحدة. ولم تستطع الحضارات الكبرى أن تقاوم القوة الخبيثة لهذه الآلية التى تقود قسما على الأقل من نُخَب هذه الحضارات إلى النجاح المهنى فى هذا «المجتمع – العالم». وهنا نضع إصبعنا بلاشك على ما يشكل خصوصية الغرب وطبيعته بوصفه «معاداة ثقافة». وحده «المجتمع» المرتكز على الفرد لاحدود حقيقية له. فالمشروع الحضارى للحداثة ليست له ذات خاصة به ولا قاعدة إقليمية محدَّدة تحديدا صارما. على أنه حتى فى ذلك لن يكون هذا المجتمع مختلفا كثيرا عن «حركات» عالمية كالإسلام. والواقع أن ما يميز **هذه العالمية** هو أن قوتها المحركة هى المنافسة بين الأفراد والسعى وراء **الأداء**. ويمكن للعالم بأسره أن يشارك فى ذلك وأن يلعب فيه دورا؛ وحتى إذا كانت الفرص غير متساوية للغاية فإن الفوز ليس مستبعدا. ذلك أن الكل الاجتماعى قابل للعمل بوصفه سوقا. وبذلك يمكن «للمتوحش» من أقاصى المعمورة ان يصبح **رقم واحد** number one الإعلامى عندما يفوز فى الماراثون فى الألعاب الأوليمبية، وعندما يصبح نجما سينمائيا بعد أن يكتشفه أحد المخرجين؛ وهناك ألف طريقة لدخول المجتمع – العالم، ويعون المصادفة للارتفاع إلى الصفوف الأولى. فالغرب إذن مُحَرِر من حيث أنه يحرِّر من الكثير جدا من كوابح المجتمع التقليدى ويفتح لا نهاية من الممكنات؛ غير أن هذا التحرير وهذه الممكنات لن تتحقق إلا لأقلية تافهة. وفى المقابل، سيجرى تدمير التضامن والأمن بالنسبة للجميع.

ونلتقى باستخدام مجاز الآلة بآلياتها ومحركها للحديث عن الغرب لدى العديد من المؤلفين. فقد شهد موطن الغرب ميلاد «نسق» له خصوصية القدرة على الانفصال عن قاعدته التاريخية – الجغرافية، كما أن الكثير من سماته نافية للثقافات. وبهذا المعنى فإن هذا النسق **قابل للنقل**، وقد تم نقله بالفعل. على أن مثل هذا «النسق»، مهما كان محوَّ الحدود الإقليمية ومحوَّ التاريخ تماما، يستند مع ذلك على فعل البشر، فهو ليس آليا إلا على نحو مجازى. وتغدو علاقة البشر بالأشياء راسخة تماما إلى حد أنها تضغط على علاقات البشر فيما بينهم وتجبرهم على العمل **بوصفهم** تروس آلة هائلة، **حتى على الرغم منهم**. والواقع أن خوفا ما لدى الأوربيين من أن يكون عليهم أن يواجهوا نظيرها فى مجال العلاقات فيما بين الأشخاص دفعهم إلى ابتكار أن يعهدوا بصورة متزايدة دوما بسير العمل الاجتماعى

إلى **أوتوماتيزمات** (آليات ذاتية التشغيل: الروبوت أو الإنسان الآلى). ولا تتجلى سيادة «اليد الخفية» فى المجال الاقتصادى وحده، بل تميل إلى تنظيم مجموع الحياة الاجتماعية من خلال **المحاكاة**، وتدخُّل التقنية، ودور «الأجهزة» البيروقراطية. وبطبيعة الحال فإن الحياد البشرى **للأوتوماتيزمات** يتفادى، كمثل أعلى، التعسف والفساد وكافة المساوئ المرتبطة بالضعف البشرى، غير أن الوجه الآخر لذلك هو محوٌ لإنسانية الحياة الاجتماعية مدفوع دوما إلى أقصاه.

وعندما يجرى تعويض شجب النسق بواسطة النسق ذاته من أجل تعزيز التضليل الخيالى لأعضائه، فإننا نواجه آلة اجتماعية كاملة تقريبا. ويسمى رينيه بيرو هذه «الآلة العملاقة»: الـ SUMI (المجتمع الحضرى العسكرى الصناعى) الذى يدخل فى صراع ضد الـS. A (المجتمعات الزراعية).

«يتمثل السلوك المهذب فى شجب المجتمع الاستهلاكى وفى نُشدان نوعية الحياة، غير أن الوجاهة تقتضى التجول فى عربة ومشاهدة التليفزيون»(٢٣).

وفى تحليل ينطوى على قوة مأسوية هائلة، يحلّل جاك إلول Jacques Ellul هذه الآلة العملاقة على أنها «مجتمع تقنى». فالنسق التقنى يدمج البشر كتروس لآلة شاملة، وفى نهاية المطاف شمولية، تتمتع بقدرة لا تُقاوم على النمو الذاتى.

وسواء شدّدنا على التروس الاقتصادية أو على التروس التقنية، على **المحاكاة** أو على الإكراه البيروقراطى، فإن **رعونة** hubris النسق تكمن حقا فى غياب السيطرة على سيطرتنا على الطبيعة، وفقا لصيغة مارشال سالان Marshal Salhins(٢٤).

وهذا المشروع معاد للثقافة، ليس فقط لأنه سلبى وتنميطىّ تماما (فحتى يمكننا الحديث عن ثقافة، ينبغى أن تكون هناك ثقافتان على الأقل...)، بل بوجه خاص لأنه لا يجلب إجابة على مشكلة الوجود الاجتماعى «للخاسرين». ذلك أن هذا المشروع، موحدا العالم بأسره تجريديا، يُقصى «الضعفاء» **فعليا** ولا يمنح حق الحياة والمواطنة إلا لأولئك الأكثر أداء؛ ومن هذه الزاوية فإنه النقيض لثقافة، فهذه تنطوى على بُعد كُلاَّنىّ؛ ذلك أن الثقافة تجلب حلاً لتحدى الكينونة **لكل** أعضائها.

وقد أوضح لى صديق صينى، تحادثت معه عن عادة تسمية الأطفال بأسماء منفّرة فى كثير من الأحيان لتفادى سوء الحظ فى بعض أقاليم الصين والهند الصينية، أنه كان عليه أن ينتظر قبل أن يسمى أطفاله بأسمائهم النهائية ليرى شخصياتهم تتكوّن لكى يوازن ميولهم غير الاجتماعية. وهم يعطون للطفل الطموح اسما يدل على التوسط، وللبنت الجميلة للغاية اسما

يذكّر بالقبح.... ذلك أنهم ينظرون إلى كل تفوق على أنه خطر على التوازن الاجتماعى ولابد من تحاشيه عن طريق تدابير رمزية.

وعلى مرتفعات غينيا الجديدة، تبنت بعض القبائل بحماس كرة القدم، لكنها كيفتها مع قيمها الثقافية. فقد تم استبعاد أن يكون هناك فائز وخاسر. وهكذا تمتد المباراة وتؤجل وتستأنف إلى أن تتوازن النتائج. ولا يحول هذا مطلقا دون الإثارة الخاصة بكل هدف والاحتفاء بأبطال اللعبة. وتعزّز كل مباراة مجد ورضا المعسكرَيْن، غير أن العدوانية يجرى تحاشيها بسهولة. ولأنهم لم يتبنوا حكمة كهذه تقاتل شعبا البالويا واللّولوا فى كاساى* بلا رحمة من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٢ فى أعقاب مباراة بين جماعتين إثنيّتيْن فى لولوا بورج... لكن العالم الثالث لا يملك امتياز المباريات الدموية. وقد أعطت بلجيكا مثلا مأسويا لذلك على استاد هيسيل، بفضل مشجعى الجانب الآخر للمانش (انجلترا).... إن أتفه الخلافات يمكن أن تفسح المجال لانفلات لا يُصدَّق للعدوانية. ألم يضع حزب سويسرى لسائقى السيارات فى برنامجه بندا يطالب بإبادة الخُضْر!

والواقع أن الإخفاق محفور فى صميم قلب المشروع الغربى - إنه الوجه الآخر للأداء. وعلى الصعيد «الثقافى»، يتعلق الأمر بتناقض مع البُعد العالمى للمشروع. ذلك أن الغرب يطرح إنسانية من الإخوة والأنداد، الذين هم أحسن تغذية، أحسن ملبسا، أحسن مسكنا، بصورة متزايدة دوما. غير أن هذا «الأحسن» يستند فى الوقت ذاته إلى إزالة «ما هو حسن» بالنسبة لقسم بكامله من الإنسانية. وقد نجح الغرب فى الخداع خلال وقت طويل، من خلال «تصدير» الإخفاق إلى غير المغربين nonoccidentalisés أو الأقل تغريبا. والواقع أن هذا الإخفاق، فى إطار ما يدعوه متخصص اقتصادى فى العلاقات الدولية، كندلبرجر Kindleberger، بـ «لعبة "نَطّة"** دولية»، يمثل فوق ذلك إخفاق تنمية العالم الثالث.

وبدون هذا الإخفاق، ما كان للعنف القائم على التقليد الأعمى فى الغرب أن يعرف أىّ حدّ. فالعالم الثالث هو متنفَّس الأهواء الجامحة التى تطلقها اللعبة المنفلتة للمنافسات غير الخاضعة للسيطرة. ووراء المذابح الجنونية الكبرى للعالم الثالث التى تزرع الرعب فى أكواخ القش وتؤكّد لدينا الاقتناع ببربرية الآخر، نجد الإحباطات التى أحدثها الغرب. والأمثلة كثيرة: كمبوديا التى كان يسودها السلام والتى غرقت فى إبادة جماعية لم يسمع بمثلها فى أعقاب

---

* فى الكونغو - المترجم.

** النطّة saute - mouton: لعبة يقفز فيها كل لاعب منفرج الساقين من فوق الآخرين الذين يبقون منحنين وتسمى فى مصر «نطة الإنجليز» - المترجم.

التدخل الأمريكى، إيران التى حرمها تدخل أنجلو أمريكى من ثورتها البرجوازية بقيادة مصدق، وحتى الإرهاب الأعمى المتمثل فى أعمال الخطف وخطف الطائرات والقبض على الرهائن والذى أطلقه كابوس الشرق الأوسط من عقاله. وكل هذا العنف المنسوب إلى الآخر، والذى يعكس وجوهنا فى المرآة، هو نفس ذلك الذى لم نعرف كيف نواجهه ولا كيف نسيطر عليه.

مع ذلك تطرح مطابقة الغرب مع «نظام آلى» اجتماعى - تقنى - سياسى مشكلة. فمع أن الغرب «كنموذج حضارى» **غير قابل للتعميم** إلا أنه «كآلة» **قابل للنقل**. وسواء شددنا، مثل جاك إلول، على التقنية أو، وفقا لمدخل أكثر تقليدية، على الاقتصاد، فلن يكون أقل أهمية من ذلك أن هذا «النظام الآلى» قابل للاستحواذ كما يُبيّن مثال اليابان وبلدان جنوب شرقى آسيا. فواقع أن هذه البلدان استوعبت بصورة كاملة (وحتى أكثر من كاملة، كما قد يستهوينا أن نكتب) أسرار هذا «النظام الآلى» دون أن تدين بشئ، فى ظاهر الأمر على الأقل، لمتعدد الأضلاع الخيالى اليهودى - الهيلينى - المسيحى، يطرح مشكلة جدية.

والإجابة المعتادة (الضمنية عادة) هى أن «الثورة الصناعية» كان من شأنها أن تدخل البشرية فى العصر التقنى، على نحو مشابه لثورة العصر الحجرى الحديث فيما يتعلق باستئناس النباتات والحيوانات، وامتلاك ناصية الصقل، واختراع صناعة الخزف. ولا ينبغى للطابع التطورى لهذا الاعتراض أن يخفى قوته. ذلك أن «اكتشافات» العصر الحجرى الحديث كان لها مغزى شبه عالمى، دون إعادة نظر، فيما يبدو، فى التنوع الثقافى ودون تجسيد الإمبريالية الخاصة بمجتمع أو بمجموعة من المجتمعات التى كانت هذه «التقنيات» بالنسبة لها بعدا من الأبعاد الثقافية.

والحقيقة أن هذه المقابلة التماثلية بين ثورة العصر الحجرى الحديث والثورة الصناعية تنتزع من الناحية العملية كل جوهر من أطروحة تغريب العالم. وليس لكلمة تغريب إذن، خارج المحاولات المخفقة للاستعمار السياسى والتحويل الدينى، لا معنى ولا مغزى. ومن هذا المنظور، يمثل انتشار المصادر الجديدة للطاقة (الفحم، البترول، الكهرباء، الطاقة النووية)، وتعميم الأساليب الجديدة للصناعة، وتعميم المنتجات الجديدة، مرحلة من التاريخ العالمى وليس شكلا لسيطرة الغرب. والواقع أن التغريب، مفهوما على هذا النحو، كان إخفاقا تاريخيا. ذلك أن نجاح الغرب، أىْ الثورة التقنية - الاقتصادية، هو ذات سبب اضمحلاله. وبنقل هذا «الاكتشاف» إلى البشرية أنجز الغرب، لكن أنهى أيضا، رسالته التاريخية. ويغدو بمستطاع كلٍّ أن يستحوذ على هذا الاكتشاف، وأن يكيفه لثقافته الخاصة، وأن يستخدم الوسائل التى يقدمها والتى لم يسبق لها مثيل ضد هذا الغرب المزعوم (الذى يجد نفسه، فى

الحقيقة، مفتّتا لذلك داخل مفهومه، قبل أن يتفتت، بصورة فعلية، فى الممارسة، بعد كارثة نووية...).

وسنلاحظ أن أطروحة كهذه تختزل الثقافة إلى معنى شبه ثقافى، غير أن هذا الاختزال يستفيد هنا من كل المغزى الكامن فى تاريخ محدد لاجدال فيه. ويمكن لذلك أن يصبّ من جديد فى أطروحة «الثروة الجديدة للأمم».

وواقع أننا نعرف قليلا من الأشياء عن ثورة العصر الحجرى الحديث الشهيرة هذه، وأن القليل الذى نعرفه عنها بلوره وفسره متخصصون مُشربون بأيديولوجيتىْ التقدم والتطور، يُدخل «انحرافا» جديا فى رؤيتنا لهذا الحدث ولمغزاه.

ولاشك فى أن إجراء إعادة بحث «للحياد» النسبى لثورة العصر الحجرى الحديث يمثل مشروع بحث واعدا؛ غير أن من المستبعد أن ندخل هنا فى مناقشات تتجاوز قدرتنا.

وبدون التورط فى عملية مراجعة للعرض «التقليدى» «لثورة العصر الحجرى الحديث»، يمكن نقد التماثل بين هذه الأخيرة وبين «الثورة الصناعية» التى نفضّل أن نسميها «الثورة التقنية - الاقتصادية». ونحن لا ننكر **بصورة قبلية** a priori أن جوانب بعينها لهذه الثورة تشكل إنجازات لاجدال فيها بالنسبة للبشرية. ومع ذلك فإن إسهامات **تقنية** جوهرية لهذه الثورة، مثل البوصلة أو البارود أو الورق، لا تدين بشىء للغرب. ويبدو لنا أن الإطار الأكسيولوجى (= القيمى) الذى صنع من تلك الثورة آلة الإبادة الإثنية، وإلى الحد الانتحارى الذى نشجبه، متضمَّن فى هذا التاريخ بصورة أعمق كثيرا مما كانه الإطار الأكسيولوجى الذى شهد ازدهار ثورة العصر الحجرى الحديث.

وحتى إذا كان على الغرب غدا أن يتيبّن أو يتصيّن (أىْ أن يُطبع بالطابع اليابانى أو الصينى)، فإن ذلك لا يمنع واقع أن الاستحواذ على الآلة التقنية - الاقتصادية من جانب الشرق الأقصى لم يكن ليحدث إلا بفضل تغريب جوهرى. وبطبيعة الحال كان لابد أيضا لهذا الاستحواذ أن يغدو ممكنا. ذلك أنه ما من حتمية قضت بأن يخترع الغرب وحده كافة عناصر نموذجه. وبعض هذه العناصر اخترعها آخرون واستوردها الغرب (الاكتشافات التقنية والنظرية للصينيين والهنود والعرب)، وهناك عناصر أخرى أمكن أن يكتشفها آخرون، فى نفس الوقت أو بتفاوت زمنى، كالعلاقة السلعية أو حتى الإقطاع. والواقع أن مجموع المعطيات التاريخية هيأ اليابان تهيئة أفضل كثيرا بلا جدال من ثقافات أفريقيا السوداء لاستيعاب «النظام الآلى» الغربى[٢٥]. على أن هذا الاستيعاب / الاستحواذ لا يجسد أقل من ذلك تغريبا فى العمق. ذلك أن التصور الخطى والتراكمى للزمن، والإيمان بإمكان السيطرة على الطبيعة، والاقتناع

بأن المسألة مسألة رسالة مقدسة من أجل الإنسانية، دفعت بقوة الحكمة البوذية التى لا تبقى إلا بشرط التكيف معها. وبطبيعة الحال فإن عبادة الأداء لم تندمج مع فردية جلية، وهى تظل موضوعا لفعل جماعى وتعطى معنى جديدا للتضامن الثقافى وللهوية الإثنية. لكن هذه المحاولة ذاتها والخاصة بدمج المجتمع التقنى مع جماعة راسخة الجذور فى ثقافة تجسد روح الشعب Volkgeist ليست جديدة حقا. فقد سبق لألمانيا أن جرّبت ذلك الطريق بالنتيجة الكارثية التى نعرفها. ولم تستعر اليابان من الغرب سوى ما هو جوهرى، فأقصتْ اللوازم التكميلية إلى حجرة الملابس واحتفظت للباقى بثقافتها الخاصة. ويبدو أن هذا الباقى، الذى لايزال ينبغى إجراء مسح شامل بالنسبة لأهميته ودلالته، يذهب إلى حد أنه يحمل الزيت إلى دواليب النظام الآلى فى حين أن الغرب ينوء بكل ركام حُججه الواهية ومشاريعه المخفقة.

من اللافت للنظر أن أمريكا اللاتينية، مع أنها مغرَّبة occidentalisée منذ عهد بعيد بالعنف الذى نعرفه وبتغلغل واسع النطاق للأوروبيين، تزدحم باللوازم التكميلية ولم تستطع أو تعرف كيف تؤقلم ما هو جوهرى. فقد غزا الفولكلور الثقافى الأوروبى الحياة اليومية غير أن الطابع الهندى ظل غريبا على مشروع السيطرة على الطبيعة، وعلى الزمن الخطى والتراكمى. ويظل اللادينو والأفارقة البرازيليون بعيدين إلى حد كبير عن عالم خيال الحداثة. وأمام المشهد المتلفز لهبوط الأمريكيين الشماليين على القمر، يصرخ عامل تفريغ أسود ضخم من سان باولو ده باييا: «هه، أنتم هناك، أيها الحمقى! لقد سيطر عليكم الأمريكيون تماما! هل تصدقون أن شانجو* سيدع رجلا أبيض، ولو للحظة واحدة، يضع يده على القمر؟»[٢٦]

لقد غربت الشمس منذ وقت طويل على أوروبا العجوز. أصبحت الحروب الصليبية منسية، وشاخت الملحمة الكولونيالية بضربة واحدة من سنوات قمرية عديدة. ولم يعد العالم المسيحى التجارى والصناعى يمتلك أىّ سرّ ليسيطر به على العالم، ولم يعد مجد الرجل الأبيض سوى أثر مؤقت من الماضى. ومع ذلك فإن آلة اجتثاث الجذور من أجل اجتثاث جذورها ذاتها خارج مسقط رأسها تظل أكثر شبابا مما كانت فى أىّ وقت مضى. فهى تُشكّل العالم فى تكنوبول (قطب تقنى) ضخم، ساحقةً الشعوب فى دواليبها الشرسة، مستأثرة بالنُّخَب، نابذةً نفاية الأجساد المستنزفة والمخلوعة الأوصال. والواقع أن الاقتصاد والتقنية هما قلب النسق ولكنهما ليسا بدايته ولا نهايته.

***

* شانجو : إله شعب يوروبا والزنوج فى البرازيل وترينيداد – المترجم.

يمكننا، فى إطار هذا البحث حول مصير الغرب وطبيعته، وقبل أن نرى بتفصيل أكثر النتائج الملموسة للتغريب، أن نشدد على الإبهام العميق لهذه الظاهرة. فالتغريب سيرورة اقتصادية وثقافية مزدوجة الفعالية: فهى **عالمية** بحكم توسعها وتاريخها، وهى **قابلة للنقل** بحكم طابع نموذج الغرب وطبيعته «كآلة».

وفى الحالتين، تتمثل النتيجة المثالية فى الاستمتاع المتساوى للجميع ولكل فرد بخيرات «الآلة»، سواء لأن كل جماعة بشرية يمكنها أن تنقل مثل هذه «الآلة» لصالحها، أو لأن «الآلة»، لكونها فريدة، ستقدم خيراتها إلى الجميع.

وناصبةً نفسها **نموذجا**، تقدم الآلة الغربية نفسها على أنها فى متناول الجميع. ويمكن لكلٍّ أن ينشىء لحسابه الخاص مثل هذه المعجزة. لقد دلت انجلترا على هذا الطريق فى القرن الثامن عشر، وتبعتها غالبية البلدان الأوروبية. واقتفت الولايات المتحدة والدومنيونات البيضاء الأثر فتجاوزت أساتذتها الأوائل. وحرصت اليابان، بدورها، على إثبات أن النموذج كان قابلا تماما للسيطرة عليه من جانب غير البيض، غير الغربيين (وحتى الشرقيين، من أقصى الشرق...). كما أن التنانين الأربعة الصغيرة فى جنوب شرقى آسيا تُثبت أن قابلية النقل ليست فقط غير مرتبطة بنطاق جغرافى وبمنطقة ثقافية، بل أنها أيضا مستقلة عن المرحلة التاريخية. وبوصفه عبر تاريخى ولامكانى، يبدو نموذج المجتمع التقنى، بكل خصائصه، من الاستهلاك الضخم إلى الديمقراطية الليبرالية، قابلا تماما للنقل ولهذا السبب بالذات عالميا.

والغرب عالمى أيضا بصورة أكثر مباشرة بحكم امتداده/ عولمته mondialisation انطلاقا من قطبه الأصلى أو قفزاته اللاحقة. وتمتد هذه العولمة من التدفقات السلعية إلى التدفقات المالية، لكن أيضا إلى الإنتاج. وبوصفه عبر تاريخى ولامكانى فإن الرأسمال عبر قومى بحكم جوهره. ويؤثر التنميط فى **كافة** المجالات، من الإعلام إلى حقوق الإنسان.

وتتمثل مشكلة هذه الأسطورة الوردية فى أن هذه العالمية المزدوجة تخون نفسها بحكم هذه الازدواجية ذاتها. ذلك أن السيرورتين القائمتين على التقليد الأعمى تُحيدان بعضهما وتتناقضان. فقابلية النقل ليست عالمية لأنها تنطوى على التوسع. وكلما مست النواة الصلبة للنسق صارت صعبة ومتناقضة ومحدودة.

ولا يتعلق التوسع، بدوره، إلا بنشر التماثل «الثقافى»، ملحقا الأضرار بالإبداعية المحلية. كما أن التنمية القائمة على التقليد الأعمى ليست سوى كاريكاتور مأسوى للعالمية، التى تتأبد تحت غطائها سيطرة فعلية «للسادة المجهولين للآلة».

٣ - التغريب بوصفه اجتثاث جذور على مستوى الكرة الأرضية

عاد الرجل الأبيض
عيناه
تلمعان فى الظلمة
مثل جمرتين فى مهب الريح
بيديه الضخمتين
ينتزع قلادة «إنارى»
نبال «ريمى»
تنورة «شيريميكا»
أرجوحة نوم «كامو»
صراخه يُبكى البنت الصغيرة
وتضمّ الأم «كامو» إلى صدرها
وتقول: «اتركونا».

[١]Chant Piaroa (Amazonie).

عندما انهمك المفكرون الغربيون فى هذا **النقد الذاتى**، الذى أدرك بعضهم فى سياقه المصدر المتناقض لتفوق الغرب، شجبوا الإمبريالية الأوروبية من الناحية الجوهرية بوصفها نظاما شاملا من الاغتصاب. وسواء أكان الأمر يتعلق بنهب إقطاعى ومدمر أم باستغلال رشيد، تفهم الامبريالية على أنها مسألة اقتصادية **بصفة جوهرية**، وسياسية بالتالى. ولم ير فيها لاماركس ولا لينين ولا روزا لوكسمبورج ولا ماركسيو العالم الثالث ظاهرة ذات **دينامية ثقافية**، ليس أكثر فيما يتعلق بذلك من شومبيتر وهيكس Hicks وأغلب المفكرين «البرجوازيين». ويرد هؤلاء الأخيرون النزعة التوسعية للغرب إلى بعض آثار الإقطاع، وإلى بقاء الأرستقراطية، وإلى استمرار عقليات لصوصية، وإلى انبعاثات اقتصاد الأوامر. وعلى أية حال، كان الأمر يتعلق دائما بالسلب والنهب. وحدهم بعض المستعمرين أدركوا بحدسهم، بصورة تهكمية أو مبهمة، ودائما أبوية، الرهان الفعلى. والواقع أن حيوية الثقافات تثبت نفسها بانتشار هذه الثقافات. وكان لابد من إنتظار هذا التجديد للنقد الذاتى للغرب على يد الأنثروبولوجيا الثقافية للتساؤل عن الطابع الغربى لـ «قيم» عالمية وبوجه

خاص للاقتصاد. وفى شجبهم للإمبريالية الاقتصادية، كان الراديكاليون الغربيون يقتفون بطريقة أخرى أثر تغريب العالم، فيما كان أقرانهم فى العالم الثالث يعمقون هذه السيرورة مقتحمين باندفاع معركة التنمية.

وتستدعى كافة أوصاف ما نسميه بالتخلف فى العالم الثالث وضعا من الإقصاء. ولا يتعلق الأمر بالمجاعة والبؤس وحسب، بل يتعلق كذلك بإهمال يصبّ، حتى فى أحوال أقل إثارة للأسى، فى مجتمعات بلا أمل وبلا أفق.

وليس هذا الأثر للتغريب نتيجة لآلية اقتصادية فى حد ذاتها، بل هى نتيجة لعملية محو ثقافة déculturation. وينتج محو الثقافة بدوره ويستفحل بفعل العلاج المستخدم لمداواته: سياسة التنمية والتحديث.

أولا: محو الثقافة والتخلف

الواقع أن الغرب ركام سديمى وهو، مثل كون باسكال، مركزه فى كل مكان ومحيطه ليس فى أى مكان. ذلك إنه صار آلة اجتماعية هائلة مثبتة داخل رؤوسنا. هكذا يصبح محارب من بابوازى*، فلاح من مزارع الأرز فى الهند الصينية، تاجرة **واكس** («مئزر») من أسواق كوتونو**، إمام من مدينة قُمْ، بيروقراطى من بوخارست، هكذا يصبحون، شاءوا أم أبوا، غربيين. ولاشك فى أنهم ليسوا كذلك بصورة مطلقة، ولاشك فى أنهم كذلك أقل من مزارع فى ميدل ويست، أو مُضارب فى **بورصة** لندن، أو عامل فى شركة رينو، أوكادر فى طوكيو؛ لكن هل هؤلاء الأخيرون أنفسهم غربيون **تماما**؟ وإذا كان الغرب هو هذه الآلة المعادية للثقافة والتى قمنا بتحليلها، فلا مجتمع، ولا فرد، يُعتبر **غربيا** تماما. والواقع أنه ليس هناك، ولا يمكن أن يكون هناك، مجتمع فردى تماما، لأن ذلك تناقض لفظىّ. وهناك دائما جانب من الكلانية holisme فى تكوين وتماسك الصلة الاجتماعية. كتب كارل بولانيى-Karl Polanyi: «إن السماح لآلية السوق بأن توجّه وحدها مصير البشر وبيئتهم الطبيعية... سيؤدى إلى تدمير المجتمع»[٢]. والغرب، كما سبق أن رأينا، لا يمكن اختزاله إلى آلية اقتصادية للسوق، غير أن هذه الآلية تمثل شكلا نموذجيا للسعى وراء الأداء وتميل إلى نشر منطقها ليمتد إلى الكل الاجتماعى.

---

* بابوزاى: اسم قديم لغينيا – الجديدة وجزء من اسمها بعد الاستقلال (بابوازى – غينيا – الجديدة) – المترجم.

** كوتونو: الميناء الرئيسى لجمهورية بنين – المترجم.

وليس هناك ولا يمكن أن يكون هناك تطابق بين فرد أو مجتمع وآلة للتراكم، للحساب. فالإنسان ليس أبدا ذا بعد واحد بصفة كلية، ربما لأن الأنسنة تمر عبر نسق رمزى هو دائما اعتباطى وبالتالى متعدد المعانى. كما أن الالتزام بقيم ليس مطلقا وحصريا. كان الأمر كذلك دائما، ولا يزال كذلك، حتى إذا لم يكن بوسعنا أن نؤكد شيئا بشأن المستقبل. ومن الجائز أن أنساقنا الرمزية ستختزل إلى شفرات من العلامات، فى عالم يزداد تقننة أكثر فأكثر، غير أننا لم نصل إلى ذلك بعد، وليس مؤكدا أننا سنصل إليه فى يوم من الأيام. كما أن كافة الجهود المبذولة للاقتراب من ذلك تؤكد الهوة التى ينبغى عبورها.

والواقع أن اليابانى، والأمريكى، والأوروبى، لا يزالون يملكون قيما خصوصية، وتقاليد، وروابط عاطفية، لا يتمثل أساسها فى الآلة العملاقة، بل فى التاريخ والموطن. إن محو الثقافة ليس كليا. على أن الاستهلاك يميل إلى إحلال نفسه محل كل تطابق ثقافى آخر. وفى الجنوب (وإلى حدّ ما فى الشرق)، يقضى انعدام الاستهلاك على الجماعات المغرَّبة بأن تكون مجتمعات خاوية على عروشها محكوما عليها بالبقاء فى الظل.

محو الثقافة والإبادة الإثنية

ويفرض نفسه هنا تدقيق للمفاهيم: فنحن نلتقى فى الكتابات المعاصرة بألفاظ: acculturation (تثاقف)، déculturation(محو الثقافة)، وحتى enculturation (تثقُّف: عملية تعلُّم المرء للمحتوى التقليدى لثقافته واستيعابه لقيمها)[٣]، مستخدمة على نحو توفيقى للغاية بمعان متعارضة أحيانا. وهذا التشوش الدلالى يفسره، من جهة، إبهام ثقافتنا، ومن جهة أخرى، تعقيد ظواهر العلاقات فيما بين الثقافات.

ونحن نستخدم كلمة تثاقف للدلالة على تفاعل إيجابى عند الاحتكاك بين الثقافات. وعندما تدخل ثقافتان فى اتصال، فإذا كانت السمات الثقافية التى يجرى تبادلها تتوازن وتحافظ كل منهما على هويتها وديناميتها الخاصتين بعد إدماج واستيعاب العناصر الأجنبية، يمكن الحديث عن تثاقف ناجح. وعندما، على العكس من ذلك، لا يتجسد الاتصال فى تبادل متوازن، بل فى تدفق فى اتجاه واحد مصمت، تغدو الثقافة المتلقية مغزوة، مهددة فى وجودها ذاته ويمكن اعتبارها ضحية عدوان حقيقى. وإذا كان العدوان، فوق ذلك، ماديا، فهذا هو الزوال لا أكثر ولا أقل أو الإبادة الجماعية. أما إذا كان العدوان رمزيا، فإن الإبادة الجماعية تغدو ثقافية وحسب، أىْ إبادة إثنية. إن الإبادة الإثنية هى أعلى مراحل محو الثقافة.

والواقع أن عمليات إدخال القيم الغربية: قيم العلم، والتقنية، والاقتصاد، والتنمية،

والسيطرة على الطبيعة، هى دعائم محو الثقافة. إن الأمر يتعلق بتحويل عقيدى حقيقى.

والحقيقة أن العنف يدمر أكثر مما يؤدى إلى تحول عقيدى حقا. ويعنى الغزو الروحى أنه يمكن إقامة اتصال بين الغرب التوسعى والعوالم الأخرى. ويفترض الاتصال شيئا ما «كحاجات» مشتركة، كقاعدة لتبادل ممكن. ولا ينبغى أن تخدعنا هذه المفردات «الاقتصادية»، فالمسألة هى قبل كل شىء مسألة قيم لا ترتدى شكل سلع إلا بصفة عارضة.

وفى حالة أفريقيا، لم تكن العبودية والنخاسة ممكنتين إلا لأنه كانت توجد عبودية فى المجتمعات التقليدية، ولأنه كانت هناك زعامات قبلية جشعة ومولعة بالحرب، ولأنه كان بالمستطاع منحهم وسائل إشباع.

ولم تحدث التحولات الدينية الضخمة إلا حيثما كانت الاعتقادات فى العالم الآخر قد ترابطت مع «تقنيات» قابلة لأن ينافسها سحر الرجل الأبيض منافسة مظفرة.

والواقع أن المجتمعات التقليدية التى هى حساسة إزاء قيم الرجل الأبيض جرى التخلص منها ببساطة عن طريق الإبادة أو الاضمحلال «الطبيعى». فالهندى الجيد أصبح فى الواقع هنديا ميتا، فى حين أن الأسود الميت كان يفقد كل قيمة. وفى حالة الهنود، كانت الإبادة الإثنية تعنى بطريقة أو أخرى الإبادة الجماعية. ويحاول كثير من الإثنولوجيين بلا جدوى تقريبا أن يدقوا ناقوس الخطر فى سبيل إنقاذ آخر هنود الأمازون.

«إلام صار حال القبائل التى أخذت على عاتقها وظائف الحماية؟ يتساءل ج. مينييه J. Meunier وأ. – م. سافاران A. - M. savarin. "آمنين"، ليس شعب البارينتنتيين* أكثر من فقراء يرتدون الأسمال، تم الهبوط بهم إلى درك التسول. "آمنين"، يتردّى شعب الكاينجانج** فى منطقة عزل بولاية سان باولو حيث يحشرون الهنود الذين يجرِّمهم القانون العام. "آمنين"، يعيش شعب الماكا*** فى إقليم شاكو فى الباراجواى فى مراعى حيوانات أسونثيون (عاصمة باراجواى) حيث "يفعلون فى الهندى" مقابل فرنكات زهيدة»[٤].

وبعد تشريدهم أو قتلهم فى مجازر فى سياق سجلّ طويل من الشهداء، تكون النتيجة فى نهاية المطاف الانقراض الذى لا مفر منه تقريبا للهنود.

ولم يكن بمستطاع مشروع الأخلاق البرجوازية الخاص بالقضاء على الموت بكافة أشكاله،

---

* البارينتنتيون: شعب هندى من شعوب هنود «توبى» الأمريكيين بالبرازيل – المترجم.

** الكاينجانج: شعب هندى أمريكى بالبرازيل – المترجم.

*** الماكا: شعب هندى أمريكى فى بعض بلدان أمريكا اللاتينية – المترجم.

ويفرض الحياة - بلا أيّ نعوث أخرى - كقيمة، أن يجد مستقراً إلا حيثما يُنظر إلى الموت البيولوجى رغم كل شيء على أنه غير مرغوب فيه. على أن المجتمعات التقليدية تعطى معنى واسعا للغاية للموت، للبؤس، للمرض، فى حين أن تمجيد الحياة البيولوجية كقيمة عليا أمر لا إنسانى ويدمر ذات معنى الوجود فى عمقه الكيفى. والواقع أن الغرب، عندما يفك سحر العالم، يجعل من الحياة الدنيوية القيمة الأولى بلا منازع. وعندما لا يعود المرء يجد الخلود أمامه، تغدو الحياة نضالا قلقا ضد الزمن. وبطبيعة الحال، يغدو الزمن الدنيوى لانهائيا، غير أن هذه اللانهائية لا تقوم إلا بفتح مجال لا نهائى أمام قلق الإنسان الحديث. والحقيقة أن التراكم اللانهائى للإبداعات بديل رائع للخلود. وهذا النضال المحموم ضد الزمن، واللامبالى إزاء الاستمتاع باللحظة، سمة مميزة للإنسان الغربى. على أنه حتى بالنسبة لغير الغربى، حتى بالنسبة «للبدائى» فإن من الصعب رفض هبة الحياة أو مجرد البقاء بفضل الطب، بفضل المعونة الغذائية، وربما حتى بفضل السلام المدنى. ولا يمثل «كمُّ الحياة»، فى نظرهم، قيمة فى حد ذاتها، غير أنه يمكن أن يكون الشرط الذى يسمح بالكيف المنشود. ويلاحظ دوركهايم عن حق بلا شك: «الواقع التجريبى الوحيد الذى يثبت أن الحياة جيدة بوجه عام، هو أن الغالبية الساحقة من البشر يفضلونها على الموت»(٥).

على أن المجتمعات التى تمجد الموت فى ساحات المعارك أو تحتفى بالانتحار لا تجعل من الموت البيولوجى، بما هو كذلك، قيمة. وإذا كانت الحرب عيدا والموت فى ساحات القتال مصيرا منشودا، فالحياة السعيدة والخالية من الهموم تستحق الترحيب. كما أن المشروع الغربى للقضاء على الموت يستحق الترحيب شريطة ألاّ يعيد النظر فى المعنى القديم والتقليدى للحياة. ومن المؤسف أنه ليس كذلك. والمشروع الغربى لموت الموت جذرى ومطلق. ذلك أن معركة الحياة من أجل الحياة شمولية حقا وتقتضى نبذا كاملا للممارسات الاجتماعية التى تنسجم مع «النفى»، الموت، البؤس، الشقاء... والواقع أن فقدانها للمعنى الذى يعنى فقدان معنى الثقافة بأسرها واختزالها الفولكلورى يجرى **بصورة طبيعية** وبسلاسة. فحتى فى الأمازون، تراجعت الحروب القبلية. وإذا كانت قد استُؤنفت على مرتفعات غينيا الجديدة فإن هذا لا يعنى أن الحداثة تتراجع، أو أن شعب «الكياب» الذى عهدت إليه أستراليا بصيانة سلام الرجل الأبيض قد اختفى مع الاستقلال. وإذا كان معدل الانتحار لايزال أعلى فى اليابان مما فى البلدان الأخرى، فإنه يتجه إلى الاقتراب من المعدل الوسطى العالمى. والواقع أن العبادة الغربية للحياة من أجل الحياة، ووجهها الدنيوى هو أنه ليس هناك عالم آخر وأن الموت لا معنى له، قد تغلغلت تماما فى كل مكان وتترسب بعمق متزايد. وقد أدرك نيتشه تماما مغزى

هذه الظاهرة: «لقد تخلينا عن الحياة **العظمى** عندما تخلينا عن الحرب»[٦].

وحتى إذا كان لم يتم، فى نهاية المطاف، القضاء لا على الموت العنيف، ولا على الموت البائس، ولا على الموت الطبيعى، فإن مشهد استئصاله الخيالى وبداية تنفيذه الفعلى مؤثران بما يكفى لـ «نصب فخ» للمجتمعات غير الغربية. وشيئا فشيئا، يفيق العالم من سحرهما، دون أن تصل الحياة، مهما تكن ممتدة، إلى أىّ كمال. إن الحياة لم تعد سوى بقاء.

هناك أيضا حقيقة مأسوية تنطوى عليها إنسانية وعالمية الغرب. ذلك أن تأكيد أن قيم الغرب، لكونها «طبيعية»، هى قيم كل إنسان وكل البشر يغدو صحيحا دون أن تكون هذه القيم لذلك أكثر «طبيعية». وبكل بساطة، لم يبق ولا يبقى إلا المجتمعات التى قبلت، جزئيا على الأقل، تلك القيم. وبذلك يمكن للتاريخ الذى يفسر الماضى بما يتفق مع معطيات الحاضر أن يزعم أن هذه القيم كانت **تتخلق** داخل ثقافات هذه المجتمعات وأن الغرب لم يقم إلا بأن كشف لهذه المجتمعات ذاتها حقيقتها العميقة.

والواقع أن الأنثروبولوجيين الذين يكتشفون الحياة الاقتصادية حتى فى المجتمعات الأكثر بدائية والذين يفسرون العلاقات المتبادلة بأنها تبادلات سلعية جنينية خاضعة للحساب النفعى لا يقومون إلا بتقديم الحجة النظرية لمحو الثقافة الفعلى.

على أن وسيلة نقل هذا «التحويل العقيدى» لا يمكن أن تتمثل فى العنف المكشوف أو النهب حتى وإن تقنع بقناع التبادل السلعى «غير المتكافىء»، بل تتمثل فى الهبة. وإنما من خلال منح الهبات يحصل الغرب على السلطة والهيبة اللتين تؤديان إلى المحو الحقيقى للأبنية الثقافية. والواقع أن المجتمعات يمكنها أن تدافع عن نفسها ضد العنف والنهب. وإذا لم يتم تدميرها، يمكنها أن تقاوم وقلما تنزع إلى التخلى عن هويتها الثقافية لصالح تلك الخاصة بالمعتدى. وبالمقابل فإن كل شىء يجعلها مهيأة لأن تتقدم منزوعة السلاح وبلا دفاع أمام الهبة. فالمرء لا يرفض الدواء الذى ينقذ الحياة، الخبز الذى يخفف البؤس، الشىء المجهول والسحرى الذى يُغوى والذى يمكن للمرء أن يستمد منه الهيبة فى ثقافته الخاصة.

وفى كافة المجتمعات، يكتسب الواهب الهيبة ويصبح دائنا بدين معترف به ولا يمكن لشىء أن يسدده. والواقع أن الاستعمار الجديد قدم لمحو الثقافة، عن طريق المساعدة التقنية والهبة الإنسانية، أكثر بكثير مما فعل الاستعمار العنيف.

وعندما يحسب الاقتصاديون بآلتهم الحاسبة، بدلا من القلب والرأس، حسابا ماديا فقط فإنهم يخطئون أعمق الخطأ بعزوهم التخلف إلى ابتزاز الثروات. والواقع أن العربدة الدامية للفاتحين الأسبان **والتعطش اللعين للذهب** auri sacra Fames لدى المغامرين، وهما

ظاهرتان لم تختفيا أبدا فى الحقيقة، ولا تزالان ماثلتين فى جشع الشركات عبر القومية، وفى عنف المرتزقة أو تجاوزات الخبراء[٧]، ليسا سوى «هفوات» مذهلة حقا، لكنها إجمالا ثانوية تماما فى سياق الدراما الكونية لدينامكيا المجتمعات. كما أن منتهى التفانى لدى بناة الامبراطوريات، وإنكار الذات بلا حدود لدى الأطباء، والعناية الفائقة لدى إخوة البشر، وحب كل إنسان لدى المبشرين، والخبرة المتضامنة لدى التقنيين، بل حتى الحماس الأممى وإنكار الذات لدى الثوريين المحترفين، كانت الممثلين الحقيقيين لدراما محو الثقافة.

فكيف يمكن لهؤلاء، أمام هذا السيل العرم من النية الطيبة، أن يرفضوا التخلى عن ممارساتهم المخالفة لعلم الصحة، طريقتهم غير الفعالة وغير الرشيدة فى الإنتاج، معتقداتهم السلفية، فى حين أن عالم الخيال، الذى شيد عالمهم بوصفه العالم، مطعون فيه على نحو قاتل بحكم مجرد وجود عالم آخر؟ والواقع أن هذا العالم الآخر مختلف اختلافا جذريا عن المجتمعات المجاورة. ذلك أن التعايش المنطوى على الصراع بين المجتمعات التقليدية لم يكن يطعن فى تأكيد الامتياز الإنسانى المطلق والذى كانت كل ثقافة تعزوه إلى أعضائها. كتب كلود ليفى - شتراوس: «ينسى المرء أنه أمام عينيه يقوم كل مجتمع من عشرات أو مئات الألوف من المجتمعات التى تعايشت على الأرض أو تتابعت منذ ظهر الإنسان عليها باستغلال يقين أخلاقى - شبيه بذلك الذى يمكننا نحن بدورنا أن نتذرع به - لإعلان أنه تكثّف فيه - حتى إذا كان مجرد جماعة صغيرة من البدو الرحل أو مجرد قرية صغيرة ضائعة فى أعماق الغابات - كل المعنى والكرامة اللذين تدركهما الحياة الإنسانية»[٨].

والحقيقة أن هذه الأنا وحدية الثقافية التى لم تكن تستبعد وعياً ما وحتى إقراراً بالآخر، جوهرية لتأمين تماسك واستمرارية كل ثقافة. غير أنه لم يعد من الممكن الحفاظ على وهمها فى سياق الاتصال بالغرب. وهذا الأخير غير قابل للتدمير فى واقع الأمر. ويظل الاستيعاب الخيالى له هشا وينبغى استئنافه بلا نهاية أمام إلحاحه. فهو يبقى خارج المتناول ويستمر فى المنح دون أن يقبل شيئا. وهو يتكيف عند الضرورة، لكنه لا يقر بأى ديْن ولا يريد أن يتلقى درسا من أحد.

وبعد أن صارت مصابة فى الصميم، لا يمكن للمجتمعات غير الغربية إلا أن تدور فى الفراغ. ففقدان المعنى الذى يصيبها وينخر فيها مثل سرطان، تدريجيا، لا يمثل تثاقفا. ولا يعنى مجرد واقع أن الغرب ماثل هناك، بوصفه وجودا غير قابل للإزالة وغير قابل للاستيعاب، أن يتم دمج طاقاته وأسراره. وهذا الوجود، بلا أى عنف مادى، بلا محاولة للاغتصاب والاستغلال، هو فى حد ذاته كارثى. إن الدودة داخل الثمرة. والفراغ الذى خلقه

الفقدان الخبيث والتدريجي للمعنى والذي يولده وجود الغرب يملؤه على نحو ما المعنى الغربي. غير أن هذا الإحلال ليس تثاقفا لأن الأمر لا يتعلق بتبنى أساطير الغرب وبدمج قيمه بالعدوانية الضارية التى ينطوى عليها ذلك. وببساطة أكثر فإن المجتمع المصاب، لأنه لم يعد يمتلك عيونا ليرى نفسه، كلاما ليقوله لنفسه، أذرعة ليتصرف، يتبنى نظرة الآخر، يحدث نفسه بحديث الآخر، يتصرف فى نفسه بأذرعة الآخر. وعالمه متحرر من السحر تماما. وينبغى أن نفهم عبارة التحرر من السحر هنا بمعناها الحرفى. فماذا يبقى له عندما تموت آلهته، وتنقلب أساطيره خرافات، وتغدو مفاخره عاجزة وعديمة الجدوى؟ إن المجتمع غير الغربى لم يعد بوسعه إلاّ أن يكشف نفسه فى سياق عُرْى جنونى، كما قرر له الغرب: إنه يغدو بائسا. وبتكريسه لنفسه لأخلاقية طفولية، وللأمل فى حياة رثة، ومنخورا بطفيليات من كل نوع، فإنه لا يملك سوى تقنيات عتيقة ومثيرة للسخرية، تمنحه ناتجا قوميا إجماليا تافها للفرد. وهو لا يعود يرى فى طقوسه سوى نتوءات شائهة (أكل لحوم البشر، القرابين البشرية...) أحدثها هذيان البؤس ومعاداة التقدم. ومحاصرا ببطاريات معايير منظمة الأمم المتحدة فإنه يغدو مقضيا عليه بالهزيمة. وهو يعترف بهزيمته. بل هو يطالب بإلحاح بأن يتم تصنيفه بين أولئك الأقل تطورا. والواقع أنه لم يعد يصلح إلا للاستجداء الدولى.

وكل هذا بدون استعمار كولونيالى، حتى **قبل** دمار هياكله الإنتاجية بفعل منافسة المنتجات الأجنبية، حتى **قبل** نهب «ثرواته» من جانب الفاتحين الأسبان، الشركات الاستعمارية، الشركات عبر القومية.

والحقيقة أن التخلف يتمثل فى جوهره فى هذه النظرة الغربية، فى هذا الكلام الغربى، فى هذا القياس على الآخر، وهو مقضى عليه بالبؤس قبل أن يكونه، وهو يكونه لأنه محكوم عليه بذلك حكما نهائيا. إن التخلف تسمية غربية.

وهذا الجوهر للتخلف حجبه رُكام من الملابسات التاريخية، والتنوع الهائل للأحداث الطارئة، ورقّة ردود الفعل. وحتى اليابان لم تفلت من هذا الفرمان. فقد كانت أيضا، وإن كان هذا على مدى لحظة قصيرة، بلدا بائسا وبربريا، كان الناس فيه يقتلون أطفالهم عند الولادة، ويبيعون بناتهم ليحيوا حياة بائسة، ويرتدون قبعة رسميات مع الكيمونو...

والواقع أن هذا الاستبطان لنظرة الآخر ولحكمه صار عالميا. ولا يزال بوسعنا أن نرى هذا التذبذب بأعيننا عند آخر «المتوحشين». إن «عظماء» الغابة فى مرتفعات غينيا الجديدة يغدون صعاليك (rascals) مدن الصفيح فى بورت مورسبى*. ويمكن للمرء أن يثبّت على فيلم

* بورت مورسبى: عاصمة غينيا الجديدة - المترجم.

الكاميرا اللحظة المأسوية التى يتذبذب فيها كل شىء، والتى يميل فيها عالم لا يزال يُفهم على أنه العالم إلى السقوط، بغضب من الرب المسيحى. ويتجلى هذا «التحول الكبير» على الهيئة البدنية للمعنيين: تداعى البدن، حزن النظرة. وتغدو الشعوب المعروفة بمتانة الأجسام أناسا منتكسين ينخر فيهم إدمان الخمر والرذيلة... إلا إذا تمالكوا أنفسهم وانطلقوا لغزو العالم متحولين إلى غربيين أكثر من الغربيين إن لم يكن هذا مستحيلا...

يؤكد ذلك صراحة الفيلسوف الكاميرونى مارسيان توا Marcien Towa. وهو يكتب: «يكمن سر الغرب فى ذلك الذى يميزه عنا»، وينبغى بالتالى «أن نجحد أنفسنا، وأن نطرح للمناقشة وجود "الذات" ذاته، وأن نتأورب تماما... أن نجحد وجودنا الحميم لنصبح الآخر... أن نقصد قصدا إلى أن نصبح مثل الآخر، شبيهين بالآخر، وبذلك غير قابلين لأن يستعمرنا الآخر»[٩].

وإذا كان الآخر، مثل مصاص الدماء، لا يعيش إلا على دم ضحاياه... فإن الرغبة كبيرة فى إراحة الضمير وكفكفة نحيب الرجل الأبيض، بالاقرار بأن التخلف ليس، فى الواقع، نتيجة لاغتصاب أو لتبادل غير متكافئ مشكوك فيه. إن التغريب مردودا إلى نواته الصلبة، التوفير économisation، ممكن وسيخلق حقًا الثروة التى يعد بها. وتشير البلدان الصناعية الجديدة إلى طريق هذه الثروة الجديدة للأمم. وليس التخلف سوى النتيجة العارضة لنكد الطالع، والرعونة، والانحراف. كما أن الآلة الغربية البريئة والفعالة تعرض نفسها كنموذج دائم للخروج منه.

على أن تحليلنا لاندماج ما هو اقتصادى فى الثقافة لا يسمح بالاحتفاظ بمثل هذا التفاؤل. وكان الأزتيك يعتقدون أن قوة الشمس تتغذى على القلوب النابضة للضحايا المقدمين كقرابين؛ ولا شك فى أنهم كانوا على حق؛ ذلك أن قوة وحرارة الامبراطورية تحتاجان إلى طقس. والواقع أن الآلة الاجتماعية التى بنيناها تحتاج بدورها إلى نصيبها من الضحايا. وعلى خلاف الاقتصادوية النقدية (الماركسية أو نظرية العالم الثالث)، لا تنتج التضحية بغير المختارين عن التراكم اللانهائى ضمن نوع من المقامرات بمبالغ ثابتة. ذلك أن إخراج جانب كبير من الأفراد والجماعات الاجتماعية من اللعب ضرورى «لتوفير» ما هو اجتماعى، وبداية ثم متابعة مباراة يقوم فيها التزايد المتواصل للمبلغ بتدمير مغزاه.

ثانيا: وسائط اجتثاث الجذور

لا يمضى فقدان النظر والنطق بدون فقدان الذراعين أيضا. ذلك أن تبنى حكم الآخر يستتبع تبنى الفعل الذى يتصوره. والواقع أن مجتمع العالم الثالث، المحكوم عليه عالميا

بالتخلف، والذى يغدو كذلك كل يوم أكثر فأكثر، لا ملجأ آخر له إلا إدراج فعله فى إطار استراتيجية للتنمية. وبوصفها النتيجة الضرورية للاستعمار الذاتى تغدو التنمية فى الواقع مواصلة وإطالة أمد للاستعمار. إن الأمر يتعلق بالتدمير بفعالية لهذا الذى لم يكن كذلك إلا من الناحية السلبية فى سياق صدمة فقدان المعنى. والخبير البعيد عن الثقافة هو هنا الوسيط بلا منازع لإنفاذ المصير. كتب أحدهم على نحو موح للغاية: «التنمية الاقتصادية لشعب متخلف لا تنسجم مع الاحتفاظ بأعرافه وعاداته التقليدية. وتمثل القطيعة مع هذه الأخيرة شرطا مسبقا للتقدم الاقتصادى. والمطلوب ثورة فى مجموع المؤسسات وأنماط السلوك الاجتماعية والثقافية والدينية، وبالتالى فى الحالة النفسية، وفى الفلسفة، وفى أسلوب الحياة. وينتمى ما هو مطلوب إذن إلى اختلال اجتماعى. ينبغى إثارة الشقاء والسخط بمعنى أنه ينبغى تطوير الرغبات فيما وراء ما هو متاح، بلا انقطاع، ويمكن الاعتراض على المعاناة والشرخ اللذين ستؤدى إليهما هذه العملية؛ غير أنه يبدو أنهما يشكلان الثمن الذى ينبغى دفعه مقابل التنمية الاقتصادية»[١٠].

ولن ينكر ذلك ريمون بار الذى يؤكد بلهجة قاطعة فى كتيبه: «اللامساواة فى الدخول هى مصدر السخط، وبالتالى مصدر تقدم البشرية»[١١].

ويتغذى اجتثاث الجذور الذى حللناه أعلاه بين أشياء أخرى على تفاعل ثلاث عمليات هامة تساهم فى إيجاده: التصنيع، التمدين، «القوموية». وهذه العمليات هى، على نحو ما، صمامات الكبح الثلاثة لسياسة التنمية.

وتتمثل المشكلة فى أن المستشارين، هنا أيضا، ليسوا الدافعين. وهم لا يقدمون ضمانا فى حالة الإخفاق. ألا يعنى هذا أنهم سيتركون الجوهر مقابل الظل؟ وزعزعة التوازن القديم مقابل ألأ يحدث سوى وهم التنمية وألأ يتحقق سوى التشريد؟

التصنيع

التصنيع هو الطريق الملكى للوصول إلى ملذات مستوى معيشة الغرب وإلى أوهام قوته. وتجرى محاولات إقامته فى كل مكان فى العالم مهما كان الثمن. وهو يؤدى، بالتأكيد، إلى تدمير للأشكال الاقتصادية السابقة (الحرف، المشاعات الريفية). غير أن هذه الأشكال لم تكن وسائل محايدة لإنتاج طيبات استهلاكية، بل كانت تسهم إسهاما عميقا فى نشأة المعتقدات والأساطير التكوينية للمجتمعات.

وينتج عن التصنيع على نحو لا يمكن تفاديه **تقليد أعمى تكنولوجى** موجَّه إلى هذا

الحد أو ذاك. ويفرض تنميط المنتجات نفسه تحت ضغط السوق العالمى، إن لم يكن بحكم الذوق، وتستخدم الآلة فى ضبط حركات العمل. وتنقلب كافة أوضاع الحياة بحكم الدواعى الصناعية: الإيقاعات، الأنماط، الغايات.

ومهما كان محدودا، مكبوحا، محجوزا، كما هو الحال فى أغلب بلدان أفريقيا السوداء، فإن حدا أدنى من التصنيع ينتج عن «إحلال العادات الاستهلاكية». وبذلك يجرى تدمير المنتجات والعادات التقليدية تدميرا نهائيا. ويفرض منطق التصنيع نفسه فى كافة مجالات المجتمع: فى الورش التقليدية، لكن أيضا فى المكاتب وحتى فى الحياة الخاصة. وليس هناك بديل لعملية التقليد الأعمى هذه. وبطبيعة الحال فإن الصورة المصغرة التكنولوجية أو التصنيع «الزاحف» طريقان مختلفان من حيث وسائلهما ونتائجهما المباشرة، غير أن الهدف النهائى متماثل.

وينتهى تحقيق المشاريع الكبرى القائمة على التبنى الواسع النطاق لتقنيات الذروة إلى إخفاقات أصبحت الآن معروفة جيدا ومعترفا بها. ويقال أن التطعيم التكنولوجى يخفق وأن المجمع الصناعى غير المنجز يصدأ وسط مشهد مدمَّر. ولا تعمل كاتدرائيات الصحراء هذه، هذه الأفيال البيضاء، فى أفضل الأحوال، إلا بنسبة ٥٠٪ من طاقتها الإنتاجية بمساعدة كم هائل من الخبراء الأجانب والإعانات المالية. وفى حين يحيا المجتمع الحديث على حساب صناعاته، تبقى مشاريع العالم الثالث على حساب المجتمع.

والواقع أن الأسباب المباشرة وراء هذه الإخفاقات أصبح مسلما بها من الآن. ذلك أن المجتمع التقنى ليس آلة حقيقية يمكن شراؤها وتسلمها جاهزة. فالبشر بمعتقداتهم وتقاليدهم وكفاءاتهم تروس لاغنى عنها للعمل السليم للآلة ولا يجرى تسليمهم مع الآلة جاهزين للاستعمال.

والصورة المصغرة التكنولوجية خدعة لأن التقنية ليست فقط الآلة التى أنتجتها هى، بل مجموع علاقات البشر والأدوات والبيئة الملائمة لتقدم الإنتاج والاستهلاك. وينبغى أن يتسق كل شىء. فكل عيب فى الدورة يقود إلى إخفاقات. وهذه الأخيرة لا تحصى ولا تعد، وأسبابها متباينة للغاية.

أما التصنيع الزاحف، الأكثر تواضعا فى مسعاه والقائم على حيوية الحرفة التقليدية أو النشاط غير الرسمى، باستخدام تقنيات أكثر ملاءمة، فإنه يسعى إلى ردم الهوة. وهو ينجح فى ذلك أحيانا، كما فى حالة البلدان الصناعية الجديدة، غير أن هذا التقنين لعملية لا تخضع للتقليد الأعمى مجال لمفارقات عديدة. والهدف المنشود هو اللحاق بالطريق السوىّ للتنمية عن طريق وصلة تكنولوجية ذاتية، أى عن طريق استرداد للسياق وتعقيد تدريجى للنسيج الصناعى. عندئذ يمكن الوصول إلى تصنيع كامل الفاعلية «une industrialisation de

plein exercice[١٢] يحقق التنمية أىْ أروع وأفضل وخير ما فى الحداثة. والواقع أن هذه العملية الشائعة والعفوية، وهى لنجاح حقيقى جاء كرد فعل لتنمية التقليد الأعمى المخفقة، ستغدو على هذا النحو بعد فوات الأوان استراتيجية أخرى... تنموية.

كما أن الانتقال من «التصنيع - الإثنى» (يفضل بعضهم أن يسمى هكذا القطاع غير الرسمى)، ذى الطابع الدفاعى، إلى اقتصاد عدوانى تنافسى على المستوى العالمى، من الصعب تحقيقه بوجه خاص. ويغدو الدخول فى التكنوبول (القطب التقنى) عبر القومى الذى أخذ مكانه رابطا العالم الثالث **فيما وراء البحار** Off shore والاقتصادات المحلية للشمال والجنوب، أكثر فأكثر صعوبة. وبوجه خاص، يميل تقنين الديناميكا غير الرسمية إلى تدمير العلاقة الاجتماعية التى يرتكز عليها. والواقع أنه يقحم العناصر الأكثر تدميراً لحداثة ربما تم تجاوزها. وبذلك بالذات، ينخر فى الأصل المجتمعى للإبداع الذاتى.

وهكذا فإن هذا التصنيع، حتى إذا كان قد شهد نجاحا ما، يترصده أيضا التقليد الأعمى الماحى للثقافة. إن استحالة التغريب ليست أنطولوجية هنا، إنها تاريخية خالصة.

التمدين

كانت بغداد، القاهرة، هانكيو، مدنا ضخمة عندما لم تكن لندن وباريس سوى بلدتين، ونيويورك غابة عذراء. وإذا كانت المدينة ظاهرة قديمة، وليست غربية بوجه خاص، فإن التمدين urbanisation تطور قريب العهد لكنه بدوره لا يقاوَم شأنه فى ذلك شأن التصنيع. إن هذا الأخير يخلقه (التمدين)، والأزمة تفاقمه. والواقع أن النمو السكانى، والنظام السياسى، والاستراتيجيات الاقتصادية، والكوارث الطبيعية، والنظام التعليمى، والاتصالات البعيدة المدى، وسرابات الواجهات، تسهم جميعا فى تسريع هذه العملية. وعندما تسمح الثروة الطبيعية (المناجم أو البترول) بذلك، تنمو المدن وتعيش على استغلال هذه الثروة، وتغدو عالة على فائضها. وعندما تكون الثروة غائبة وتمثل الإدارة الصناعة الرئيسية للبلاد، يتنامى التمدين أيضا. وإذا كانت البيروقراطية الكولونيالية قد أنشأت مدن قيادة فإن الاستقلال السياسى فاقم من عملية البقرطة. وكان عدد الموظفين فى السنغال بعد الاستقلال بعدة سنوات عشرة أضعاف عدد الإداريين السابقين فى أفريقيا الغربية الفرنسية AOF بأسرها.

وفى نهاية القرن، وفى كافة الأحوال، سيعيش العالم الثالث إن لم يكن فى المدن ففى مدن الصفيح على الأقل. وسيتركز الجانب الأكبر من سكان العالم فى الضواحى الضخمة المتوحشة تقريبا. وهذه العملية هى النتيجة المنطقية للأزمة المجتمعية ولفقدان الهوية الثقافية. على

أنها بدورها ستفاقم بكل جلاء اجتثاث الجذور وتحدث قطيعة مع الأصل الثقافى الريفى. والواقع أن التنظيم المدينى، المغلق على نموذج عبر قومى، يدمر العلاقة القديمة بالمكان. وهكذا فإن المساكن ذات الإيجار المعتدل HLM فى الجزائر ليست مصممة من أجل العائلة المعتادة، بحجمها الموسع وعاداتها، بل من أجل أزواج وزوجات يعيشون على الطريقة الأوروبية. ويلاحظ ج. ماسيا G. Massiah وج. - ف تريبيون J. - F. Tribillon ما يلى: «هذا المسكن لا يمكن إلا أن يساهم فى تحطيم التضامنات التقليدية التى لا تزال توحد، بواسطة العائلات الموسعة، الأفراد مع مجموع السكان. وعندما أرسلت شركة كاب - فير (الرأس الأخضر) العقارية - شركة البناء العامة السنغالية التى قام بتأمين تمويلها الصندوق المركزى للتعاون الاقتصادى الفرنسى - مبانيها الجماعية الأولى إلى داكار، كانت تقدم العرض الإعلانى التالى: «مع الشقق على الطريقة الأوروبية، يمكنك أن ترفض نهائيا استقبال الوالدين عند حضورهما»[١٣].

والشكل الخاص جدا الذى يرتديه التمدين المعاصر لا يزال يفاقم من محو الثقافة. فالضاحية هى درجة صفر فى السكن المدينى، أما مدينة الصفيح فمكانها السلب تماما. ويقتصر مسكن الضواحى على مجرد وظيفة. فليس هناك فى المشهد لا مركز، ولا معالم، ولا علامات للدلالة على الهوية ولتربية الروح على الجمال أو المتعة. وبوصفها مكانا مهملا، وحتى مكان - صندوق زبالة، فإن أحزمة المدن تقاس بزمن الانتقال، بحاجز/ فاصل المواقع الرمزية لقلب المدينة Polis أما طفل الأحزمة، وفيما عدا استثناءات سعيدة، فلا يعرف من المكان المتحضر سوى المشاهد الأكثر تشويها حيث يتنافس عليه القبح مع الإهمال، وانعدام الأمان مع الخبل.

وتنقل مدن الصفيح اجتثاث الجذور والإقصاء اللذين عرفتهما ضواحى المدن الصناعية الغربية إلى مستوى أعلى. ولأنها لا تمتلك لا شبكة طرق، ولا مياها جارية، ولا كهرباء (رسميا على الأقل)، فإن كاريكاتورات المدن هذه لا تتمتع بوجود قانونى. ولأنها زوائد شائهة وطفيلية فإن هذه الأحزمة كانت ستغدو عوالم سفلية حية، لو لم تحولها حيوية شاغليها الذين لم يجر محوهم ثقافيا بصورة كاملة إلى معامل لروابط اجتماعية جديدة.

والواقع أن التصنيع والتمدين حدثا أيضا، وأولاً، فى البلدان الغربية بنتائج مماثلة. ومع ذلك، لم يكن لفلاحى المناطق «المتأخرة» فى أوروبا، والذين غادروا شقاء واختناق البيئة الضيقة التقليدية إلى المدن الكبرى أو الولايات المتحدة، عذر كبير فى فقدان «هويتهم» الثقافية. فبفضل أفضل الدخول، اشتروا لأنفسهم جواز سفر مواطن عالمى. وبجانبها الأكبر،

كانت سرابات المدينة أو أمريكا (على الأقل بالنسبة للجيل التالى) **معجزات** حقيقية. كما أن الحداثة انتهت إلى التغلغل فى الأرياف ذاتها، الخاوية تقريبا من الآن، وإلى إدخال المعايير اللامبالية والمتماثلة والمعقمة للرفاهية الحديثة إليها. وكان الوصول إلى الحداثة يمثل نهاية الثقافات وانتصار الحضارة.

وقد جرى، أحيانا، هجر الثقافات السلفية بصورة عفوية، وكان من الضرورى، أحيانا، أن تدمرها المنافسة الاقتصادية أو الدولة المركزة والمدينة بالقوة.

وعلى وجه الإجمال، كان ضحايا هذا التحديث الطوعى أو الإكراهى قليلين فى البلدان المتطورة، ولم يكن بوسعهم إسماع صوتهم على أى حال. وهكذا فرضت الفكرة نفسها، على أساس تجربة حياتية هائلة، وكانت التنمية بديلا إيجابيا جدا للثقافة. وحل محل الهوية الثقافية الناتج القومى الإجمالى للفرد والوصول الواسع إلى الاستهلاك. وتحل طقوس الابتكار الآلى المطروح محل الفولكلور. وتغدو الثقافة فى واقع الأمر مرادفا للتأخر، للتخلف. والواقع أن مفهوم التنمية الذى انتشر وفرض نفسه فى العالم الثالث كان مفهوم الإحلال الضرورى للتصنيع محل الثقافة التقليدية. وكان من المفترض أن يكون لهذا التصنيع نفس النتائج «الحضارية» التى كانت له فى البلدان التى سبقت إلى التطور، أىْ أن يؤدى إلى استخدام للسلع يملأ الحياة ويتخم المواطنين برفاهية تملؤهم بالنشوة. ومع ذلك، سرعان ما ظهر أن التصنيع القائم على التقليد الأعمى كانت له بالفعل آثار مدمرة على الثقافات التقليدية لكنه لم يجلب، **من تلقاء ذاته** ipso Facto، إجابة كاملة على مشكلات الوجود الاجتماعى. وفى البداية اعتقد تكنوقراطيو العالم الثالث أن هذا الفراغ سيجرى ملؤه على مر الزمن. على أنه، على مر الزمن، اتسع الفراغ، بوجه عام، بسبب عجز تنمية مفتعلة وغير قادرة على المنافسة عن توجيه الطاقات والرغبات وعن إحلال الثقافة. وعندئذ جرى التفكير فى استخدام البقايا، مخلفات الثقافة السابقة، وجعل المشروع الصناعى والتحديثى يتعايش مع الهوية الثقافية؛ وأفسح ذلك المجال أمام تجارب عديدة، للأصالة، للزنجية، للعروبة، للأسلمة... وعندما لم يختزل المشروع الصناعى «البعد الثقافى» إلى تعازيم خالصة وخالية من المعنى، أمكن للتعايش المنطوى على الصراع بين العنصرين المكونين لهذا المزيج أن يستحيل إلى انفجار كما فى حالة الإبادة الجماعية الخميرية*.

---

* الخميرية: نسبة إلى شعب الخمير فى كمبوديا – المترجم.

القومية

فرض نظام الدولة – الأمة نفسه على المستوى العالمى كشكل مطلق للسياسة. ولأن الشخصية القانونية لم يجر الاعتراف بها فى المجتمع الدولى إلا للدول ذات النمط الحديث فإن الأمم التى تمتعت بسمات نظام الدولة هى وحدها التى بوسعها أن تكون فى عداد **مجتمع الأمم**، الذى تمثل منظمة الأمم المتحدة شكله المؤسسى. والواقع أن كل جماعة أو كتلة بشرية، عارضة أو متجمعة بحكم هوية عميقة، تسعى إلى الحصول على هذا الوضع القانونى... وقد شهدت عملية تصفية الاستعمار ظهور كثرة من الدول الجديدة نتجت حدودها عن تقسيمات أكثر تعسفا من التقسيم الكولونيالى. وتحاول دول العالم الثالث المصطنعة هذه فى كثير من الأحيان أن تفرض على «مواطنيها المحدثين» هوية قومية مجردة وفارغة. وبعد أن حققت هذا، تناضل هذه الدول بعناد جدير بقضية عليا ضد الهويات الثقافية للمجموعات الإثنية القائمة.

وقد تمثل أحد أروع نجاحات التغريب فى انتشار **أدوات السلطة**. ويلاحظ كاستورياديس ذلك بفطنة ثاقبة: «تقنيات السلطة، أىْ تقنيات الخبل الجماعى – هناك مكبر صوت فى كافة القرى يبث خطاب الزعيم، هناك تليفزيون يقدم نفس الأخبار، الخ. وتنتشر هذه التقنيات بسرعة النار فى الهشيم، وقد اجتاحت الأرض بأسرها: وسرعان ما انتشر ذلك فى كل مكان. إن أىّ أو نباشى فى أىّ بلد من بلدان العالم الثالث يحسن استخدام سيارات الجيب، والرشاشات، والبشر، والتليفزيون، والخطب، وكلمات «الاشتراكية»، و«الديمقراطية»، و«الثورة». وكل هذا، قمنا نحن بمنحه لهم وتلقينه إياهم بسخاء بالغ. إن ما هو أقل انتشاراً نسبيا هو على وجه التحديد المكون الآخر من مكونات مجتمعنا، أىْ قيم التحرر، الديمقراطية، البحث الحر، الاستقصاء الحر، الخ..»(١٤).

وإذا كان للحضارة أن تختزل إلى الشرطة والجيش، فإن العالمية متحققة إذن منذ الآن... والواقع أن الحروب فى العالم الثالث فى هذه الأربعين سنة الأخيرة أسقطت بالفعل قتلى أكثر من قتلى الحرب العالمية الثانية.

ورغم أن القومية فعالة على نحو مريع فى إثارة صراعات بين الإخوة بمناسبة مباراة كرة قدم أو فى تفجير نزاع على بضع بوصات صحراوية، فإنها تخفق فى إعطاء معنى لمشروع جماعى مستقل. وخارج الغرب، تظل الدولة إلى جانب المجتمع. وهى تعمل جاهدة على تدميره أو إفساده، وتحجم عن الذوبان فيه. ويحوّل انقشاع الأوهام القومية(١٥) مجتمعات العالم الثالث إلى مجتمعات تدور فى الفراغ.

وبعد تجريدها من روابطها الاجتماعية الأصيلة، وبالتالى من معرفة واقعها، لا تتعرف شعوب العالم الثالث على نفسها فى سياق العلاقات السياسية والقانونية والإدارية الجديدة النابعة من الاستقلالات. وقد استسلمت الحكومات لتقليد أعمى يقترب من الكاريكاتور والمسخرة. وعندما تكرس نفسها لذلك من تلقاء نفسها، يفسح التنكر للأصل المجال أمام أشكال من اللبس، سارة أو مشئومة، الأمر الذى يحوله جانب من النخبة المتعلمة والأوربيون إلى مهزلة. ولتفادى هذه «الأخطاء» يجرى اللجوء بنفقات باهظة إلى خبراء غربيين يقومون، حتى بأطيب نية على الإطلاق، بما يمكنهم أن يقوموا به وما كانوا يقومون به دائما بحكم منطق الأشياء، دون أن يستطيعوا أو يعرفوا كيف يأخذون فى اعتبارهم اختلاف السياق، إذا صح أنهم يمتلكون الوعى بذلك.

وهكذا تتمتع أفريقيا الغربية جنوبىّ الصحراء بأروع مجموعة من المؤسسات الفرنسية التى يمكن تصورها: دساتير، مجموعات قوانين مدنية، مناهج تنظيم مدن، نظام ائتمانى، مؤسسات تربوية، الخ. على أن كل هذا غير مكيف وعبثى تماما مثل ماكينات إزالة الثلج السوفييتية فى كوناكرى، والتى تهكم منها مؤخرا الخبراء الفرنسيون فى التقليد الأعمى. وقد مُنحت بوجومبورا* تصميما فرنسيا لتخطيط وتنظيم المدن، فى حين أنه ليس هناك لا محافظ، ولا مهندس تجهيزات، ولا خبير تنظيم مدن. وخلال الستينات نقلت كوت ديفوار (ساحل العاج) نقلا حرفيا المرسوم الفرنسى الصادر فى ٣١ ديسمبر ١٩٥٨ بشأن خطط تنظيم المدن بكافة الخدمات والمرافق التى كانت ثمرة تاريخ التمدين الفرنسى. وبوسعنا أن نضاعف الأمثلة هكذا حتى فى أدق التفاصيل.

ولاشك فى أن شكل الدولة - الأمة لا يمثل سمة جوهرية للآلة الغربية. وليس للغرب، من حيث هو آلية لا زمانية ولا مكانية، علاقة جوهرية بتنظيم الدولة فى الشكل القومى. ذلك أن الغرب سبق له الوجود، كما رأينا من قبل، فى الشكل الاجتماعى المفكك لعالم مسيحى مصنوع من تشابك يفوق الوصف من الولاءات والهويات. وربما نظم نفسه فى تكنوبول عبر قومى تاركا هوة هائلة مكان ما كان ما هو سياسى.

على أن شكل الدولة - الأمة كان بالنسبة لأوروبا **الحل الوسط** المجتمعى للحداثة. وعاجزا عن إدارة العالم بما هو كذلك وعن السيطرة عليه فى حالته غير المنظمة، ازدهر الغرب تحت شكل قالب للصلة الاجتماعية هو فى آن معا مجرد وواقعى. فالعقد الاجتماعى وحقوق

---

* بوجومبورا: عاصمة بوروندى - المترجم.

الإنسان تخص الإنسان بوجه عام، مواطن العالم، غير أن أوروبا الواقعية وجدت لنفسها هوية خصوصية فى الاستحواذ الخاص على هذا المشروع العالمى: من هنا فيض من التوالد لدول منظمة على نفس النمط تقريبا. ويتجلى تجريد هذا النمط من الروابط الاجتماعية فى صعود وسائط وظيفية: البيروقراطية. والواقع أن البقرطة التى هى نظير التقرطة* technocratisation فى مجال الاقتصاد، والتى تنتهى من خلال التأثير المتبادل والاتحاد الوثيق إلى الاندماج معها، تُسهم فى اجتثاث جذور المجتمعات التقليدية.

وتسهم هذه العمليات الثلاث، التصنيع والتمدين والقومية، فى تشريد بشع للعالم الثالث، وهذه هى الظاهرة الفعلية «للحضارة». ويجرى إنكار قيم ومبررات حياة السكان. كما يجرى قلب أوضاع علاقات البشر بالعالم وعلاقات الأفراد فيما بينهم (وبوجه خاص بين الجنسين)، فهى تغدو بصورة متزايدة مجردة، وبلا جوهر، وميكانيكية، ووظيفية. أما وعد الغرب، الوعد بالثروة والإخاء، فيغدو من الناحية الفعلية: الفقر، واجتثاث الجذور، والإقصاء - وليس هذا بصفة انتقالية، بل بصفة نهائية تزداد تأكيدا على الدوام.

التغريب والتحديث والتنمية

والحقيقة أن استبطان نظرة الآخر يولّد فى المجتمعات غير الغربية ضرورة وضع استراتيجية للتنمية. والمسألة على نحو ما مسألة تغريب مخطط. فقد بدأ هذا المشروع قبل أن تصبح نفس كلمة التنمية هى الموضة بكثير. وهو يعود إلى الأيام الأولى لأيديولوجية التقدم والتنوير. وهو يسمى أيضا **التحديث**.

ونحن نعلم أن الحداثة مشروع شامل يفسح للاقتصاد مجالا واسعا، فى حين أن التنمية ليست فقط سياسة اقتصادية بل هى أيضا إصلاح للمجتمع بأسره. والتقدم ماثل فى صميم كافة هذه المشروعات المتماثلة. وينتمى الهدف بصورة خالصة إلى التقليد الأعمى. ولهذا لا يتم إدراكه أبدا. ذلك أن البلدان المتطورة ذاتها مصابة بهاجس التحديث. وكأثر من آثار **التغذية الاسترجاعية** Feed - back فإن سباق التنمية بين بلدان العالم الثالث يعزز من جديد السعى الإلزامى وراء لحاق مستحيل (بالغرب) فى سياق **محاكاة** معممة.

ومنذ طرح الغرب **التقدم** كحجر زاوية للحداثة، وجدت البلدان **الضحايا** لوجوده وقبل كل شىء تلك البلدان ذات **الجوار القريب** نفسها مصابة بمرض **التأخر** العضال. وهكذا كان

---

* التقرطة من التكنوقراطية كالبقرطة من البيروقراطية والمقرطة من الديمقراطية - المترجم.

منها وطن التخلف رقم واحد، روسيا. ومنذ بطرس الأكبر، إن لم يكن إيفان الرابع الرهيب، يستحوذ على النخبة الروسية هاجس اختلافها عن الغرب الغربى وتعمل جاهدة على القضاء عليه بكافة الوسائل. وكما هو الحال فى «حركة عبادة الشحنة»*، تقوم **المحاكاة** قبل كل شيء على السمات الخارجية للحداثة. ويقول بطرس الأكبر: لنحلقْ لحانا ولنقصر ملابسنا وسنصبح أقوياء وأغنياء كالأوروبيين. وحيث أنه محكوم علينا بدون ذلك بالهلاك، فإن من لا يخضع للفرمان القيصرى سيكون عقابه الموت. وسيقول ستالين: لنَبْن الجرارات وسنلحق بالانجليز والأمريكان، وإلا سنُهزم. ونحن لا نريد ذلك. أيضا، من لا يخضع للفرمان القيصرى سيكون عقابه الموت.

وماذا يكون مشروع خروشوف، ومشروع جورباتشوف، إن لم يكن مشروع مواصلة برنامج تحديث الاتحاد السوفييتى؟

هنا أصبح اجتثاث الجذور مخططا، ومحو الثقافة مبرمجا جنبا إلى جنب مع الخطط الخمسية. وهنا لم يستعمر الغرب، ولم ينهب، ولم يدمر المعتقدات، العادات، الأعراف، الإبداعات. لا أهمية لذلك! سيكون السوفييت الفاتحين الأسبان الخاصين بأنفسهم. فالكنائس والأديرة ستدك، والقرى ستحرق، والسكان سينفون، والفلاحون، أى الشعب، سيبادون، وسيحل محلهم بشر جدد بلا جذور، بلا علاقات بالتربة، بالمشهد، بالطبيعة، بالبيئة. إن نهاية الموطن التى حققتها الجمهورية الثالثة فى فرنسا بأناة وبلطف، سيجرى الاندفاع فيها بضراوة لم يسبق لها نظير.

وهذا الإرهاب الغبى يذهل الغرب ذاته لأنه تم بلا روية وبلا تمييز. فقد دمر شاوشيسكو أقدم كنائس بوخارست وأحل محل جمال ومفاتن المعالم القديمة التى تعرف فيها شعب على نفسه، حياد طرق المواصلات المبنية بالخرسانة، والرديئة البناء فوق ذلك، والمحكوم عليها بالخراب العاجل. وفى الوقت الذى نكتب فيه، يستعد شاوشيسكو لدك عشرات الآلاف من قرى ترانسلفانيا، أمام ذهول حتى البلدان «الشقيقة» العاجزة[١٦].

ومصابة بالعدوى بحكم الجوار، كانت الامبراطورية العثمانية بدورها مصابة بهاجس **التأخر**. ومنذ القرن الثامن عشر شرع السلاطنة المؤمنون بالتقدم فى تحديث تركيا. وواصل

* حركة عبادة الشحنة Cargo - cult: حركة دينية سياسية بين السكان الوطنيين لمجتمعات عديدة فى جزر المحيط الهادى تتميز بالانتظار الخلاصى لعودة أسلافهم فى سفن أو طائرات تحمل شحنات من منتجات الحضارة الحديثة تكفى لإشباع حاجاتهم وتجعل العمل غير ضرورى وتحررهم من سيطرة الرجل الأبيض – المترجم.

كمال أتاتورك بنفس حمية بطرس الأكبر تغريبا متسارعا. وكان برنامج محو الثقافة جذريا. فقد مات كل شىء هناك، الكتابة، الموسيقى، اللّحَى، غطاء الرأس، الملابس[١٧].

وهذا الإرهاب الفظ الذى مورس على سكان على يد نخبهم ذاتها محكوم عليه بمأزق مأسوى. فهناك الواجب المزدوج («الارتباط المزدوج» double bind الشهير لمدرسة بالو ألتو Palo Alto)، وهو واجب إلزامى مزدوج مستحيل فى هذا البرنامج. ينبغى تحديث النفس من أجل البقاء، لكن ينبغى تدمير النفس من أجل تحديث النفس. وهذا المسخ الذى تقتضيه الكينونة يؤدى إلى فصام جماعى حقيقى.

ونلتقى بهذا الأخير فى كافة بلدان العالم الثالث، وبوجه أخص فى المجتمعات التى ناضلت ضد السلطة الاستعمارية دفاعا عن حقها فى الوجود والتى تستخدم الترتيبات العسكرية فى نضالها من أجل هويتها لتنتهى إلى تدمير هذه الهوية، باسم معركة الإنتاج.

ومن الجلى تماما أن غير الغربيين الذين كانوا عقلاء بما يكفى ليستطيعوا ويعرفوا كيف يظلون أنفسهم هم وحدهم الذين نجحوا فى أن يواجهوا مواجهة مظفرة تحدى التحديث. وهذه الطريقة فى اقتحام العقبة لا تدمرها، لكن ذلك يحافظ مؤقتا على الذات.

والواقع أن بلدان الغرب ليست مستثناة بدورها من هاجس التأخر. وفى سباق بلا هدف، أو يتجدّد هدفه أولاً بأول مع كل نجاح، لا أحد يصل أبدا إلى غاية مسعاه. وحيث أن المحن عديدة فوق ذلك، فلا أحد يظل فى الصدارة كليا. ولابد أن تفرض عليه هشاشة انتصاره أن يوطد سبقه. وحتى فى القرن الثامن عشر، كان يستحوذ على فرنسا هاجس تأخرها فى مواجهة إنجلترا. وكانت هذه الأخيرة كذلك فى القرن السابع عشر بالنسبة إلى هولندا. وستكون ألمانيا كذلك فى القرن التاسع عشر، والعالم بأسره فى القرن العشرين. والتخلف ماثل فى كل مكان كواقع أو خطر. ولابد لكل أمة، كل مشروع، كل إقليم، كل بلدة، كل فرد - لابد لكل أن يقاتل، أن يعبىء طاقاته، أن يستثمر مدخراته، أن يحسب خياراته، أن يزن بدقة احتمالات مجازفاته، أن يركز جهوده للمحافظة على مواقعه، أن يفكر مليا فى انحرافاته، أن يتدارك تأخره أو ببساطة أكثر أن يكبح جماح تدهوره. ذلك أن المسألة لم تعد مسألة طموح إلى الفرحة الساذجة والهنيئة لانتصار. فالاستمتاع يعنى التوقف، والاستراحة تعنى التخلى عن النضال وإدانة النفس سلفا. وهذه الضرورة العديمة الرحمة لا تؤدى إلا إلى البقاء (والمتعة العابرة بالنضال من أجل الأمزجة العدوانية).

والمحاكاة هى القانون الوحيد. وينبع القلق من واقع أنه لم يعد هناك لا نموذج ولا غاية للسباق. ماذا ننتج، ماذا نخترع، ماذا نستهلك، ماذا نعتقد؟ شىء كالأشياء الأخرى تماما،

لكن أكثر وأفضل وأرخص. وهكذا لا يمكن للزعيم أن يتخلص من الإغراء الذى يغذيه لدى منافسيه. ألعاب ساحرة؟ كما يمكن أن يسحر العبث، والعدم، والموت. غير أن هذه اللعبة المرضيّة تتناقض تماما مع الإنسانية المتآخية التى يبشر بها الغرب ضمن عالميته الإنسانوية. فالصحو الوحيد الذى تقدمه بعيد عن البراءة السعيدة للعصر الذهبى، إنه اللذة المنحرفة للسادى - المازوخى. والعالمية الوحيدة التى تقدمها هى عالمية المقابر. فلا عجب إذا كان كثيرون قد وجدوا فيها رائحة الموت!

***

سبق أن رأينا ما يشكل، فى رأينا، خصوصية الغرب. وها نحن نرى نتائج سير عمله الفعلى فى سياق عملية تغريب العالم وبأية وسائل يتحقق هذا «الاجتثاث للجذور» على مستوى الكرة الأرضية. وقبل أن نرى حدود هذه العملية، ربما لا يكون من غير المجدى أن نشدد على خصوصية العلاقة بين الثقافات والتى خلقها التغريب بالقياس إلى الأشكال السابقة «للسيطرة» الثقافية. وإذا كانت الامبريالية الغربية ليست الوحيدة ولا الأكثر وحشية بين امبرياليات التاريخ، فإن «الغزو الثقافى» الغربى ليس حالة فريدة للتأثير غير المتناظر فيما بين الثقافات: هناك أمثلة تاريخية عديدة، مع أو بدون السيطرة السياسية، وحتى مع السيطرة السياسية فى الاتجاه العكسى. ونحن نعرف المثال الكلاسيكى لليونان المهزومة التى فرضت ثقافتها على قاهرتها، روما، التى نشرت الثقافة الإغريقية - اللاتينية فى العالم المعروف، وبوجه خاص فى بلاد الغال. وهناك حالة إغواء اليابان من جانب الثقافة الصينية، وحالة فرض الثقافة العربية الإسلامية حتى فى مصر، وحالات أخرى كثيرة. وفى كافة هذه الحالات، هناك جرعة قوية من محو الثقافة، بالمعنى الذى قدمناه لهذه العبارة، بالنسبة للضحايا (بالاغتصاب أو بالإغواء). ويتمثل الطابع الفريد للتغريب فى خصوصية الغرب بوصفه ثقافة - معاداة ثقافة. وفى كافة الحالات السابقة فإن محو الثقافة يواكبه تثاقف ناجح. كما أن فقدان الثقافة الأصلية يوازنه اكتساب الثقافة الجديدة. وليس هناك، فى أية لحظة، فقدان للهوية الثقافية. وهذه الأخيرة تتحول وتتغير. وربما كانت هناك أزمة انتقالية وفترة من القلق، لكننا لا نلتقى بهذا الفراغ، هذا الفقدان للمعنى، وهو منبع البؤس الوحيد الذى لا يغتفر حقا. ومن المفارقات أن الغرب هو فى آن معا «الثقافة» الوحيدة التى تصبح عالمية حقا، بقوة وعمق وسرعة لم يسبق لها نظير، وفى الوقت ذاته «الثقافة» السائدة الوحيدة التى تخفق فى أن تستوعب حقا ليس فقط الدخلاء، بل حتى أعضاءها أنفسهم. وقد أصبح السبب وراء هذه المفارقة مألوفا لنا الآن. إن عالميته سلبية. ويتمثل نجاحه المذهل فى الانفلات القائم على التقليد الأعمى لأنماط وممارسات ماحية للثقافة. وهو يعمم عالميا فقدان المعنى ومجتمع الخواء.

٤ - حدود تغريب العالم

«شهدنا فى الآونة الأخيرة إبرام عقد اجتماعى بين أشخاص اعتبارية تجد نفسها فى حالة الفطرة - حرب الكل ضد الكل. هذه الأشخاص الاعتبارية هى دول العالم وهذا العقد هو عصبة الأمم. وقد تفسخت هذه الهيئة المصطنعة لأنها لم تجد نفسها هناك مركز سلطة يعززها حق أعلى لا تتعارض معه حقوق الأطراف».

برتران دوجوفينيل[1]

وبالأحرى فإن تمزقات العالم المعاصر تصدمنا لأن الخطة الخاصة بوحدة **جوهرية** للإنسانية أصبحت محفورة فى خيالنا أكثر من أى وقت مضى. ويتعزز الاقتناع بهذه الوحدة بالوجود المتزايد الجلاء لنموذج ثقافى عبر قومى ينمط الحياة بكافة جوانبها على مستوى الكرة الأرضية. ورغم أن حدود هذه الوحدة ليست أقل جلاء فإنها ستتوقف إما على سطحية البعد الثقافى أو على غياب الحفر فى العمق للنموذج الغربى أو أيضا على إخفاق تغريب مستوى المعيشة وعلى مقاومات المجتمعات المحيطية رغم أنها غدت ممحوّة الثقافة إلى حد بعيد.

والواقع أن هذا التعدّد فى فهم أسباب تنوع وانقسام العالم يتوقف على الإبهام الدلالى الجوهرى والمعضل للفظة Culture فى الغرب. ذلك أن التغريب هو **قبل كل شىء** إخراج اقتصادى عالمى ضخم، حتى إذا كانت النتيجة الأشد مدعاة للذهول هى تنميط الأساليب والنماذج أكثر من الظفر بوسائل حقيقية للتلاؤم معها. وندرك بالتالى **التعقيد** الاستثنائى للرهانات الثقافية.

وإذا كان تغريب العالم بسبيله إلى الإخفاق، فليس ذلك لأن محطات البثّ الإعلامية ليست قوية بما فيه الكفاية، بل ببساطة، من جهة، لأن «أساس الثقافة»، أىْ الاقتصاد، لا يُواكب، ومن جهة أخرى، لأن «النظام المجتمعى» الذى ينهض بالمشروع بسبيله إلى التفسُّخ. والواقع أن التنمية ليست نموذجا قابلا للتعميم؛ ذلك أن الأمر يتعلق بالأحرى بأداة سيطرة على العالم تُنمّى ديناميته المعقدة دوما، أو تعيد خلق، تمزقات فى «البنية التحتية»، بقدر ما لا تستمد هذه الأخيرة معناها إلا من النظام المذهل للسلطة الذى يرافقها. والحقيقة أن أزمة التنمية هى بالضرورة أزمة ثقافية. ويستدير المحبطون، الذين سُرقت منهم الأسطورة، إلى الأشكال العدوانية للإثبات الثقافى، بعد إعادة تشكيلها بوصفها معادية للغرب.

وتمضى هذه المساعى وراء الأصالة الثقافية من المساخر الأيديولوجية لزائير إلى الانتحار -

الإثنىّ المأسوى لكامبوتشيا.

ويبدو أن نجاح اليابان الذى لا جدال فيه، بالأمس، والنجاح الأكثر إشكالية لعدد من البلدان الصناعية الجديدة NPI، اليوم، شاهدان إما على تغريب ناجح، أو على إنقاذ للهوية الثقافية، وعلى الأمرين معا فى نهاية المطاف... والحقيقة أن هذه التجارب استثناءات سعيدة تُثبت القاعدة لسوء الحظ. فهى مرتبطة بسياق جغرافى - اجتماعى - تاريخى خصوصى حقا. وربما كانت تثبت أن الحفاظ على الذات هو فى كل الأحوال الشرط الضرورى لنجاح «التحول الصناعى». ذلك أن **إضفاء طابع النمو الداخلى** endogénéisation على الابتكار التقنى وعلى الاستهلاك، فى ارتباطه بتثاقف إيجابى، هو أساس نجاح يظل عدوانيا وغازيا، وبذلك بالذات استثنائيا. إن تعميم موقف الهيمنة لا يمكن أن يؤدى إلى نظام بل يؤدى بالفعل إلى فوضى: **حالة حرب الكل ضد الكل**. والحقيقة أن تحويل العدوان المعمَّم إلى منافسة سلمية مربحة للجميع، وفقا للأسطورة الليبرالية الكبرى، يفترض أن فرضية انسجام المصالح تم إثباتها، وليس هذا هو الحال، كما يفترض أن السعى وراء الثروة هو غاية فى ذاتها بلا علاقة بإرادة القوة والصراع فى سبيل السلطة، الأمر الذى تكذّبه الملاحظة المباشرة.

إن إخفاق سياسات الأصالة والعودة إلى المنابع الثقافية لا ينبغى أن يثير الأوهام حول الإخفاق المحتمل للتغريب ولا أن يموّه، على أى حال، حدود هذه العملية.

والواقع أن هذه الحدود (أو هذا الاخفاق) مزدوجة؛ فهى تتوقف جزئيا على تناقضات المشروع الغربى ذاتها وتجد مصدرها فى داخله. وهى تتوقف، من جهة أخرى، على تفسّخ شكل العلاقة المجتمعية الذى ازدهرت الحداثة فى سياقه: الدولة - الأمة. ويتجلى المظهر الأول لإخفاق التغريب فى سقوط التنمية الاقتصادية فى العالم الثالث. والواقع أن التنمية الاقتصادية تشكل أساس مشروع الحداثة، وهى تدمج التصور الخلاق والبروميثى للغرب مع أساطيره عن التقدم والعلم والتقنية. ويتجلى المظهر الثانى لإخفاق التغريب من خلال اختفاء مكان اجتماعى يمكن أن تتشبث به عملية التغريب.

أولا: إخفاق التنمية

حينما دعا أحمد الذهبى، سلطان مراكش، الفخور تماما بقصره الجديد، المكسوّ بالمرمر والمموّه بالذهب، والملقّب **بالبديع**، مهرّجه إلى زيارته وسأل هذا الأخير عن رأيه فيه، سمعه يجيب: «عندما سيتم تدميره، سيصنع كومة ضخمة من التراب». بعد ذلك بأقل من قرن، حلّ

العلويون محلّ الأسرة السعدية المالكة، وحقق مولاى إسماعيل النبوءة...

ولو احتفظ أمراء هذا العالم بروح الفكاهة بما فيه الكفاية لامتلاك مهرجين، لأمكن لهؤلاء الأخيرين أن يستهويهم أن يقولوا أمام مشهد تصنيع العالم الحديث: «هذا سيصنع كومة ضخمة من الخردة».

ليس التغريب، من زاوية ما، سوى «التهيئة» الثقافية للتصنيع، غير أن تغريب العالم الثالث هو قبل كل شيء محو ثقافة، أيُ تدمير بحت للهياكل الاقتصادية والاجتماعية والعقلية التقليدية لكى لا يحل محلها فى نهاية المطاف سوى كومة ضخمة من الخردة مصيرها الصدأ. ويقود المأزق الصناعى مباشرة إلى المأزق المجتمعى. ولن يصنع الإخفاقان فوق ذلك سوى إخفاق واحد: رفض نقل وزرع «التغريب».

وتسمح لنا التجربة بأن نسجل أن التصنيع، مهما كانت أحكام القيمة التى يمكننا، فضلا عن ذلك، أن نصدرها عليه، له دور تدميرى بصورة استثنائية إزاء المجتمع التقليدى والروابط الاجتماعية التقليدية. والحد الأدنى من إثبات الحالة الذى يمكن أن يحقق إجماعا هو أن التصنيع يقلب أوضاع أساليب الحياة وطرق التفكير.

وانطلاقاً من هذا، سيتوقف الحكم الذى يصدره المرء على التصنيع على خيارات نظرية وفلسفية متبنّاة. وإذا كان المرء يعتقد أن التصنيع ليس سوى انسجام التقدم التقنى، وأن هذا الأخير ليس سوى وسيلة لرفع إنتاجية عمل الإنسان، تكون التنمية، فى صورة التصنيع الواسع النطاق، «نقطة المرور الإلزامية»[٢] لكل مجتمع راغب فى تحسين مصير أعضائه. وسوف تتفوق الجوانب الإيجابية لهذه التنمية - التصنيع **بالضرورة** على الجوانب السلبية. أما الشرور التى يشتكى منها بعضهم لمحو محتوم للثقافة فستجرى موازنتها إلى حد كبير بالمزايا المادية للتنمية الاقتصادية. ويبدو بالفعل أن الجزائر الرسمية، على سبيل المثال، حسمت بوضوح «الخيار الصناعى». ويجرى تعريف التصنيع فى كتيب لوزارة الإعلام بأنه «مجموع من التقنيات الحديثة يستخدم آلات بما يؤدى إلى إتاحة زيادة الإنتاج وخفض التكلفة البشرية». ومن جهة أخرى، وفقا لنفس الكتيب: «يمكننا القول أن التصنيع هو الشرط الذى **لا غنى عنه** للتنمية»[٣]. والخيارات الضمنية المفترضة مسبقا لهذين النصّيْن جلية. فالتقنية يجرى طرحها كمجرد وسيلة محايدة مندرجة فى الطاقات الكامنة للمعطى الطبيعى للإنسان وتسمح بسيطرة متزايدة على الطبيعة. وتقود الطبيعية والعالمية المفترضتان للتقنية التخلّف إلى الرفض المنحرف لاستخدام الوسائل المتاحة للخروج منه، فى سياق تطورى للغاية.

ومن الجلى بما فيه الكفاية، مهما كانت الشكوك التى قد تساورنا فيما يتعلق بمشروعية

مثل هذا الموقف، وهى شكوك تعززها حدود ومآزق وإخفاقات «الاستراتيجية الصناعية»، أن من المستحيل زعزعته على نحو جدى إذا نحن لم نقم بإعادة النظر فى الفرضيات التى يرتكز عليها.

والواقع أن «الخيار الصناعى» لا يرتكز فقط على الرغبة فى بناء المصنع وتشغيله، بل كذلك على الأمل الذى سيثيره بوصفه بيتاً للثقافة! ذلك أن محو الثقافة المحتوم، وحتى الضرورى، والناشىء عن تحولات اقتصادية لن يخلّف وراءه صحراء، أو بالأحرى فإن هذه الأخيرة سيجرى تخصيبها فى الحال. ويغدو التثاقف هو هذا الوصول إلى ثقافة جديدة، ثقافة للتصنيع والتقنية والتنمية، وباختصار ثقافة من نفس النمط الذى يسود فى الأماكن الأخرى التى انتصر فيها التصنيع والتنمية. ونحن نقصد كسب رهان نجاح لتغريب المجتمع. والواقع أنه مهما كانت أهمية السمات الخصوصية الموروثة من الماضى والتى تكون هناك رغبة فى المحافظة عليها، فإن ذلك هو المقصود بالفعل، حتى إذا كانت الوسائل المستخدمة اليوم تختلف عن تلك التى استخدمها من قبل بطرس الأكبر أو كمال أتاتورك.

ويرتكز هذا الرهان، كما ندرك، على فكرة أن الغرب هو ثقافة شبيهة بالثقافات الأخرى، وربما كانت متفوقة لكنها من نفس الطبيعة. وقد رأينا ما كان ينبغى التفكير فيه بشأنها.

والحقيقة أن ما هو مطروح على سكان العالم الثالث عند إحلال هويتهم الثقافية المفقودة يتمثل فى هوية قومية مجردة وانتماء زائف إلى جماعة عالمية. وهذه الهوية القومية مجردة نظريا وعمليا. نظريا، لأن الأمة لا معنى لها ضمن جماعة عالمية، وعمليا، لأن الأمم التى خلقها الغرب لا تنسجم مع أىّ نُضج محلى. كما أن هذا الانتماء زائف لأن مكانة الإنسان، المختزلة على نحو ساخر إلى تجريد، مفرّغة من كل محتوى بحكم التمايز الوحيد المحافظ عليه والمستحدث والمتفاقم، تمايز مقدار الثروات المتاحة. فلا مُواطن فى العالم مستقل تماما، لأن حق الاقتراع خاص بدافعى الضرائب، ولا عضو عشيرة أو جماعة إثنية، حيث أن كل ذلك تم تدميره، ولا مُواطن أصيل لأية دولة أصيلة، لأن السياسة «القوموية» للدول، الناشئة بصورة مفتعلة عن تصفية الاستعمار ليس لها أصل آخر تقدمه سوى تقليد أعمى معمَّم، والواقع أن الإنسان «المُغرَّب» للعالم الثالث ليس سوى متشرّد.

ويغدو إنسان «الجنوب» مُغرَّباً بحكم تطلّعاته وإحالاته الخيالية وكثافة ضغط المدينة وأنماط استهلاك المركز على حياته اليومية. وهو يغدو متشردا بحكم واقعه الفعلى والاجتثاث العميق لجذوره والمستوى البائس لمعيشته فى مدينة الصفيح. وإذا كان التصنيع يفشل فى تغريب الكمّ المستهلك، فإنه ينجح فى تمدين المجتمع الزائف وطبعه بطابع القطاع الثالث (قطاع

الخدمات) وبقرطته. والواقع أن التغريب الحقيقى للنُّخب، أىْ إدماجهم فى «الثقافة» العالمية المطبوعة بطابع الإبادة الإثنية، ينجح بطريقة ما (وفى أكثر الأحيان بطريقة كاريكاتورية) لقاء تهميش السكان.

والحقيقة أن التصنيع المحموم والمصطنع محكوم عليه فى أغلب الأحيان بالإخفاق على الأقل فى أن يتجسد فى مشروعات غربية المركز Occidentalo - centrés يُعدّ نجاحها ذاته الدليل على إخفاق أعمق. وبوسع المرء أن يناقش نجاح هذه التجربة المنعزلة أو تلك؛ كما أن نفس واقع أنها تظهر بمظهر معجزة يؤكد الطابع السافر للإخفاق الذريع للقضاء على التخلف بما هو واقع سائد على مستوى الكرة الأرضية.

وإذا كان من الجائز أن نفكر فى علاج الداء بالداء وتدارك نواقص التصنيع والتنمية بالمزيد من التصنيع والمزيد من التنمية، فمن الصعب أن نطعن فى تشخيص إخفاق التغريب.

وليس المقصود إعادة النظر فى الحساب الختامى لإخفاقات التنمية المفهومة على أنها تقنية، بل إنعام التفكير فى الطابع الضرورى لهذه الإخفاقات. وهناك كتابات بالغة الغزارة تتيح اكتشاف ورفض مآزق هذا «العلاج» أو ذاك. والحقيقة أن الخبراء الذين قضوا حياتهم عند سرير المريض يغدون ميالين إلى الاكتئاب فى شيخوختهم ويتمسكون بموقفهم المتشكك(٤). ويشىء من الدعابة. يستدعى محمود الحقّ، الذى كان خبير تخطيط فى الباكستان، النهج المعتاد للتقنية المعجزة للتنمية:

«١٩٤٨ - ١٩٥٥: التصنيع بإحلال الواردات هو مفتاح التنمية.

«١٩٦٠ - ١٩٦٥: إحلال الواردات خطأ؛ تنمية الصادرات هى الحل الوحيد.

«١٩٦٦ - ١٩٦٧: التصنيع وَهْم؛ النمو السريع للزراعة وحده يقدّم الردّ على التخلّف.

«١٩٦٧ - ١٩٦٨: لتفادى أن يكتسحنا الفائض السكانى ينبغى منح الأولوية لضبط النمو السكانى.

«١٩٧١- ١٩٧٥: فى الواقع، ليس للجماهير ما تستفيده من التنمية. لهذا ينبغى أن ننبذ نمو الناتج القومى الإجمالى وأن نضع فى الصدارة ضرورة إعادة التوزيع»(٥).

والقائمة بعيدة عن أن تكون كاملة... فهناك الأمل المعقود على الصناعات التصنيعية، عودة العمل بعلاجات ليبرالية محدثة، السعى وراء مزايا نسبية ديناميكية، بناء نسيج صناعى من المشاريع الصغيرة، الخ. وفى نهاية رحلته بين الإخفاقات والمآزق، يلوذ المتخصص المتحرّر من الأوهام بتجريبية وبراجماتية متواضعة(٦). ويظل عجز التقنية محجوبا بالعجز عن الخروج منه. وبدون إعادة النظر فى التنمية يبدو من المستحيل تقريبا الإفلات من شمولية التقنية.

وبعد أن اختزل الفكر السائد العلاقات بين الثقافات إلى مجرد البعد الاقتصادى لنتائجها فإنه يعتبر، على نحو طبيعى تماما، أن حل مشكلة العالم الثالث، التى تم تعميدها باسم «التخلف»، مسألة تقنية تُحَلّ بوسائل تقنية. وهكذا ينبغى اضطلاع النماذج والخبراء بالمسألة، وذلك بطريقة نهائية، والواقع أن كل إخفاق سيكون عرضة لأن يعالج على أنه مشكلة تقنية جديدة، الأمر الذى سيكون مصدرا لاختراقات تقنية جديدة. وبعد أن كان متمردا فى بداية الأمر على هذا الاختزال، انتهى الفكر الماركسى إلى الخضوع له. وعلى أساس تحليل التخلف على أنه ثمرة التناقضات الاجتماعية السياسية على المستوى العالمى، حلم هذا الفكر بالعلاج الناجح الذى تمثله الثورة. وبعد أن عُهد بالاستراتيجية الثورية إلى متخصصين محترفين وأضحت مسألة تقنية، انتهت إلى الانحطاط إلى مكيدة اقتصادية؛ وبدا أن جرعة علمية من التأميم والتصنيع المخطط هى الترياق الشافى للعالم الثالث. والواقع أن إخفاق الحلول الليبرالية والماركسية، بعيدا عن إعادة بحث تشخيص المرض، يعزّز اضطلاع المعامل بالمشكلة. كما أن الطابع الضرورى لهذه الإخفاقات هو النتيجة المنطقية لمأزق المدخل التقنى.

وفيما يتعلق ببلد معلوم كحالة فردية فإن تحقيق «فكّ ارتباط» اقتصادى وحتى لحاق (بالغرب)، مهما كانا صعبيْن، ليسا مستحيلين تماما. ويفترض ذلك شرطين: خلق إطار للقيم تكتسب التقنية ضمنه معناها، وكسر غياب الدينامية الذاتية.

فلنتذكرْ أن الاحتكاك الثقافى الذى أحدثه الاقتصاد - العالم الرأسمالى يدمر على أوسع نطاق هياكل ومؤسسات العالم الثالث. على أن المخلّفات الثقافية تبقى كما هى وتتماسك وتقاوم، فى حين أن الشروط الاجتماعية والسيكولوجية لعمل التراكم الرأسمالى تغدو بعيدة عن أن تكون متحققة.

ويمكن النضال ضد هذه المخلفات بسياسة ملائمة، بتنمية الاندماج الاقتصادى فى السوق العالمى، بتدمير المعاقل الأخيرة للنظام القديم عن طريق تشريع ملائم. وسيكون أصعب بكثير الحصول عن طريق مرسوم على الحد الأدنى من الإجماع الاجتماعى حول القيم الليبرالية... ولاشك فى أن المجتمعات التى شهدت تقليديا تنمية ذات بال للعلاقات السلعية تملك وحدها فرصة ما لبلوغ ذلك. وينتشر التغريب فى العالم الثالث بخطى واسعة، وهذا التغريب السلبى ليس سوى نتيجة محو الثقافة. أما التغريب الضرورى للتنمية، ذلك الذى تحقق فى اليابان، أىْ التغريب الإيجابى، فيفترض تثاقفا مشكوكا فيه أكثر بكثير.

ويمكن لسياسة تدخُّل واسع النطاق للدولة من أجل حفز الاستثمار واللجوء إلى استراتيجية لغزو الأسواق (وربما سياسة دولة عظمى)، وفقا للمثال اليابانى أمس، وربما مثال

البلدان الصناعية الجديدة اليوم (تلك التى تدور فى الفلك اليابانى فى جنوب شرقى آسيا أو تلك التى تدور فى الفلك الأمريكى: المكسيك، البرازيل)، أن تنقل بلداً من مرحلة ضحية الإمبريالية إلى مرحلة إمبريالية صغرى.

على أن «وَصْفَة» كهذه يمكن أن تصطدم بالتاريخ كما فى حالة إيران التى سيكون من الممكن دائما القول فيما يتعلق بها أن ذلك كان سينجح.. لو أن ذلك لم ينفجر مبكرا جدا...

ومهما يكن من شىء فنحن بعيدون عن «العفوية» فوق الليبرالية. وبوجه خاص فإن هذا الحل ليس قابلا للتعميم. والحقيقة أن إخفاقات هذا العلاج التى يمكننا أن نحصيها، هنا أو هناك، لا تتوقف كثيرا على نواقص تقنية، كما يمكن أن يقول خبراء صندوق النقد الدولى، وهم اختصاصيون فى هذه المسألة، بل تتوقف بكل بساطة على لاواقعيته التاريخية بالإضافة إلى استحالته الكلية.

والحقيقة أن التجربة التاريخية للتنمية المخططة ذاتية المركز autocentré تمثل طريقة لا سبيل إلى إنكارها فى التغلّب على غياب دينامية رأسمالية السوق. وهكذا يبدو أنها تمثل نموذجا. وبالإضافة إلى ذلك فإن تعميم مثل هذا المجتمع من شأنه أن يجعل عمل الرأسمالية الليبرالية مستحيلا نظريا بحكم توقف النمو. وتسمح التنمية المخططة من النمط السوفييتى بمواصلة للتراكم لا حاجة بها إلى حفز الاستثمار من الخارج. ولأن «الآلة الاقتصادية» ليست مستقلة بل هى مرتكزة فى اتحاد وثيق على الجهاز السياسى، فإن وجود العلاقات الاقتصادية غير المتماثلة (والتاريخية بهذا المعنى) لا يبدو ضروريا لإعادة إنتاج الرأسمال التى تسيطر عليها البيروقراطية.

وهذا ما تؤكده الملاحظة التالية لاقتصادى مجرىّ، حسن الاطلاع: «ليس للدولة ذات النمط السوفييتى ما تخشاه من هبوط فى الميل إلى الاستثمار فى حالة وقوع اضطرابات متكررة أكثر مما ينبغى فى نظام الأسعار أو فى حالة إعادة توزيع أضخم مما ينبغى للفائض لصالح مشروعات خاسرة. ولأنها المستثمر الرئيسى فهى قادرة دائما على طرح مشاريع ضخمة لسدّ ثغرة محتملة بين الاستثمارات الضرورية والفعلية. غير أن هذه الحالة افتراضية كليا لأن المشكلة، فى اقتصاد من النمط السوفييتى، لا تكمن أبدا فى نقص الرغبة فى الاستثمار من جانب المشروعات. وحيث أن لهذه المشروعات كافة المبررات للاعتماد على تعويض من الدولة فى حالة عجز خطير فإن نقص الطلب المحتمل لا يثبط همتها»(٧). «ولا تتخذ الأزمة أبدا طابع فيض الإنتاج بل طابع نقص الإنتاج»(٨).

وهذا النموذج يسهل «ترويجه» فى العالم الثالث أكثر من النموذج الليبرالى. فإلى جانب

أنه يستفيد من اللقب الاشتراكى الذى يُبرِّئه من كافة خطايا الرأسمالية والإمبريالية، وهذا ما لا يمكن إهماله كدعاية للترويج، فإنه يستفيد أيضا من تفضيل الطبقات الحاكمة للبيروقراطية، ومن ارتياب المجتمعات التقليدية إزاء الليبرالية الاقتصادية والعلاقات السلعية. على أنه يبدو أن تعميم هذا النموذج، الذى يسلّم حتى بأن اقتصاد القحط يمكن اعتباره «تنمية»، يواجه عددا من القيود. كما أن مشكلة السيطرة التى يمكن النظر إليها على أنها فى قلب جدل التنمية - التخلف لم يعد من الممكن «حلها» عن طريق هذا «الحل التقنى» أكثر من طريق الحل الليبرالى؛ غير أنه بغضّ النظر عن هذه المسألة الجوهرية فإن تحقيق «الاشتراكية الفعلية» المعممة يواجه عقبات.

والواقع أن دينامية الاقتصادات البيروقراطية تبدو مرتبطة بالمنافسة مع العالم الليبرالى. كما أن المجتمعات الاستهلاكية تشكل، فيما يبدو، ليس فقط حافزا، بل كذلك نموذجا لأسلوب الحياة وتشكيلات المنتجات والإجراءات التكنولوجية. وتغدو تنمية الاقتصادات السوفييتية بدورها مطبوعة بطابع «التقليد الأعمى».

يكتب راكوفسكى: «الواقع أن الخيار المتخذ لصالح تقليد للتكنولوجيا الغربية يكلف أقل من ابتكار تقنية بديلة ومستقلة. كما أن توازى التطورَيْن التقنييْن الرأسمالى والسوفييتى لا تفسره هوية البنية التقنية التى ينطوى عليها نموذجانا بمعزل عن أحدهما الآخر بقدر ما يفسره التأخر المطرد للآخر بالنسبة إلى الأول، ويستمر هذا التأخر فى أن يجعل من المحتمل للغاية أن يقوم المتأخر باستعارة الحلول القائمة بالفعل»(٩).

ويصطدم تعميم النموذج البيروقراطى فى شكله الراهن المطبوع بالتقليد الأعمى بنفس الاعتراض الايكولوجى الذى يصطدم به تعميم اقتصاد السوق: لو عاش العالم بأسره فى الزمن الأمريكى (بافتراض أن الزمن الروسى يحلّ محله...)، فإن كافة الاحتياطات المعروفة للكرة الأرضية كان سيتم استنفادها فى غضون أشهر قليلة، وكان العائق الجوى سيمنع كل طائرة عن الإقلاع، وما كان التلوث ليتأخر عن خنقنا(١٠).

وحتى إذا كان الاعتراض الايكولوجى قابلا للجدال، لأن محدودية العالم نسبية دوما، فانه جدير بأن يؤخذ فى الاعتبار لأن التصنيع وفقا للنموذج السوفييتى «مكلف» للغاية من حيث الموارد الطبيعية.

وبافتراض أن ينجح هذا النموذج أو ذاك (الليبرالى أو البيروقراطى) فى القضاء على الأعراض المادية للتخلف وفى تعويض كل أو بعض «تباطؤ» المؤشرات الاقتصادية (وهذا ما لا نعتقده على الإطلاق)، فلن تصبح المشكلة محلولة بذلك. وإذا كانت رؤيتنا اللا اقتصادوية

لعمل النظام العالمى مقبولة، فإن الرهان سيكون فى المقام الأول على السيطرة السياسية والثقافية. ويمكننا أن نتبنى بكل قوة ملاحظة إجناسى زاكس: «دون تحيّز أيديولوجى وبكل موضوعية، يمكننا أن نسجل حقيقة أن الاختلالات المادية والسياسية - الاقتصادية الرئيسية الراهنة لعالمنا ترجع بجانبيها الأكبر إلى استخدام غير مراقب ولا مسئول للقدرات التقنية الضخمة، وإلى إرادة قوة لا محدودة للجماعات ذات الامتيازات والتى تحتكر الموارد، أىْ إلى النظام التقنى - الصناعى والتجارى كما يعمل بوجه خاص فى النظام الرأسمالى»(١١).

والحقيقة أن التحديد الأخير لا مكان له؛ ذلك أن النموذج السوفييتى يمثل شكلا مختلفا للمشروع الغربى أكثر مما يمثل بديلا حقيقيا.

وليست مشكلة التنمية، فى الواقع، مشكلة بلوغ مستوى محدد بعينه مرة وإلى الأبد، بل هى مشكلة الحصول أو الحفاظ على **مكانة** فى عالم مطبوع بالهيراركية يعيش فى حالة من التنافس المتواصل. فلا معنى للتنمية إذن إلا داخل الغرب بقدر ما يعنى «الآلة» بوصفها نواته الصلبة. ولم تصبح التنمية مشكلة عالمية إلا لأنه جرى (وبقدر ما جرى) تغريب العالم. والحقيقة أن بلدان العالم الثالث يمكنها تماما أن تصنّع نفسها (على الأقل إلى درجة معينة)، ويمكنها أن تؤقلم تقنيات عديدة، وحتى شكلا أوّليّاً من **النسق** التقنى. ونحن نعرف منذ الآن بلدانا متخلفة مصنّعة، وحتى بتكنولوجيا راقية. وإذا كنا لا نعرف بلدانا متخلفةً بلا بؤس أو فقر (خارج المؤشرات الإحصائية الرسمية للناتج القومى الإجمالى للفرد التى لا تقدم إلا نظام ترتيب نتيجة المسابقات)، فإن ذلك يرتبط، فى اعتقادنا، بواقع أن البؤس **الفيزيولوجى** فى الخيال الغربى هو **السمة** التى تعبر عن الدونية أفضل تعبير. فالازدهار الكمى لقيمة الحياة يعبر عن نفسه من خلال إخراج نقيضه، الموت البائس (ورفيقيه: الموت الطبيعى والموت العنيف)(١٢). ويمكن للمرء، فيما يقال، أن يموت جوعا بجوار جهاز كمبيوتر. ولا جدال فى ذلك. على أن من المشكوك فيه أن تغذى الحاسبات الإلكترونية الدقيقة العالم؛ وبالمقابل فإن الغرب لم يستطع على الأرجح أن ينتج أجهزة كمبيوتر **إلا** لأنه فى مكان ما مات أناس من الجوع ومن التطلّعات. و«الآلة» لا تعمل إلا تحت الضغط كما أن تهديد البقاء الفيزيولوجى هو أحد نوابضها. ولا تنطوى هذه الضرورة، على العكس من تحليل نظرية العالم الثالث، على شىء «مادى»، إنها «رمزية» تماما.

والحقيقة أن إدراج بلدان الشرق فى **الغرب** مبنىّ على أساس هذه النقطة التى لا سبيل إلى إنكارها. كما أن التطورات الراهنة (**البيريسترويكا** **والجلاسنوست**)تؤكد هذا الموقف. ذلك أن العلاقة الاجتماعية لا يمكن الحفاظ عليها، عندما يجرى إنكار المجتمع المدنى،

أىْ البقايا قبل الرأسمالية، إلا عن طريق الإرهاب بالجملة. وفى العالم الثالث، لا تكفى «الوصفة» الشمولية فى كثير من الأحيان حتى لخلق حدّ أدنى من الرفاهية ولا حتى لمنع الجمهوريات الاشتراكية الأفريقية من الغرق فى الفوضى الدامية وسط البؤس الأكثر فظاعة. ولا تقوم هذه السياسة إلا بتسريع التفكك الذى يتفشى زاحفا فى أماكن أخرى، بما فى ذلك ديمقراطيات البلدان المتطورة، ويقوّض عملية التغريب.

وفى سبيل إنهاء هذا التحليل الجزئى للغاية، نودّ أن نمحّص معادلة «التغريب = التصنيع» وبعض نتائج اختلاف الرؤية الذى قد يكون لدينا لهذه الظاهرة المزدوجة.

والحقيقة أن المساواة فى المنطلق لا تمثل هوية. كما أن التصنيع ليس فى بداية الأمر عملية هدم أبنية كافة مجتمعات العالم الثالث. والواقع أن التصنيع لا يمكن تصوره بدون تغريب تمهيدى. وتفترض ديانة التنمية تحويلا للأرواح تم عن طريق العنف الفظ (الاستعمار فى عدد من الحالات)، وعن طريق العنف الرمزى (الانجذاب فى حالة تركيا أتاتورك)، وعن طريق الاثنين معا (حالة مصر).

ويجد التصنيع، ابن التغريب، مصيره مرتبطا إلى حد بعيد بمصير أبيه. ويؤدى إخفاق التصنيع إلى إخفاق التغريب، لأن المشاركة الفعلية فى «الثقافة الغربية» تفترض رسم دخول يصل إلى ١٠٠٠٠ دولار للفرد. كما أن إخفاق التغريب، بدوره، يعنى إخفاق التصنيع، على الأقل، فى شكله الذاتى الدينامية المنسجم مع نسق تقنى كامل. وهذا الإخفاق ليس ضروريا بصفة مطلقة لكل بلد من بلدان العالم الثالث، مأخوذاً على حدة، بل يبدو لنا ضروريا للمجموع، بالجملة.

وتغدو دلالة نجاح العمليتين غرس دينامية للسيطرة على العالم، أىْ الدخول المظفّر فى سباق على السيطرة. ويتجسد الإخفاق فى دخول النُّخب المنفردة فى حداثة الغرب، فى حين تظل الجماهير مهمّشة.

على أن الحداثة ذاتها بوصفها مشروعا مجتمعيا تعيش فى أزمة. ويعرّض ذلك للخطر بصورة تزداد عمقا نجاح تغريب العالم.

ثانيا: أزمة النظام الغربى

حتى مجنونة أو هاذية، عملت الآلة - التى بدا لنا أنها تشكل جوهر الغرب - فى إطار نظام ما. كما أن هذه الآلة أسهمت، إلى حدّ ما، فى إيجاد هذا النظام؛ لقد ساهمت فى مولده، وإلى حد أبعد أيضا، فى عمله. وبقدر ما سمح النظام بإعادة إنتاج **نسيج اجتماعى** معقد،

كان الغرب إن لم يكن ثقافة فعلى الأقل حضارة، وحضارة غنية للغاية بالغنائم الثقافية التى تباهتْ بها. على أنه فى هذا الشكل للنظام، كان الغرب ولا يزال إلى حد ما «دولة - أمة».

والحقيقة أن هذا الشكل لنظام الدولة - الأمة شكل بالغ المتانة. ونريد بذلك أن نقول أن تشكيل المجتمعات الغربية فى دول - أمم يمثل الأساس الجوهرى للهوية الاجتماعية للأفراد الأعضاء، على المستوى الخيالى على الأقل. ولهذا فإن المجتمعات الغربية هى فى المقام الأول مجتمعات **سياسية**. وما هو سياسى فيها هو الشكل الممتاز للروابط الاجتماعية. وإذا كانت هذه الأخيرة مجردة للغاية، فهذا يعنى أن ما هو سياسى هو بدوره مجرد للغاية من حيث محتواه. وهو يملك بالمقابل قوة، تعود إلى كثافة حضوره فى الخيال، تصنع منه سلطة نعتبرها غير قابلة تقريبا للتدمير لأنها طبيعية وعبر تاريخية. على أن هذه المعتقدات هى ذاتها تاريخية حقا، وتنتمى كملك خاص إلى الغرب. وبتدميرها للعلاقة الاجتماعية، تدمر الآلة هذا النظام وتُعرِّض أساسه للخطر. ولفهم هذا النظام يغدو من الضرورى الدخول بتفصيل أكثر قليلا فى تاريخه، والوقوف على طبيعته المتناقضة وكيف تتطور أزمته.

وحتى فجر **الحداثة**، يظل الغرب فى حالة تشوش هائل فيما يتعلق بالتنظيم المجتمعى. وقد سمى عصر التنوير باسم العصر القوطى فترة «العصور الوسطى المظلمة» تلك التى تغطى عشرة قرون «حالكة». وتمثل هذه الفترة فى كل مكان وحدة ثقافية كبرى لأوروبا، مع العالم المسيحى، ولغة رجال الدين اللاتينية، والشكل المزدوج للبابوية والامبراطورية. على أن ما هو سياسى لا يمثل مبدأ تحقيق الهوية الاجتماعية؛ فهذا الأخير يرتكز على أسس أغنى وأعقد للغاية، كالثقافات الشعبية، وعلى الخيال التوحيدى للدين. وعلى أية حال فمن خلال إعادة اكتشاف أو تجديد الفكر الفلسفى والسياسى للعصور القديمة، يقدّم الإنسانيون إلى البيروقراطيات الملكية، وإلى البرجوازيات الصاعدة التى تساندها، الأدوات الرمزية لنظام سيغدو النظام السياسى **بالمعنى الحقيقى**، وبالإضافة إلى ذلك: المبدأ الوحيد للنظام الاجتماعى، ونعنى نظام الدولة - الأمة.

وسيكون نظام الدولة - الأمة هذا فى نفس الوقت، وفى نفس الحركة، نظام دولة - عالم. ذلك أن الدولة - الأمة هى ذات القانون الدولى؛ إنها السيد. فما من قوة شرعية فوقها، ولا تحتها. كما أن المجتمعات التى لم تتبنَّ شكل الدولة - الأمة لا تتمتع بأى وجود قانونى، وهذه المجتمعات ينبغى اكتشافها وغزوها وتمدينها. ويشكل مجموع الذوات ذات السيادة التى تسيطر على الكرة الأرضية **مجتمع** أمم أو رابطة تعاقدية للدول الأعضاء.

وحتى إذا كان لابد من عدة قرون للانتقال من الوفاق الأوروبى، الذى تجلّى آنذاك فى

معاهدة ويستفاليا (١٦٤٨)، إلى منظمة الأمم المتحدة، فإن أسس هذا النظام قائمة وواضحة تماما منذ البداية. ونحن نجدها مشروحة لدى هيجوجروتيوس Hugo Grotius(١٥٨٣ - ١٦٤٥)، وصامويل بوفندورف Samuel Pufendorf (١٦٣٢ - ١٦٩٤)، ونجدها بلا شك حتى قبل ذلك لدى فرانسيسكو فيتوريا Francisco Vitoria (١٤٨٠ - ١٤٥٦)، وفرانسيسكو سواريس Francisco Suarez (١٥٤٨ - ١٦١٧).

كل هذا معروف تماما؛ وما هو أقل وضوحا هو العلاقة بين نظام الدولة - الأمة هذا، الذى ندرك أنه غربى بعمق، و«الآلة» التى سبق أن حللناها على أنها تقنية - اقتصادية. وإذا كان أساس هذه الصلة لا يزال مطروحا للبحث، فإن هذه الأخيرة ترتدى شكلا مميزا وجوهريا مع القومية الاقتصادية.

مفهوم القومية الاقتصادية

منذ ظهور الدولة - الأمة، كان من الواضح أن لها علاقة ما بالاقتصاد. وكان المركنتيليون فى آن معا المنظِّرين الأوائل لاقتصاد سياسى و«المناصرين» للدولة الحديثة. على أن الأمر كان يتعلق بالمناداة بسياسات اقتصادية قومية (الحمائية، الكولبيرتية، الميثاق الكولونيالى...) وليس بتطوير تحليل حقيقى للتماسك الاقتصادى للدولة - الأمة. وكما كان الحال مع الليبراليين، انتهى الأمر بالاقتصاديين إلى حد إنكار صلة الدولة - الأمة بالموضوع. ولنتذكَّرْ كلمة تورجو الشهيرة: «إن مَنْ لا ينسى أن هناك دُولا سياسية منفصلةً عن بعضها ومنظمةً تنظيما متباينا لن يُوفَّق أبدا فى معالجة أية مسألة من مسائل الاقتصاد السياسى»(١٣). وحتى إذا فرضت الدولة - الأمة واقعها على الاقتصاديين، بحكم قوة الأشياء، فإن الصلة بين عمل العلاقة الاجتماعية والآليات الاقتصادية تظل خارج مجال تأمل علماء السياسة والاقتصاديين.

والواقع أن الانبثاق المعاصر لدول - أمم، بدون أساس اقتصادى، مع مهزلة تصفية الاستعمار، خلق شعورا بوجود **بالتضادّ** a contrario لعلاقة وثيقة للغاية بين الدولة - الأمة والاقتصاد والتنمية.

و«السيادة الاقتصادية»، وهى المطمح الرئيسى للدول - الأمم، فكرة ميتافيزيقية تماما وبلا محتوى دقيق. وبالمقابل فإن مفهوم القومية الاقتصادية يمكن بناؤه بطريقة متماسكة، لكنه لا يستمد تلاؤمه إلا من تحليل تاريخى، ولهذا تبدو القومية الاقتصادية مرتبطة **بالنمو وبالتنمية** الاقتصادية.

ورغم أن مفهوم القومية الاقتصادية أكثر تماسكا من مفهوم الاستقلال، كما يمكن أن نعطيه محتوى دقيقا، فهو فى منشئه «ميتافيزيقى» بنفس القدر. ذلك أن هذا المفهوم المستمدّ مما هو سياسى تجرى محاولة نقل الخصائص التى ارتبطت به على المستوى السياسى، وبوجه خاص السيادة التى يتمثل محتواها الأساسى فى الاستقلال على وجه التحديد، إلى المستوى الاقتصادى.

ويحدّد القانونى كاريه دو مالبيرج Carré de Malberg فى كتابه «**نظرية الدولة**» بدقة وجلاء هذا المفهوم: «بفضل السيادة الخارجية، تملك الدولة إذن سلطة عليا، بمعنى أن سلطتها متخلصة من كل تبعية أو قيد إزاء سلطة خارجية»، وهو يضيف، إذا كانت تساورنا أية شكوك: «وبالتالى فإن كلمة سيادة فى عبارة "سيادة خارجية" تترادف فى الحقيقة مع الاستقلال»(١٤). وهذه «السيادة الخارجية» مرتبطة بالسيادة «الداخلية»، أىْ بسلطة عليا على الأعضاء والكيانات الموجودة على التراب الوطنى.

«الدولة التى تقع فى تبعية ما إزاء دولة أجنبية لن تكون لها كذلك سلطة سيادية على الداخل»(١٥).

والواقع أن هذه الفكرة الخاصة بدولة - أمة هى «سيدة نفسها» على المستوى الاقتصادى تمثل إحدى الخصائص الخيالية للقومية الاقتصادية.

ومع ذلك فإن الدولة - الأمة ليست ولا يمكنها أن تكون كذلك إلا فى حالة التأميم الكامل للاقتصاد والنظام الشمولى. ذلك أن الدولة - الأمة ليست لها ولا يمكن أن تكون لها سلطة مطلقة Summa Potestas اقتصادية، أو سيادة اقتصادية، داخلية أو خارجية(١٦). وستعنى تبعية العملاء، على هذا المستوى، إنكار المجتمع المدنى. وعندما لا تملك الدولة سيادة داخلية لا تعود لها سيادة خارجية. ولا يعنى هذا أنها تغدو تابعة للسلطة الاقتصادية العليا لدولة أخرى، الأمر الذى سيعنى انعدام كل تماسك، لكنها لا تملك السيطرة على «سلطات» اقتصادية خاصة، **ومن باب أولى** على الكيانات عبر القومية.

والقومية الاقتصادية **ظرف تاريخى**. إنها ليست صياغة قانونية قابلة لشىء من الدوام، ولا حتى للنقل المفتعل. والواقع أن «الالتزام الحماسى» للعناصر الاقتصادية المقامة على التراب الوطنى بتحقيق مشاريع الدولة - الأمة، التى أعلن الجنرال ديجول وعظه المفعم بالحنين بشأنها لم يكن سوى أمنية ورعة. كما أن الأمة الاقتصادية لا يمكن اختزالها إلى الاقتصاد العام.

والواقع أن منطق الدولة وما هو سياسى ومنطق الرأسمال والسوق لا ينطويان على دواع

للتطابق ولا يتطابقان عادة. ذلك أن الولاء الوطنى للوحدات الاقتصادية، وهو بعيد عن أن يكون قابلا للإهمال، يمكن أن ينحرف مبتعدا عن منطق الربح، كما يمكن للإيعازات والتنظيمات الحكومية أن تعدل اتجاه اللعبة الاقتصادية لصالح «المصلحة القومية». وعلى أية حال فإن انصهار وانسجام المصلحتين ليسا «طبيعيين».

ولم يكن من الممكن إلا فى سياق تاريخى خاص جدا أن يتعايش الطرفان، الأمة والاقتصاد، بشىء من تشوش المعانى وأن يكتسبا صلة وثيقة.

والحقيقة أن الأمة الاقتصادية، التى أوجدتها «مصادفات» التاريخ فى الغرب خلال العقود السابقة لسنة ١٩٧٠، لم تكن أبدا بالتالى دولة - أمة اقتصادية.

والسيادة السياسية، كما يقول رجال القانون، مع أن مصدرها يتمثل فى الأمة (السيادة القومية) لها حائز هو الدولة التى تعد أدواتها متماثلة الهوية. أما السيادة الاقتصادية فقد كان من الممكن أن يتمثل مصدرها فى الأمة، غير أن الأدوات لم تكن قط حائزيها المطلقين. والحقيقة أن وجودها ذاته أسطورى إلى حد كبير جدا. وهذا هو السبب فى أن مفهوم «القومية الاقتصادية» تبدو أكثر جاذبية وأكثر تلاؤما.

وينبغى انتظار فرانسوابيرو François Perroux لنشهد ظهور تعريف «للقومية الاقتصادية». وهو يكتب: «من الناحية الاقتصادية، الأمة مجموعة من المشاريع والأسر ينسق بينها ويحميها مركز يحتفظ باحتكار السلطة العامة، أى الدولة. وتنشأ بين الأطراف المكونة علاقات خاصة تجعلها متكاملة»[١٧]. وفى هذا التعريف يتوازن الإمكان والإرادية بانسجام. ذلك أن الدول - الأمم التى نجحت بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر كانت بلاشك مجموعات من الوحدات الاقتصادية الدينامية، المتبادلة الاعتماد نسبيا، والتى «تحميها» الدولة وكذلك ظروف أخرى (مثل صعوبات المواصلات وهبات الطبيعة». على أنه يبدو أن التماسك الأكثر صرامة لمفهوم القومية الاقتصادية قدمه المشهد الذى خلقته الاقتصادات الغربية الرئيسية بين ١٩٥٠ و١٩٨٠. ففى تلك الفترة ولد فى الحقيقة «النموذج» الذى يتطلع إليه العالم الثالث، نموذج الاقتصادات القومية المتطورة. ذلك أن هذه الدول - الأمم الجديرة بالاحترام، وكم هى محترمة، ليس لها فقط أرض معترف بها واستقلال قانونى، بل لها أيضا **اقتصاد قومى**. ويتميز هذا الأخير باعتماد متبادل وثيق للغاية بين الفروع الاقتصادية الواقعة فوق الأرض القومية. كما أن العلاقات المتبادلة المتكاملة بين الوحدات الاقتصادية القومية كثيفة للغاية. ويمكننا حتى أن نعطى مثالا يوضح بدقة درجة التكامل الاقتصادى للدولة - الأمة بفضل أداة إحصائية واقتصادية تم تدقيقها خلال نفس

الفترة: جدول المبادلات فيما بين الصناعات لفاسيلى ليونتييف Wassili Leontieff. فكلما كان سجل المدخلات inputs القومية «أسود» - وبعبارة أخرى، كلما كانت المُعاملات موجودة ومرتفعة - كان الاقتصاد القومى متماسكا؛ فهو ذاتى المركز. وكلما كان سجل المدخلات القومية «أبيض» - وبعبارة أخرى خاليا - يكون الاقتصاد «منفتحا على الخارج» extravertie وفقا للمصطلح الذى روّجه سمير أمين. ويغدو الانفتاح على الخارج extraversion، وهو سمة دقيقة «للتبعية الاقتصادية» حسب هذا المؤلف، السمة المميزة للاقتصادات المتخلفة. وستعانى هذه الأخيرة بالتالى من «آثار السيطرة» المنهجية من جانب اقتصادات «المركز» التى تنفتح عليها. ويغدو وجود نسيج صناعى معيار القومية الاقتصادية، التى هى بدورها «بنية تحتية» للاستقلال السياسى.

ولهذا فإن هذا النموذج لا يتطلع إليه العالم الثالث فحسب، فهو أيضا النموذج الذى يحنّ إليه المواطنون إلى هذا الحد أو ذاك. ويبدو أن الازدهار الاقتصادى والاستقلال السياسى والإشعاع الثقافى تمضى يداً فى يد مع القومية الاقتصادية المفهومة على هذا النحو.

ينبغى على أية حال أن نلاحظ التفاوت بين ازدهار القومية الاقتصادية وازدهار الأمة السياسية. وإذا صدقنا حنا أريندت Hannah Arendt، يعود انحطاط الأمة كواقع سياسى حيّ إلى حرب ١٩١٤(١٨). كما أن الوجود الاقتصادى للأمة فى فترة ما بين الحربين لم يتجسد فى تنظيم حكومى يزيد من دينامية الاقتصاد المندمج فاتحا إياه على مصراعيه أكثر فأكثر على الاقتصاد العالمى. والواقع أن هناك منذ القرن السادس عشر سياسات قومية تطمح إلى هدم الروابط السابقة عبر القومية للمال والتجارة، وإلى ربط الاقتصادات المحلية والإقليمية فى سوق قومى. ويطمح خلق الأبنية التحتية إلى توحيد المكان اقتصاديا.

والحقيقة أن الطموح إلى التنمية الذى تشعر به كافة بلدان العالم الثالث، فيما وراء أو عبر مطالب الاستقلال وتصفية الاستعمار الاقتصاديين امتدادا للاستقلالات وتصفيات الاستعمار القانونية والسياسية، هو طموح إلى بلوغ «القومية الاقتصادية». ويمثل هذا الطموح أساس المطالبة بنظام اقتصادى عالمى جديد.

وقد فعلت البلدان المتطورة، بدورها، كل شىء لإثارة ورعاية هذا الطموح المطبوع بطابع التقليد الأعمى. والواقع أن النزعة القومية للتنمية تكشفها جيدا التعبيرات المتشدقة: «الشعوب النامية»، «التنمية القومية والشعبية»، التى ترصع الكتابات حول هذا الموضوع.

والتنمية لها جانب مرتبط بالأمة. وبطريقة موحية، يعتبر جيرار جريليه Gérard Grellet «السيطرة الأجنبية»إحدى أربع سمات مميزة للتخلف وهو يطابق ضمنا بين التنمية

والاستقلال.

ويكتب جريليه: «هناك أقسام ضخمة من النظام الإنتاجى للبلدان المتخلفة تسيطر عليها مصالح أجنبية، وإن بدون ارتباط مع بقية الاقتصاد، بحيث يتضح أن التنمية المستقلة مستحيلة»[١٩]. والحقيقة أن التنمية علاقة ثلاثية نوعية بين الاقتصاد والسلطة والمكان. ومكان التنمية هو قبل كل شىء مكان الأرض القومية. وليست التنميات الإقليمية والمحلية سوى النواتج الجانبية، ليست سوى ابتكارات مشتقة، قائمة على التقليد. والسلطة هى سلطة الدولة، التى تعنى الدولة - «ساهرة الليل» أو الدولة - الحامية كلية الوجود.

والأساس الجغرافى، الطبيعى، للتنمية الاقتصادية هو الإقليم الوطنى للدولة. ولم يجر التفكير فى الاقتصاد ذاته كمجال مستقل إلا فى الإطار الضمنى للدولة - الأمة. والسياسة التى يقابلها الاقتصاد، ويتحدد موقعه فى علاقته بها، تتحدد بدورها فى إطار نظام الدولة - الأمة، النظام «الطبيعى» الحقيقى للمجتمعات الحديثة... ويمثل التنمية، أى أساسه البشرى، الثقافى، هو **الأمة**. وعلى نحو طبيعى تماما، تكون ثمرتها **ناتجا قوميا**.

وتندرج الآلية الاقتصادية التى تحدث التنمية فى هذا الإطار للدولة - الأمة. وتقع الحلقات الفعالة فى داخلها. وهذه الأخيرة، عفوية جزئيا، إرادية جزئيا، حسب النسب التى تتباين وفقا للمدارس. فالليبراليون يشددون على «اليد الخفية» والميكانيكا الطبيعية للمنافسة على السوق الداخلى فى علاقته بالتبادل الحر مع الخارج. ويمتد التوازن اللحظى ليستحيل إلى نمو أمثل من خلال الاستخدام الكامل للعوامل. ويلح دعاة التدخل على حفز الدولة وعلى وجود نمط للتنظيم. وقد حدث، تاريخيا، أن كان النمط الذى ارتبط بعهد التنمية هو نمط التنظيم الكينزى - الفوردى. ويؤمّن عقد اجتماعى ضمنى أو تفاوضى حسبما ترتضى الاتفاقات الثلاثية الأطراف (الدولة، أرباب العمل، النقابات) النمو المنسجم من خلال تحويل مزايا الإنتاجية إلى ارتفاع الدخول بما يبرر الاستثمارات من أجل إنتاج ضخم، فى «مجتمع قائم على العمل المأجور». وكما يكتب ألان ليبيتس Alain Lipietz: «الفوردية فى ذروتها تدل إجمالا على حدود ذاتية المركز الممكنة للرأسمالية المتطورة»[٢٠]. والحقيقة أن القومية الاقتصادية لا يمكن فهمها إلا فى سياق التنمية التى لا يمكنها إلا أن تكون قومية.

ويسجل انفتاح الاقتصادات الذى انتهت إليه دينامية النمو ذاتها نهاية عهد: عهد التنمية وعهد القوميات الاقتصادية. إنه يمثل بلا جدال فقدان الاستقلال المفهوم على أنه اعتماد متبادل، وتكامل، وذاتية مركز. وهو يمثل بوجه خاص نهاية الدولة - الأمة ككيان سيادى وكمبدأ لإنعاش الحياة الاقتصادية.

والواقع أن المجتمع التقنى الذى يشكل الاقتصاد مظهره الأكثر بروزا يدخل فى أزمة عميقة.

أزمة القومية الاقتصادية والمجتمعات الصناعية

كتب فرانسوابيرو، فى ١٩٥٨، فى مؤلفه: التعايش السلمى-La Coexistence pacifique: «ترتجف الشعوب والأوطان التى تطمح إلى الحرية إذ تكتشف أن الدولة ذات السيادة أضحت، بالنسبة لعدد كبير منها، وصفة غير عملية». ويعلق ميشيل بود Michel Beaud: «ما كان يصدق آنذاك على البلدان الصغيرة أو البلدان الجديدة أو البلدان المستقلة حديثا يصدق اليوم على كافة بلدان الكرة الأرضية». ويضيف: «ما من اقتصاد قومى يمكن تصور أنه مغلق بهدوء داخل حدوده. وفى هذا يكمن، بلاشك، أحد أسباب أزمة الفوردية وفقدان فعالية الوصفات الكينزية: لم يعد هناك ما يضمن أن مزيداً من القوة الشرائية فى بلد من البلدان سيجلب إلى هذا البلد زيادة فى الطلب من شأنها أن تحفز الأنشطة فيه.

«تدويل وعولمة الأمم والعالم وطبعها بطابع الشركات المتعددة الجنسية: إنها ليست مشكلة قومية أو محلية لا ينبغى التفكير فيها فى سياق بُعدها العالمى»[٢١].

وإذا كان من الواقعية زعم أن ساعة نهاية مجتمع الأمم لم تدق بعد، فمن الأصعب تأكيد الطابع عبر التاريخى للإطار القومى. ويبدو لنا أن من الملائم أن نؤكد وجود أزمة كبرى وحاسمة فى نظام الدولة – الأمة. فإلى جانب ظهور تحويل اقتصادى عبر قومى، نشهد «محو حدود إقليمية» déterritorialisation مجتمعياً حقيقياً و«تحويلا عبر قومى للثقافة» transculturation مرتبطين إلى هذا الحد أو ذاك بالتحويل عبر القومى للشركات. وتواصل «الآلة التقنية – الاقتصادية» التحول إلى إطار سوريالى أكثر فأكثر.

وقبل عهد أسطورة التنمية القومية، كان بعض الاقتصاديين يؤكدون اعتقادهم فى وجود ديناميكا للكيانات الاقتصادية، وهذا تجريد مستمد من الإطار القومى. وباعتباره الأكثر أهمية بين الظواهر المولدة للنمو، فإن *تراكم الرأسمال*، من حيث طبيعته وجوهره، لا علاقة له بالوطن. ذلك أن أرض وأمة الممثلين لا تعنيان شيئا للرأسمال. وإذا كانت الظروف التاريخية قد مزجت بصورة وثيقة مصيرى الرأسمال والدولة – الأمة، إلى حد أمكن فيه الاعتقاد أن الرأسمال خلق الدولة – الأمة، فمن الواجب أن ندرك أن الرأسمال فيما بعد بداية بعينها يدمر الدولة – الأمة. والواقع أن وجود «سوق داخلى» وخلق قوة عمل حرة – وهما الشرطان

الضروريان لتوسع الرأسمال - لم يكن بوسعهما أن يحدثا بدون انتصار الدولة - الأمة. غير أن تواطؤ الرأسمال والدولة - الأمة لم يكن أبدا ميثاقا معقودا بين شخصين اعتباريين. ذلك أن الدولة وحدها قابلة، إلى حد ما، لتمثيل «مشخّص». ولم تكن حركة الرأسمال قابلة فى يوم من الأيام للاختزال إلى فعل ممثل كان من شأن رسالته إنعاش **الاقتصاد القومى**. وإذا كان هناك فى الواقع، داخل الاقتصاد - العالم، اقتران ما بين حركة الرأسمال فى بعض الأماكن والانتعاش الاقتصادى لبعض الدول - الأمم، فإن هذا الانتعاش كان طارئا ومرتبطا بشروط تاريخية استثنائية.

والحقيقة أن وصف القومية الاقتصادية بأنها نسق ذاتى المركز أمر لاغبار عليه. وتنبع المشكلة الوحيدة من واقع أن ذلك ينسجم مع وضع خصوصى تماما ولا يمكن أن يشكل بأى حال نموذجا عالميا. وخلال عهد نظام الدولة - الأمة، كان هامش ما للمناورة ممكنا بالنسبة لدولة قومية منفردة. ولهذا قدم التاريخ أمثلة عديدة لبلدان نجحت فى تعزيز تلاحم وقوة اقتصادها داخل الاقتصاد - العالم.

وألمانيا واليابان هما البلدان الكلاسيكيان اللذان يوضحان هذا المسعى. وتمثل البلدان الصناعية الجديدة محاولة أخيرة، ناجحة جزئيا، للوصول إلى مرحلة «الاقتصاد القومى». كل ما هنالك أن سياسة نزعة قومية اقتصادية وتنمية اقتصادية ترتكز على المكان القومى تفقد كل معنى فى عصر «محو الحدود القومية» للاقتصاد. والظاهرة المعنية هى فى آن معا بسيطة من حيث أسبابها على الأقل، مجردة ومعقدة للغاية من حيث نتائجها الفعلية. ذلك أن الرأسمال، الذى يظل أساس الديناميكا الاقتصادية العالمية، هو فى الواقع عبر قومى فى جوهره. والسوق العالمى، الذى تعد بذوره أكيدة تماما منذ القرن الثانى عشر، ينتهى إن جاز القول إلى «التطابق مع مفهومه». فبعد ثمانية قرون، ينجح السوق العالمى أخيرا فى محو النقوش الإقليمية عن الهياكل الإنتاجية. ولا يقتصر الأمر على واقع أن الرأسمال أصبح أو أصبح من جديد دوليا من حيث تداول السلع ومن حيث مرتكزاته المالية، بل إن عملية الإنتاج وسير العمل تجرى تجزئتهما وإعادة توزيعهما على الكرة الأرضية بأسرها. وقد وصف فرانسوا ميتران، فى ١٩٧٥، هذه الظاهرة بكل دراية. فهو يلاحظ، فى كتابة **القشرة والحبة**، ما يلى: «(...)بداية ظاهرة لها فى التاريخ نفس أهمية ميلاد الأمم، أعنى قدوم الشركات المتعددة الجنسية. وتبرز ثلاث عشرة شركة منها بين الكيانات الاقتصادية الخمسين الأولى فى الكرة الأرضية. وإذا عممنا الاتجاه الملحوظ من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٨، فإن ست عشرة شركة، ثلاثة أرباعها تغلب عليها الصفة الأمريكية، ستسيطر فى ١٩٨٥ على كافة دوائر

السلطة. وسيكون لكل منها رقم أعمال أعلى من الناتج القومى الإجمالى لبلد مثل بلدنا. وستتجاوز، مجتمعة، الولايات المتحدة الأمريكية.

«ويمكننا أن نتخيل دون أن نسقط فى الخيال العلمى اللحظة التى سيكون فيها لشركة قابضة تسيطر على الائتمان والأبحاث والإنتاج والمبادلات فى القارات الخمس واقع وسلطة حكومة عالمية لم يكن بوسع السياسيين، المتخلفين دائما عن عصرهم، أن يرسموا خطوطها العامة إلى الآن - وأنا أصحح - ليس فى هذا خيال. إنه يقين»(٢٢).

وإذا كان تأثير قوة الشركات عبر القومية على لعبة قوة ومصير الأمم موضوعا لتفسيرات متضاربة ويمكن أن يفسح مجالا للمناقشة، فإن دلائل هذه القوة متطابقة ومسلم بها بوجه عام من حيث معدلها واتجاهها. وفى العقد ١٩٧٠ - ١٩٨٠، وفقا لأعمال الـ «سيريم CE-REM»(٢٣)، كانت الشركات الـ ٨٦٦ المتعددة الجنسية الأولى تسيطر آنذاك على ٧٦٪ من الإنتاج العالمى للصناعة التحويلية. ووفقا لتقديرات صندوق النقد الدولى، والأمم المتحدة، ومجلة **فورشن**، Fortune فإن العلاقة بين رقم أعمال أضخم المشاريع الصناعية فى العالم (وكلها متعددة الجنسية) والناتج الإجمالى العالمى كانت ستتطور على النحو التالى(٢٤) بالنسبة المئوية:

	١٩٦٢	١٩٧١	١٩٨٠
أضخم ٢٠٠ مشروع	١٧,٦	١٩,٢	٢٢,٦
أضخم ٥٠٠ مشروع	٢٣,٤	٢٦,٢	٣٠,١

كما أن وضع دخول الشركات المتعددة الجنسية الرئيسية ودخول الدول فى ١٩٨٣ - ١٩٨٤ إلى جوار بعضها (انظر الملحق١)، وهو ما قام به جان مازينى Jean Masini، معبر بما فيه الكفاية، حتى إذا كانت الأرقام المقارنة لا تغطى حقائق متماثلة(٢٥). ويكفى هذا على أية حال لإدراك الفارق فى الثروة والقوة بين مواطنى الشركات وأعضاء أغلب الدول. والواقع أنه مع التحويل عبر القومى للشركات، تتجه ديناميكا الرأسمال، وبصفة أكثر عمومية، حركة الاقتصاد وحركة المجتمع الحديث إلى تدمير معنى القومية الاقتصادية. ولم يكن للناتج القومى الإجمالى للفرد دلالة كبيرة فى يوم من الأيام، غير أن نموه فى مكان اقتصادى متكامل ومتبادل الاعتماد كان يعبر عن زيادة «للثروة» السلعية خلقتها واستحوذت عليها الأمة، بطريقة متجانسة نسبيا، داخل الحدود. وفى الاقتصاد العالمى الجنينى، والآن فى

«الدولة التجارية المفتوحة»[٣٦]، يمكننا دائما أن نجرى تسجيلات للتدفق وأن نقوم بتقييمها الإحصائى، غير أن هذه الأرقام تغدو سوريالية أكثر فأكثر.

ولا يقتصر «محو الحدود الإقليمية» للاقتصاد على نمو الشركات المتعددة الجنسية. ومهما كانت التناقضات التى تفعل فعلها فى التقسيم الدولى الجديد للعمل، فإن تصفيات الاستعمار وإعادات الانتشار الصناعية الأخرى يتناقص خضوعها للاستراتيجيات القومية: إن عولمة المشاركات الاقتصادية تفرض نفسها. فإلى جانب حركة الاستثمارات الأجنبية المباشرة الوحيدة والاستثمارات فى الأوراق المالية، هناك المشاريع المشتركة joint - ventures، ومبيعات المصانع جاهزة، وعقود الترخيص، واتفاقات المشاركة فى الإنتاج، والمقاولات الدولية من الباطن. ويساعد كل ذلك على التحويل عبر القومى للنظام الإنتاجى والمالى. وهناك ظواهر أخرى، مثل «نهاية الفلاحين» وعولمة الاتصالات البعيدة المدى، تسهم كذلك فى فصم عرى الصلات بين الاقتصاد والأصل الجغرافى.

ويدمر تحلل النسيج الصناعى التضامن القومى ويزيد الفارق بين المتوسط الإحصائى والتبعثر الفعلى لمستويات وأنماط الحياة. أما التنظيم، الذى حلت محله مؤقتا سياسة صناعية تبحث عن مبادئها، فيتجه إلى فقدان كل تماسك. والحقيقة أن أزمة دولة الرفاهية هى أزمة الدولة باختصار، إنها نهاية الاقتصاد الذاتى المركز.

وأزمة نظام الدولة - الأمة لا يمكن اختزالها إلى هذا المظهر الاقتصادى، والواقع أن لها محركات أخرى قوية بنفس القدر تعزز «التنمية» كشكل «للنزعة القومية» الاقتصادية.

«محو الحدود الإقليمية» المجتمعى و«التحويل عبر القومى للثقافة»

ليس «محو الحدود الإقليمية» مجرد ظاهرة اقتصادية تفرغ القومية الاقتصادية من جوهرها، بل له آثار سياسية وثقافية، فى حين أن للظواهر المستقلة «للتحويل عبر القومى للثقافة» بالمقابل أثرا اقتصاديا، وتسهم فى تسريع تدهور القومية الاقتصادية. وحتى إذا رفضنا الفكرة التبسيطية القائلة أن السياسة ليست سوى بنية فوقية يحددها الأساس الاقتصادى، فمن الجلى تماما أن التحويل عبر القومى للشركات و«الانفتاح» المعمم للاقتصادات «على الخارج» يجردان الواقع القومى من جزء ملحوظ من جوهره. وها هى دراما الأمم الفتية فى العالم الثالث تقدم لنا شهادة دائمة على ذلك. والحقيقة أن نص ميثاق الحقوق والواجبات الاقتصادية للدول، والذى يعلن أن «الشركات المتعددة الجنسية لا يجوز لها أن

تتدخل فى الشئون الداخلية للبلدان التى تعمل فيها»(٢٧)، يشهد على سذاجة بالغة. وبعيدا عن التدخلات السافرة والمفزعة مثل تدخل شركة آي. تى. تى.ITT فى شيلى، فإن واقع أن إجمالى الناتج الداخلى (المحلى)PIB لغالبية بلدان الجنوب أهزل كثيراً من السطح المالى للشركات يجعل هذه البلدان هشة. على أن دول العالم الثالث ليست «الضحايا» الوحيدة لهذا الوضع. وإذا كانت الشركات عبر القومية تخضع لمنطق للربح أكثر من السعى وراء سلطة، فالواقع أنها تزعزع، حتى بلا تعمد، السلطات القائمة وتخلق على نحو خبيث علاقات ولاء جديدة لحسابها الخاص. ومن جانبها تخلق التقنية بدورها، بفضل الأقمار الصناعية للاتصالات والتلوث النووى، مجالات عبر قومية على نحو مباشر، ويفجر كل ذلك إلى شظايا الأساس الثلاثى (الاقتصاد - المكان - السلطة). وتبين لنا تجربة الدول المصطنعة للعالم الثالث أن هناك أسبابا أخرى لأزمة الدولة - الأمة (ومع ذلك لاتزال هذه الأخيرة تملك قوى «مستقلة» لا يمكن الاستهانة بها). وتقف أزمة الدولة - الأمة ككيان سياسى، حلله فلاسفة السياسة بإسهاب، كستارة خلفية وراء هذه التطورات. ويكمل لاتسييس المواطنين وإحلال أجهزة إدارية محل المؤسسات السياسية إفراغ الدولة - الأمة من جوهرها. وفيما يتعلق بالثقافة بحصر المعنى فإن الأمور أكثر تعقيدا أيضا. فأكثر من مجرد تحويل عبر قومى للثقافة، تتجلى دفعة واحدة «امبريالية» ثقافية غربية وبالأخص أنجلوسكسونية. والواقع أن إقامة كل الصناعات الثقافية تقريبا فى البلدان الصناعية الغربية الرئيسية، وحتى تصنيع الثقافة باستخدام وسائل الإعلام (صحف، كتب، أسطوانات، كاسيتات، إذاعات، أفلام، تليفزيون) يخلقان شبه احتكار لبلدان الشمال. وأخيرا فإن ثروة التراثات الثقافية «القومية» التى راكمتها الدول - الأمم العجوزة، بما فى ذلك ما تحقق بفضل «نهب» التراث العالمى (عن طريق المتاحف والمكتبات وبنوك المعلومات والإنتاج الثقافى السابق)، تسهم فى غزو ثقافى للجنوب من جانب الشمال، وداخل الشمال من الولايات المتحدة نحو البلدان الأخرى (ومنها فرنسا).

كما أن أهمية اللغة فى خلق ونشر الثقافة، وكذلك الوجود الفعلى للغة الانجليزية كلغة للاتصال العالمى، يعززان أيضا مظهر هذه **السيادة** ويسهمان فى منحها واقعا أكيدا. وأكثر مما نجد تثاقفا على القيم العالمية نشهد محو ثقافة للدول الصناعية العجوزة ذاتها.

ومهما يكن من شىء فقد تم، هنا أيضا، تجاوز «النزعة القومية» إلى حد بعيد لحساب التحويل عبر القومى. ومع الأقمار الصناعية للاتصالات البعيدة المدى وتقنية معالجة المعلومات بالكومبيوتر L'informatique، تغدو العولمة مباشرة. ويتخلص تنميط المنتجات

الثقافية وإنتاج المعايير والأنماط من كل تأصيل. ولا يمكن للتدفقات الإعلامية عبر القومية ألا «تشكل» رغبات وحاجات وأشكال سلوك وعقليات ونظم تعليم وأنماط حياة المستقبلين. كما أن فقدان الهوية الثقافية الذى ينتج عن ذلك أمر لا جدال فيه، وهو يسهم فى زعزعة الهوية القومية سياسيا واقتصاديا. كما أن ما يتبقى من الإبداعية «القومية» يجد نفسه فى حالة تبعية إزاء ثقافة تبدو، وهى بالفعل، أجنبية. على أن من المفارقات أن هذا الطابع الأجنبى extranéation، هذا الاغتراب، وإن كان يجرى اقتسامه على نحو غير متكافىء، يغدو مع ذلك عالميا. ذلك أن خمائر التحلل لا يبثها بعضهم لإلحاق الضرر بالآخرين، إنها تصيب العالم بأسره، حتى وإن تأثر به كلٌ على نحو مختلف.

وربما كانت دراما الحداثة الموضوعة فى مدار الكرة الأرضية لا تتمثل، على هذا المستوى، فى تبعية البعض وسيادة الآخرين، إنها تتمثل فى الإفقار الثقافى الذى ينشأ بالضرورة من تنميط واستيعاب الرسائل فى مجال تقننة وسائل الإعلام، وخواء الثقافة المزعومة للتقنية. يكتب جاك إلول: «بفضل أروع وسائل النشر الممكنة، يجرى اليوم نشر ثقافة يمكن القول عنها فى أفضل الأحوال أنها غياب للثقافة وتم إنتاجها عشوائيا »[٢٨].

ويضاف إلى ذلك نشر الفردية. فمن خلال الإدماج الاقتصادى العالمى، ومن خلال العولمة الثقافية، ومن خلال ألف من القنوات المتباينة التى تتبادل تعزيز بعضها، تتسلل الفردية إلى كل مكان وتتفشى بعمق متزايد دوما فى المجتمعات غير الغربية. على أن العقلية الفردية تمثل خميرة تحلل للعلاقة الاجتماعية. وهى تنخر فى نسيج التضامنات التقليدية كسرطان. وما يجعل الفردية لا تقاوَم هو واقع أنها تبدو لكلٍّ وكأنها تحرير. والواقع أنها تحرر من الإكراهات وتفتح إمكانات بلا حدود، لكن على حساب التضامنات التى كانت تشكل نسيج الجماعات.

نهاية مجتمع الأمم

لم يؤد «محو الحدود الإقليمية»، الاقتصادى والمجتمعى، إلى ظهور نظام دولى جديد، أو حتى نظام عالمى، بقدر ما أدى إلى اضطراب وفوضى.

وهذا الاضطراب قائم بالفعل فى كثير من البلدان شبه المصنعة. قال وزير برازيلى عن منطقة سان باولو ما يلى: «إنها سويسرا محاطة بعشرين بيافرا». ويتجه ذلك إلى أن يغدو صحيحا على مستوى الكرة الأرضية. فحيثما كانت هناك شركة، منشأة صناعية، تجارية، مركز أبحاث، فى سنغافورة، فى وادى السيليكون، فى كاتالنيا، سيسود ازدهار نسبى،

مجتمع استهلاكى، وحتى بديل إقليمى للدولة - الحامية. وحيثما لم يكن هناك شىء من ذلك أبدا، حيثما كانت المشاريع والمكاتب قد أغلقت أبوابها، فى الشمال كما فى الجنوب، يتولد أو يتواصل بؤس وفقر بلا ضمانة اجتماعية من أى نوع وبلا تضامن. وفى هذا العالم الذى يرتدى جلد النمر، تتلاشى السياسة، وتتعزز الإدارة والبقرطة، وتستقل الأجهزة البوليسية لتشن ملاحقات بلا تمييز. والحقيقة أن الدول - الأمم حتى أضخمها وأقواها لا تتخذ القرار بقدر ما تنفّذ، مثل وكلاء الولاة الإقليميين منذ عهد قريب، وبجبروت يثير السخرية، المراسيم الصادرة فى مكان آخر وليس فى أى مكان. ويحل العنف وانعدام الأمان والإرهاب على أبواب الأغنياء فى سان باولو، فى بوجوتا، فى كاراكاس، فى ليما، فى مكسيكو، وتنغلق جُزيرات الازدهار فى معاقل حصينة، لا يمكن دخولها إلا بشفرات اليكترونية تزداد تعقيدا على الدوام، وتسوى الميليشيات الخاصة والعصابات والمبتزون من كافة الأنواع حساباتهم تحت الأنظار العاجزة أو المتواطئة لما لا يزال الناس يدعونه بالسلطات العامة وقوات حفظ النظام. أهذه رؤيا خيال علمى؟ الحقيقة أن هذا أصبح الآن واقعا بالنسبة لجانب هام من أمريكا اللاتينية حيث كان وجود وبقاء العلاقة الاجتماعية مشكلة عويصة دائما. والواقع أن فقدان معالم ودعائم المؤسسات المجتمعية فى عالم قامت الآلة التقنية - الاقتصادية بتدمير هياكله يدعنا ننزلق بسرعة تزيد أو تنقص على هذا المنحدر.

حقا إن أزمة نظام الدولة - الأمة من علامات أزمة حضارية حقيقية. فهل هى لذلك النهاية لكل حضارة؟

الحقيقة أن هذا الانهيار لنظام اجتماعى ومجتمعى - شكل رغم كل شىء عالما، بالاضطرابات والآلام التى نعرفها - لا يترك فراغا كليا.

وإذا لم ينته انهيار هذا النظام الاجتماعى والمجتمعى إلى نهاية العالم فى سياق غروب دام للآلهة، وهو ما أعدّ من أجله الوسائل المادية الكافية تماما، وهو أمر لا يمكننا استبعاده، فإن الفوضى التى تعقب التحلل العنيف أو البطىء لنظام الدولة - الأمة تفسح مجالا أمام «بدائل». فحيثما لم تجد «الآلة» حقا موقعها الملائم، فى أى منطقة كان فيها التغريب هو الأكثر سطحية، حيثما كانت المقاومات هى الأكثر حيوية، حيثما كانت الحدود هى الأكثر بروزا، هناك أيضا، سترتسم بكل وضوح، إن لم تكن معالم نظام جديد أو عالم جديد، فعلى الأقل أشكال إعادة تكوين جزئية للروابط الاجتماعية.

٥ - بعيدا جدا أو فى مكان آخر

«عندما انطلق كارنا والمحاربون مبتهجين جميعا، اهتزت الأرض وأطلقت صرخة مؤلمة. شوهدت الكواكب السبعة الكبرى تنفصل عن الشمس، وسقطت نيازك، وكان الأفق كله يشتعل. سقطت الصواعق من السماء بلا مطر وهبت رياح عنيفة. ثم بدلت مكانها جماعات من الحيوان والطير بحيث كان جيشك إلى يسارها، منذرة بخطر داهم. انهارت أفراس كارنا الشهير على الأرض. سقط وابل مخيف من عظام الموتى من السماء. أخذت الأسلحة تلمع والشارات تهتز، وذرفت الدواب دموعا. ظهرت هذه النذر المشئومة وأخرى أيضا معلنة إبادة كورافا. لكن لا أحد ألقى بالاً إلى هذا لأن الجميع كانوا مذهولين بالمصير».

المهابهاراتا(١)

يؤدى إخفاق الآلة التقنية - الاقتصادية إلى تدهور الغرب كحضارة. والواقع أن إخفاق التنمية ونهاية نظام الدولة - الأمة هما علامتا ومظهرا هذا الإخفاق، غير أنهما ليسا سببيه الوحيدين. وقد أسهمت مقاومات المجتمعات المختلفة، وقدرتها على البقاء بوصفها مختلفة، وقابلية الروابط الاجتماعية الأصلية لتحويل الإسهامات الأشد تباينا للحداثة إلى معان غريبة عليها كليا، فى تآكل سيطرة النموذج الغربى. وتسمح هذه المخلفات والمقاومات والتحويلات بتوقع سقوط الغرب ليس بوصفه نهاية العالم، بل فقط بوصفه النهاية لحضارة. ذلك أن حيوية ودينامية الآخر تفسحان المجال أمام التنبؤ بمخارج من حتمية الكون ذى البعد الواحد.

أولا: المخلّفات والمقاومات والتحويلات

لا يستطيع الغرب أن يطرح «ثقافة» للتقنية والتصنيع تسحر العالم من جديد وتمنحه معنى. وهو لا يستطيع كذلك أن يفى بوعوده السخية. ويغذى هذا الإخفاق المزدوج المقاومة «الثقافية» للغرب. ذلك أن الهراسة تسحق كل شىء فى ظاهر الأمر، غير أن معالم الثقافات المسحوقة لم تتلاش تماما؛ كل ما هناك أنها انغرزت فى تربة زلقة. وقد كان من المعتقد أن هرم مكسيكو الكبير قد دك من قواعده، والحقيقة أن هذه الأخيرة لم تكن إلا مطمورة فى التربة الإسفنجية لـ «تينوشتيتلان»* وقد أصيب الناس بذهول عند إعادة اكتشافها كما حدث مع قواعد الأهرام التى سبقته والتى كانت مختفية تحته، حافرة مواقف (للأهرام)... وينطبق نفس الشىء على ثقافات عديدة. وفى أفريقيا السوداء، بوجه خاص، لم يكن الإذعان لنسق الرجل

* تينوشتيتلان: عاصمة الأزتيك، تم تأسيسها فى ١٣٢٥، استولى عليها الأسبان فى ١٥٢١، وتم بناء مدينة مكسيكو (عاصمة المكسيك) فى موقعها - المترجم.

الأبيض إلا ظاهريا فى كثير من الأحيان. وعندما لم يكن هناك مفر من «معرفة الورق» ومن التظاهر، واكتساب سحر الرجل الأبيض لمجاراته ومقاومته، كان ذلك حقيقة واقعة، لكن بالتوازى مع المحافظة على القيم الثقافية التقليدية. ومن الجلى أن استراتيجيات اللعب المزدوج هذه والتى تنامت خلال الفترة الكولونيالية لم تترك الثقافة الأصلية كما هى. والحقيقة أن السلطة الكولونيالية والمنطق التقنى - الاقتصادى اقتضيا ويقتضيان التزاما مدفوعا أكثر فأكثر. وقد فقد كثيرون هناك روحهم، غير أن الذين كانوا أكثر بكثير هم أولئك الذين قاوموا ويقاومون. لقد تم قبول الحداثة ودمجها جزئيا فى الفكر السحرى.

ويسمح الفكر الهندى، وهو يبدو للوهلة الأولى أغنى وأرهف كثيرا فى نظر غربى قليل الكفاءة، بهذا الاستيعاب للغرب بما فى ذلك فى مجال نجاحاته التقنية الأكثر إثارة للإعجاب، كما أوضح لوى دومون باقتدار.

ومن ناحية أخرى يلاحظ رينيه بيرو ما يلى: «هناك أناس لا يقتنعون إطلاقا بأن «التقدم»، كما نسميه نحن بيقين بالغ، ينسجم على خير وجه مع الإنسان؛ وهؤلاء الناس يحيون، فهم لا يقنعون بمجرد البقاء على قيد الحياة: إنهم يدعون إنسانيتهم تتفتح، ويحبون، ويفكرون، ويعملون، ويتحملون المسئولية، ويتبادلون، ويعرفون أنفسهم، ويتحدون الموت. ولا يكف هذا عن إثارة الإعجاب، أليس كذلك؟»[٢].

هذا «الاستمرار» للروابط الاجتماعية المهرطقة يمكن اعتباره «أحد المخلفات» التى بسبيلها إلى التلاشى إذا نظرنا إلى الأشياء من خلال الموشور التطورى. وهو فى كثير من الأحيان شكل جنينى من التثاقف. حقا إن الاستقلالات السياسية أحلت الاستعمار الذاتى محل سلطة الرجل الأبيض الفاقعة أكثر مما ينبغى، غير أن الإخفاق السافر للدول الجديدة ولمشروعها فى التنمية يقوم فى نفس الوقت بخلق وإعادة خلق مساحات للحرية. وتغذى التشويهات التى أحدثها إخفاق محاولات التحديث، من جهة أخرى، ردود أفعال وتقوم بإحياء شياطين قديمة. غير أن هذه المقاومات لا يمكنها بلاشك أن «تصمد» فى مواجهة هجوم كبير للغرب. وعلى أية حال فإن فرصة المجتمعات التى لم يجر تغريبها وإفقارها بالكامل لا تتمثل فى تدهور أو شيخوخة الغرب بقدر ما تتمثل فى «أزمته». والواقع أننا لم نعرّف الغرب لا باعتباره شعبا Volk، وفقا لتقاليد الفلسفة المثالية الألمانية، ولا حتى باعتباره ثقافة أو حضارة تنتسب إلى جماعة بعينها (اتفاق أمم ترتبط إلى هذا الحد أو ذاك بوحدة تاريخ ومصير)، كما أننا لم نستوعبه فى عقيدة (العالم المسيحى). ذلك أن الشعوب والحضارات والمعتقدات تهرم وتفقد قدرتها على رد الفعل فى مواجهة التآكل الذى لا مفر منه بفعل الزمن. وعلى أية حال

فإن الآلة التقنية - الاقتصادية التى شخصنا بها الغرب صمدت أمام كافة الاضطرابات التاريخية: فقدان العقيدة، تدهور أوروبا العجوز، أزمات ضمير الأمم العجوزة. فهل يعنى هذا أن هذه «الآلة» خالدة وأبدية؟ نحن لا نعتقد ذلك وقد سبق أن قلنا لماذا. ذلك أن الآلة العملاقة هى معاداة ثقافة. وقوتها لا تقاوم تقريبا، لكنها لا تستطيع أن تعمل إلا ضمن تنظيم اجتماعى تنخر هى فيه مثل سرطان.

وبوصفه ثقافة معاداة ثقافة فإن الغرب، من هذه الناحية، آكل ذات autophage. والحقيقة أن الثقافات المسماة بالصناعية هى بالأحرى ثقافات مصنعة. وتتعايش القيم والتضامنات القديمة مع التصنيع، وهى تنعشه لكنها ليست نتاجه بحال من الأحوال. إن ديناميكا المجتمعات الحديثة ترتكز على هروب دائم إلى الأمام يخلق وهم التوازن، وهى تعزز رسوخ كُلّ دائم التحول. والواقع أن الامبريالية ماثلة فى صميم قلب هذا المشروع الغربى.

على أن إخفاق التغريب يعنى أيضا إخفاق الافتقار إلى بديل آخر للنمو المادى يمكن طرحه على مستوى عالم الخيال. ذلك أن الغرب لا يسحر العالم إلا عن طريق التقنية والرفاهية. وليس هذا بالشىء القليل، لكنه ليس كافيا. فالحاجة إلى الهوية لا يمكنها أن تتغذى على السمات الكمية الوحيدة التى حلت محل أنساق المعنى. والواقع أن أزمة الغرب لا تتمثل لا فى تدمير الآلة التقنية، الأكثر متانة مما كانت فى يوم من الأيام، ولا فى استنفاد آثارها المتزايدة التدمير دوما. وإنما تتعلق أزمة الغرب بالأحرى بتدمير الاجتماعى القابل لتوفير شروط العمل السليم للآلة. ونهاية أوروبا الفتوحات هى رغم كل شىء علامة انحطاط. وحتى إذا ظهرت آلهة أخرى بفضل تدهور المعبودات القديمة، فإن الـ «ڤالهالا»* Walhalla بقضّه وقضيضه مهدد بالانهيار .إن كافة المعبودات، الجديدة والقديمة، يلتهمها الـ «راجناروك»** Ragnarök.

وانطلاقا من هذا، يمكن قراءة إخفاق تغريب العالم الثالث على أنه عودة إلى الفوضى وإلى البربرية أو على أنه مقاومة للغرب ورغبة فى إعادة تكوين الروابط الاجتماعية. على أن القراءة الأولى لا تستبعد بالضرورة القراءة الثانية؛ وعلى أية حال فإن بعض الأعراض متماثلة تماما.

وفى أقصوصة هزلية تعرض باتريشيا هايسميث Patricia Highsmith ببراعة هذا

* الـ «ڤالهالا»: مثوى الأبطال الذين يلقون حتفهم فى ساحات المعارك فى الميثولوجيا الاسكندنافية، والمقصود كل مكان مقدس - المترجم.

** الـ «راجناروك»: اسم اسكندنافى لغروب الآلهة - المترجم.

التحلل للمهمة التمدينية فى البلدان المستقلة الفتية. فخلال سنوات يغوص «نابوتى»، وهو بلد خيالى فى أفريقيا السوداء يشبه زائير على نحو غريب، فى خراب لا يوصف منسياً وسط الهياكل العظمية. وبالتدريج، يسقط كل شيء متداعيا فى اللامبالاة والبلادة والابتهاج الهجمى والوحشى[٣].

كل هذا حقيقى، وكل غربى يتجول فى البلدان المستعمرة سابقا لا يمكنه أن يتخلص من الحنين إلى نجاحات النظام الكولونيالى. والواقع أن هذا الأخير كان يعمل جيدا، حتى إن كان ذلك يستند الى استغلال وظلم هائلين. ولم يختف الاستغلال والظلم، بل استفحلا أحيانا بظهور ديكتاتوريات دموية فظة، لكن لم يعد هناك ما يعمل حقا.

وفى صورة مشابهة، يقدم ماركوفيريرى Marco Ferreri فى فيلمه يالهؤلاء البيض Y - a bon les Blancs - مشهد **اللامبالاة** الخارقة لأفريقيا إزاء الحداثة الغربية.

والواقع أن حل المشكلات التى جلبتها أوروبا إلى أفريقيا، بما فى ذلك التنمية الاقتصادية، لا تهم إلا البيض، الذين وقعوا فريسة الإحساس بالذنب، أو إرادة القوة، أو بكل بساطة الشر الذى ينطوون عليه. أما الأفارقة، الذين يعنون سكان المناطق الداخلية، لكن أيضا النُّخب التي جرى تغريبها فى العواصم، فلهم شواغل أخرى تعد بجانبها الأكبر غريبة علينا تماما.

ويهلل كثير ممن لاعزاء لهم عن المستعمرة لهذه الإخفاقات. وهم يشجبون تخلى الرجل الأبيض عن عبئه ويرون فى ذلك مبررا للنظام الكولونيالى، وحتى ضرورة عودة، **لمصلحة الفقراء المحليين ذاتهم**، إلى العمل به.

ومهما كان الوضع فى أمريكا اللاتينية أكثر تعقيدا فلاشك فى أنه ليس مختلفا من الناحية الجوهرية. وبخصوص هذه المشكلة الخاصة بنجاح التطعيم الغربى على وجه التحديد، يعلن كاستوريا ديس: «أنا نفسى قلت فى البرازيل، بطريقة استفزازية، لبعض البرزايليين: <هناك مستقبل ممكن لبلادكم يمكن تلخيصه فى هذه الكلمات الثلاث: كرة القدم، السامبا، الـ «ماكومبا» (الماكومبا هو السحر)>»[٤].

ليس هذا الإخفاق للتغريب إخفاق الأفارقة أو الآخرين، إنه على وجه التحديد إخفاق الغرب، إخفاق ادعائه للعالمية. وكثيرا ما يكون السبب وراء مأسوية وبشاعة أوضاع فترة ما بعد الاستعمار الكولونيالى تقليدا أعمى سخيفا وكذلك تدمير الهويات الثقافية. وإذا كان الأفريقى الممحو الثقافة ليس غربياً، فذلك لا يعنى أنه ممحو الثقافة بصورة أقل؛ وتقع مسئولية ذلك على الغرب. والحقيقة أن شعوب العالم الثالث، مجردة من ذاكرتها الجمعية،

مجردة من نخبها، المدمرة أو المستوعبة، تتشبث بالحياة وفقا لمعايير غريبة على الحداثة، وبممارسة الطقوس التى لم تعد هذه الشعوب تعرف دائما معناها والحكمة من ورائها.

ومع ذلك، فإلى جانب إخفاق التغريب، الذى تسهل قراءته فى الإقصاء، هناك دلائل عديدة ومتطابقة على المقاومة والمخلفات والاستمراريات. وتشهد هذه الدلائل على الحيوية والإبداعية الثقافيتين. وتتجلى هاتان الأخيرتان فى نشوء أشكال تلفيقية وتحويلات وثقافات مضادة. ولا تمثل هذه الأشياء مجرد بهارج فى ثياب مهرج لستر العرى، بل هى الدليل على استمرارية تفسيرات للعالم لا يمكن اختزالها إلى الميتافيزيقا الغربية.

والواقع أن العبادات التلفيقية مثل الـ «كيمبانجوية» والـ «كيتاوالا» فى حوض الكونغو، والـ «فودو» على ساحل بنين، وفى هايتى، وفى كوبا، وفى البرازيل، هى معتقدات حية واسعة الانتشار تندمج فيها طقوس مسيحية أو عناصر حديثة مع رصيد قديم من قيم الأسلاف. وتواصل الـ «كيمبانجوية» صعودها فى زائير، حيث يجرى تشييد كنائس جديدة ويتضاعف الأشياع. ويشهد الـ «فودو» فى شكله البرازيلى، الـ «كاندومبليس»، على بقاء أساطير أفريقية بعد عدة قرون من محو الثقافة فى شكله الأكثر وحشية: اجتثاث الجذور والعبودية، المتفاقمين باضطهاد رجال الدين الكاثوليك. وقد ابتكر كهنة وكاهنات عبادة الـ «ناجو»، والـ «باباالاوس»، والـ «ياولوريزوس»، حيلاً بارعة لخداع مضطهديهم. ذلك أنهم استوعبوا بعض القديسين المسيحيين فى معبوداتهم الأفريقية وواصلوا الطقوس والعبادة السوداء تحت مظهر تقوى بيضاء. هكذا جرت مطابقة السيدة العذراء مع «يمانجا»، آلهة البحار والأنهار. والقديس جيروم مع «أولودومار»، والقديس سيباستيان مع الـ «أوريسكا أورولون»، وأصبح السيد المسيح ذاته «أوريسكا - روا»، أو «أوريزانلا»، أو «أوكسالا». وتُخفى القديسة باربارا «إيانسان»، والقديسة ايفجينى «أوكسيمار»[٥]. وعلى العكس، تُغلِّف الـ «كيمبانجوية» الكونغولية العبادة المسيحية والتنظيم الكنسى بالقيم السوداء. وهى تدمج التنسك المسيحى وفعالية التنظيم العسكرى لجيش الخلاص فى التكريس الدينى التقليدى. وعلى أساس هذه المعتقدات وهذه التجسيدات «الجديدة» و«الحديثة» بالنسبة إلى الأنساق القديمة، تعيد الهويات القومية تأكيد نفسها فيما وراء الأطر الإثنية، بما فى ذلك فى المناطق الحضرية الجديدة.

كما أن التمدين ذاته، فى شكله المنحط والعشوائى الذى سبق أن رأيناه، والذى لابد أن ينتهى عادة إلى المحو الكامل للشخصية الإنسانية داخل جحيم موبوء من الصاج والكرتون، هو مكان نضج «ثقافات مضادة» حقيقية. وفى **مستوطنات** poblaciones سنتياجو فى

شيلى، كما فى أكواخ ضواحى Favelas ريو، تماما كما فى «مدن» أبيدجان أو مدن الصفيح فى الدار البيضاء والقاهرة، يتشكل نسيج اجتماعى جديد وتتشكل التضامنات مبتكرة أسساً جديدة للشرعية.

ويجدّ التنظيم الذاتى فى حل الألف مشكلة ومشكلة للحياة اليومية، من رفع القمامة إلى دفن الموتى، مرورا بالتوصيل المخالف للقانون للماء والكهرباء. ويعوض الناس عن عجز السلطات العامة، ويجدون للقضاء على المشكلات حلولا، مبتكرة أحيانا، وإن كان لا يمكن حقا أن توضع موضع التطبيق. ويكسب زبالو القاهرة مالا من معالجة القمامة، فى حين أن السلطات العامة والمصانع الأوروبية تعدمها. ومن خلال تبنى وتكييف نظام الزبالين، استطاعت مدينة القاهرة أن تنشىء ثلاثة مصانع للمعالجة بالفرز اليدوى والتسميد تغطى نفقات تشغيلها، بفضل بيع السماد وحبيبات البلاستيك، فى حين أن المصانع الأجنبية التى انعقدت عليها الآمال فى وقت من الأوقات لا تزال تفاقم مديونية البلاد.

ويفسح إخفاق التصنيع وتداعى الاقتصادات الرسمية، العامة إلى حد بعيد والقائمة على التقليد الأعمى، المجال أمام نشوء اقتصاد غير رسمى سريع النمو. والواقع أن القطاع غير الرسمى، المبنى على أساس تنظيم اجتماعى تقليدى إلى هذا الحد أو ذاك، والخاضع لمنطق مختلف عن منطق الاقتصاد الرأسمالى الكبير، يؤمن البقاء، وأكثر من ذلك فى الواقع فى كثير من الأحيان، على أساس «عمل عرضى»، وتتحد البراعة مع المهارة لحل المشكلات الملموسة التى تجابهها مدن العالم الثالث.

والحقيقة أن هذه الإمكانية لنشوء نسيج اقتصادى مستقل تستند إلى حد بعيد إلى وجود «نموذج استهلاكى» مختلف. ويصطدم التقييس والتنميط على المستوى العالمى بقيود. ذلك أن فئات السكان فى العالم الثالث لا يلبسون كالبيض، وهم يلبسون أغطية رأس مختلفة، ولا يستخدمون نفس الأشياء، ولا يسكنون بنفس الطريقة، ولا يقضون أوقات فراغهم بطريقة مماثلة، ولا يأكلون نفس الأغذية، وينطبق هذا حتى على العواصم الكبرى لأفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وينشأ نموذج غذائى حضرى فى أفريقيا، مختلف عن النموذج التقليدى، لكن على أساس المنتجات المحلية (الـ «أتّيبيكيه» فى أبيدجان، الـ «أكاسّا» فى بنين، الخ)(٦). وينطبق نفس الشىء على البرازيل والمكسيك، على بالمجكوك وكلكتا.

وهكذا فإن الصناعة الغربية الكبيرة لم تسع إلى ولم تستطع (فى الظروف الراهنة على كل حال) أن تستولى على هذه «المتاريس». والحقيقة أن مدن العالم الثالث ليست فقط «سرابا»

بالنسبة لفلاحين مدمرين، ومكتظين، ومتدهورين، إنها أيضا معجزات. فضد كل توقع، ورغم الإحصاءات، لا يزال الناس يعيشون هناك.

والحقيقة أن حركات «الهوية» التى تعد الأصولية الإسلامية، مأخوذة ككل، مثالها الراهن الأكثر نموذجية، أكثر تعقيدا. ذلك أن الصعود المذهل لهذا التيار لا ينبغى أن يخفى ظواهر أخرى من نفس الطراز، مثل التطرف البرهمانى فى الهند، أو مختلف مطالب الهوية مثل صعود النزعة الإقليمية (حتى فى البلدان العجوزة فى أوروبا). وكافة هذه الحركات أحدثها إخفاق التحديث وتنتج عن تشويهات ناشئة عن هذا الإخفاق. ذلك أن الجماهير العربية التى يؤثر فيها الإخوان المسلمون والحركات الشيعية فى الوقت الراهن كانت ناصرية أو بعثية منذ عشرين سنة، أى أنها عقدت آمالها آنذاك على التحديث وآمنت بتوليف ممكن بين التراث العربى والحداثة. ويسمح تعصبها الراهن بتقدير مدى فداحة خيبة أملها. على أن هذا التيار يحمل فى ثناياه العديد من الالتباسات. فهو يتغذى على ميراث دينى وثقافى عظيم، لم يكن بمستطاعه أن يظهر بدونه فى يوم من الأيام. وهو يجد فى الحنين إلى ماض تاريخى مجيد، وأسطورى جزئيا، قوة مقاومة وانتشار. وهو يشكل محاولة ملتبسة للتوفيق بين التصنيع والتقنية وبين القرآن، أى لتحديث بلا حداثة. والحقيقة أن هذا التحويل يمثل مشكلة.

والواقع أن المجتمعات المعنية لم تجعل من الدين فى يوم من الأيام مبدأها الوحيد لتحقيق الهوية الاجتماعية. ذلك أن **الأمة** oumma، أو جماعة المؤمنين، لم تكن سوى سمة موحّدة خيالية لجماعات متشابكة، مكونة من شبكة معقدة للغاية من الروابط التاريخية. ولم تكن **الشريعة** charia فى يوم من الأيام القانون المدنى، والواقع أن المتعصبين لهم كامل الحق فى أن يشجبوا العصر الذهبى للامبراطوريات العربية الكبرى بوصفه عهدا من الفساد والزندقة والهرطقة. وكانت الفترة العظمى لفارس، فترة الشعراء المتغنين بالحب والخمر، فترة المنمنمات المرهفة وقصور ألف ليلة وليلة، مناقضة تماما للتزمت الذى فرضه آيات الله.

ومن المفارقات أن محو الثقافة الذى أحدثه الغرب (التصنيع، التمدين، القوموية) يقدم الشروط غير المتوقعة لتجديد دينى. ذلك أن الفردية، الجامحة كما كانت دائما، تعطى معنى لمشروع إعادة تكوين الهيكل الاجتماعى على الأساس الوحيد للرابطة الدينية المجردة، ماحية كل نقش محلى آخر (بما فى ذلك الممارسات الدينية الشعبية كالمرابطية maraboutisme). وتجد العالمية الغربية نفسها فى مواجهة مع عالمية عنيفة وارتدادية مثلها تماما. ومع ذلك فإن الأمر لا يتعلق بطريق مختلف حقا؛ ذلك أن معاداة الغرب لدى هذا التيار معلنة أكثر مما هى

عميقة. كما أن العمل الشمولى للدين انحراف عن الحداثة أكثر منه بديلها. فهو ينطوى على رفض للميتافيزيقا المادية للغرب لكنه يحتاج إلى الاحتفاظ بالأساس المادى وبوجه خاص التقنية. كما أن هذا التحويل الهائل لا يمارس بصورة أقل وظيفة تدميرية على التغريب ويمكن أن يصب فى حركات غريبة، بما فى ذلك أشكال مقلقة من وجهة نظر قيم العالمية الغربية.

ويمكننا أن نقرأ هذه الأعراض لسقوط التغريب، على نحو سلبى تماما، على أنها الدليل على الإخفاق الكلى للحضارة، لأنه لا يمكن أن تكون هناك حضارة أخرى سوى الغرب. ويجرى النظر إلى المقاومات والتحويلات على أنها هزلية وتثير الابتسام. كما ينظر إلى واقع أن أشياء المجتمع الاستهلاكى يجرى تحويلها عن استعمالها وتفسيرها فى إطار أنساق فكرية مختلفة على أنه الدليل على عجز خِلقى عن التكيف مع الحياة المتحضرة السوية وليس على أنه الدليل الدامغ على إعادة تشكيل الاختلافات. يقينا ليس فى الأمر مزاح. وإذا كانت إعادة استعمار كولونيالى قليلة الاحتمال، فإن النشوء الناجح لنموذج آخر هو كذلك أقل يقينا من أن تتلاشى ذواكر جمعية كثيرة، من أن تفقد الطقوس الباقية معناها. وفى المعازل الرسمية أو الفعلية لا يمكن «لأولئك الواقعين تحت حماية» الغرب والمحرومين من الثقافة إلا أن يحافظوا على بقاء النوع، رافضين بعناد استيعابا خالصا. فماذا يبقى لدى الباسكوان من ثقافتهم الأسطورية؟ الواقع أنهم، بعد أن جرى الهبوط بهم إلى جماعة صغيرة بائسة، وبعد أن انتزعت منهم الخرفان والأبقار الأجنبية «دويلتهم»، وبعد أن اضطروا إلى الحصول على إذن من البحرية التشيلية بالخروج من نطاق المعازل المحاطة بالأسلاك الشائكة التى كان مغلقاً عليهم فيها، لم يعد لهم لا أمل، ولا طموح، ولا ذكرى. ومن الاختلاف، لم يبق سوى المبدأ الذى جرى تأكيده بعناد، حاملا الكثيرين على الأسف على أن الغرب لم يمض إلى النهاية فى الإبادة الجماعية التى كانت قد بدأت بالفعل(٧).

وبالمقارنة مع الغرب المتقزز فإن أروع نجاحات الاقتصاد غير الرسمى يسودها مظهر الأعمال العارضة الفولكلورية بالقياس إلى الأداءات الخارقة للتقنيات الطليعية. كما أن الروابط الاجتماعية التى أعيد تكييفها لمدن الصفيح تفسدها ضراوة الاستغلال الفاحش والمقاولة من الباطن وتعترضها صراعات لا نهاية لها، وهى فى الوقت ذاته مهددة بالموت بسبب انعدام الشروط الصحية والتلوث وبالانفجار بسبب نمو سكانى منفلت.

والحقيقة أن كافة دلائل المقاومة التى ذكرناها هذه لا تستهل فجر مشروع جديد، إلا بقدر ما ترسم دلائل تدهور للغرب ملامح انحطاط يمهد لذلك.

ثانيا: صعود آفاق جديدة

لا يمكن للتنمية فيما وراء البحار off shore للتكنوبول عبر القومى أن تؤيد وهم مجتمع - عالم. غير أن العالم الثالث «المحول إلى عالم رابع»[٨] شهد، ولايزال يشهد اندماجا أكيدا فى الحضارة العالمية، أى الغربية. وهذا الانتقال لا يمكن أن يعود إلى الوراء. ومهما كان الحنين إلى العالم القديم، إلى توازناته وإلى تراثه الثقافى، فإن العودة الخالصة مستحيلة ولا يمكن تصورها.

وفيما كان يخاطب طلبة بابوازى - غينيا - الجديدة، أعلن رجل قانون أسترالى، بيترساك Peter Sack، مؤخرا ما يلى: «كل الغربيين يكررون عليكم بلا ملل أن من غير المرغوب فيه العودة إلى الوراء. وبمقتضى مبدأ التحرى البوليسى Cui bono (المبدأ القائل أن مرتكب الجريمة هو غالبا المستفيد منها)، فإن هذا الإعلان مشكوك فيه. وبطبيعة الحال فإننا، نحن الأستراليين، ليست لنا إطلاقا مصلحة فى أن يعيد السكان الأصليون الوضع السابق. إذ ذلك سيعنى أن يعود البيض إلى انجلترا...» ويطرح نفس السؤال نفسه بحدة فى كاليدونيا الجديدة. ذلك أن «الكاناك» أقل اقتناعا بكثير من الخبراء الفرنسيين بأن هذه العودة لا هى مرغوب فيها ولا هى ممكنة. غير أن المرغوب فيه ليس بالضرورة ممكنا، وليس بالضرورة بلا أغراض خفية، مشكوك فيها كذلك لدى بعضهم. وعلى أية حال فإن إنكار الماضى ضرورى ومرغوب فيه أقل كثيرا مما يعلنه البيض. وفى أغلب الحالات فإن الشعوب، والبشر، والأعضاء الذين تم تفريدهم individualisés إلى هذا الحد أو ذاك من الآن للمجتمعات المدمرة، يريدون العيش مسلّمين بالميراث المزدوج لثقافتهم ولانتقالهم من خلال دوامة الحداثة. لقد اختفت الثقافات المكرسة للأنا وحدية الثقافية ومات أعضاؤها. أما أولئك الذين بقوا فإنهم مستعدون إلى حد ما لمواجهة التحدى. فهم لا يقبلون بلا مقاومة أن يدعوا أنفسهم تسحقهم التطورات التى توصف بأنها لا يمكن أن تعود إلى الوراء لأنها مرتبطة بآليات تقنية - اقتصادية.

ووسط الإقصاء فى مدن الصفيح، تنتشر حيوية خارقة. ولا يتعلق الأمر بالاكتفاء ببقاء بيولوجى لتكوين قطعان وديعة وسلبية تحت تصرف الشركات، كعبيد آليين لاستهلاك وإنتاج جنونيين. إنها مسألة إبداع، مسألة إعادة البناء لمجتمع إنسانى من خلال تحويل واستعادة موضوعات وقوى الحداثة انطلاقا من القيم الثقافية والروابط المتخلفة عن الجماعات التقليدية. ويحدث توليف حقيقى فى الحياة اليومية العينية، على غفلة من العلماء والمنظرين، بين الميراثين. والواقع أن هذا الانصهار الذى يمكن أن يستند إلى ما بعد حداثة أصيل يبحث عن

نفسه على غير هدى فى الثقوب المتزايدة الاتساع للنظام العالمى الغربى الذى تمسك الأزمة بخناقه.

أزمة الرسمى ومغزاها

كان ينبغى انتظار سنة ١٩٧٣ ليكتشف الاقتصاديون أن المحكوم عليهم بالموت فى العالم الثالث قد حلوا **ضد كافة النظريات** مشكلة بقائهم. وبعد أن تم استبعادهم من عالم الأحياء من جانب الإحصائيات الرسمية كان المتشردون المدينيون الذين واصلوا الاكتظاظ حول مدن العالم الثالث، دون موارد معروفة ومعترف بها، محكوما عليهم بالانقراض. وبوصفهم متسولين أو مزاولين لأعمال عرضية، لم يكن لهؤلاء الطفيليين مستقبل إلا أن تنجح التنمية الاقتصادية السوية. وفى انتظار ذلك، كانت فرصتهم الوحيدة لئلايهلكوا تتمثل فى أن يعودوا بكل حكمة إلى ريفهم الأصلى وأن يعملوا هناك فى الأرض بأسلوب غير فعال تقريبا. كما أن السلطات العامة المحلية والخبراء الأجانب، مهما كانت ليبرالية أو راديكالية، لم تر مستقبلا إلا فى إزالة هذا الثؤلول على الوجه الأملس للتنمية الشرعية. والواقع أن الأمر كان يتعلق بمجال لبقاء أنشطة حرفية صغيرة قائمة على التكنولوجيا العتيقة، تعيش عالة على الجسد السليم للمجتمع النامى والذى بسبيله إلى التحديث. وكان على الحرف الصغيرة غير القانونية أن تختفى لتدفع قدما الاقتصاد الحديث والرسمى والرشيد. أما المهاجرون فكان ينبغى طردهم إلى المناطق الريفية. وجرت أحيانا محاولة إلغاء النتوء الهلامى الذى تمثله الحرف الصغيرة المتكاثرة على هامش الاقتصاد الحديث بأن يجرى على نحو مفتعل خلق قطاع دولة منافس ممول بسخاء من الأموال العامة، أو من خلال تقديم إعانات مالية لمشروعات خاصة حديثة، أجنبية فى أكثر الأحيان. وفى أغلب الأحوال، استخدمت تدابير قمعية ضد أعداء التقدم هؤلاء. ولأن «الوقائع عنيدة» كما يقال، ولأن ما يتراوح بين ٥٠٪ و٦٠٪ من الأفراد الأصحاء فى المناطق الحضرية فى العالم الثالث ظلوا يكسبون رزقهم فى هذا العالم الهامشى، دون أن يطلبوا من السلطات العامة شيئا آخر سوى التفضل عليهم بأن تتركهم يعيشون فى سلام ويدبرون شئونهم حسبما يشاءون، فلم يكن هناك مفر من الاعتراف بالظاهرة. والواقع أنه كان قد أصبح من غير اللائق اعتبار هذا القطاع مجرد نتوء متخلف وحتى ظاهرة انتقالية. ومن الجلى أن هذا الاعتراف لم يكن اعترافا بمعمل لمجتمع بعد - حديث post - moderne، بل كان فى المقام الأول اعترافا **باستثمار** «غير رسمى» ليس إلا. وقد اكتشف الاقتصاديون ثم السلطات العامة عندئذ أهمية مداخيل وإنتاج قطاع كامل كان يجرى تجاهله إلى ذلك الحين.

وانتهت الموضة ووسائل الإعلام إلى تلقف المسألة. وكفت المسألة بصورة متزايدة عن أن تكون مسألة إلغاء وقمع هذه «الأشكال غير الرسمية» بل صارت على العكس مسألة مساعدتها وأصبح قطاعها غير الهيكلى «تنمية عفوية»، «تصنيعا زاحفا» ينبغى تشجيعه وتقنينه، وباختصار طريقا آخر للتنمية. وفى حين أنه، فى الوقت ذاته، كانت تجارب التنمية الذاتية النمو تغوص فى التفكك والعقم البيروقراطيين، كان إنسانيو الهيئات غير الحكومية ONG وجهات أخرى مرتاحين تماما إلى العثور على هذا الطوق الأخير للنجاة ليحمل آمالهم.

ودون أن نسهب هنا فى شرح التناقضات التى ينطوى عليها هذا المشروع التعويضى، من الأهمية بمكان أن نشير إلى الإنكار العميق للظاهرة والذى يتم نهجه عن الفهم «الاقتصادى».

وتكشف الأسماء التى سميت بها هذه الظاهرة وكذلك التعريفات التى أعطيت لها عن عجز عن الإحاطة بمنطقها الخاص. وبوصفه غير المعيارى، غير الهيكلى، الموازى، الهامشى، غير الرسمى، الخفى، المستتر، الخ. فإن هذا «القطاع» المختزل بصورة متعسفة إلى مظهره الاقتصادى يجرى فهمه بالسلب عن طريق الإحالة إلى معيار: الهيكلى، الرسمى، المنظم. والاقتصاد الرسمى ملحوظ ومقروء، أما ذلك الاقتصاد، غير الرسمى، فإنه - مهما كان بالغ الحيوية والأهمية - غير نموذجى ومثير للقلق. ونحن ندرك أنه فى حالة عدم إقرار هذا الاقتصاد، فلابد من استئناسه من خلال فرز ما يمكن تعويضه مما لا يمكن تعويضه، ومن خلال تقنين المجموعة الأولى. والواقع أن التمييزات بين القسم غير التطورى والقسم التطورى، والقسم المنتج والقسم الطفيلى، ترمى إلى هذا الهدف.

وما يذهل فى كافة التعريفات التى قدمها الخبراء هو غياب «النوع الخاص» للقطاع غير الرسمى. فهم لا يحددون سوى الاختلاف النوعى. ذلك أنه جرى تمييز هذا القطاع بوصفه اقتصاديا، ويفترض بالتالى أن يكون منطقه هو منطق الاقتصاد. ولهذا فمن الجلى أنه غير نموذجى بالقياس إلى الأشكال المعيارية للنوع. كما يجرى اختزاله إلى مجموع الاختلافات عن الصورة المعيارية، بلا أى منطق خاص. ويسهم كل شىء فى التقسيم الاجتماعى/ الاقتصاد وفى استبعاد الاجتماعى. ولا يسمح هذا المدخل التفاضلى إلا بإحاطة إحصائية بلا مغزى. كما أنه فوق ذلك تعسفى للغاية لأن المعيار ذاته ليس بالغ الوضوح.

يضاف إلى ذلك واقع تفسير هذه الظواهر بالإحالة إلى ظواهر مشابهة نلقاها فى الماضى فى الغرب، دون أخذ اختلاف السياق فى الاعتبار. والواقع أن النشاطات غير الرسمية، مأخوذة فى حد ذاتها، شبيهة بصورة مذهلة بالحرف الصغيرة التى ازدهرت فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر فى البلدان الرئيسية فى شمالى أوروبا حيث كان التصنيع جنينيا.

فقد أدت سيادة العمل البروليتارى فى الأرياف والهجرة الريفية الجماعية إلى فيض سكانى فى المدن، حتى عندما لم تكن الصناعة تستأجر بعد هذه العمالة المتاحة. وكان القدر الضخم من الحاجات التى ينبغى إشباعها فى المدينة، وعجز الأشكال التقليدية للإنتاج عن تلبيتها، يقدمان تربة صالحة لنمو الحرف الصغيرة. وقد نمت هذه الأخيرة على أسس إقليمية فى كثير من الأحيان (السافويون، الأوفيرينيون*، الخ.)، لأن الأوساط الثقافية كانت تتشكل فى المناطق الحضرية. وقد انتهى توسُّع الصناعة الكبيرة إلى الإزالة تدريجيا لهذا القطاع غير الرسمى الذى يبدو بعد فوات الأوان انتقاليا. ونجد أنفسنا أمام إغراء الاعتقاد بأن الازدهار الشديد الراهن فى العالم الثالث للحرف الصغيرة هو ظاهرة مماثلة ومحكوم عليها بنفس المصير. أما أن الظاهرة مماثلة، أو قريبة الشبه جدا على أية حال، فهذا لا يقبل الجدال، غير أنه ينبغى التشديد بقوة على أن الحرف الصغيرة الأوروبية لم تكن تنحصر فى مظهرها الاقتصادى. والحقيقة أن الثراء الإنسانى لهذه الظاهرة كان حاملا لتطورات عديدة ممكنة.

ويحكم الوضع التاريخى الراهن على القطاع غير الرسمى فى العالم الثالث بمصير مختلف أو يفتح أمامه، فى أفضل الأحوال، آفاقا أخرى. وينبغى بالتالى، فيما يبدو لنا، أن نعيد النظر فى مغزى الحرف الصغيرة القديمة فى نفس الوقت الذى تقوم فيه بتقييم السياق الجديد الذى يتجلى فيه هذا التبرعم الجديد.

وقبل كل شىء، لا يمكن التفكير فى «غير الرسمى» إلا إذا فهمنا الرسمى. غير أنه إذا كان هذا الأخير قابلا للتكرار «رسميا»، فإنه «فعليا» فى أزمة أيضا. ولا شك فى أن هذا الوضع هو الذى سمح **برؤية** غير الرسمى. والواقع أن اكتشاف سنة ١٩٧٣ كان من الخصوبة بمكان. لقد سمح باكتشاف أن غير الرسمى كان موجودا كذلك فى قلب مجتمعاتنا ذاتها وأنه كان يهدد السمات الأعمق رسوخا لنظامنا.

ويمثل العمل الرسمى ممارسة هى من نفس طبيعة جوهر الغرب ذاته وكذلك من نفس طبيعة الاقتصاد الذى يمثل هذا العمل عنصره الرئيسى. فبوصفه **تحويلا للطبيعة لإشباع** حاجاتنا، لا وجود لهذا العمل إلا على أساس عالم عقلى ضمنى. ومجموع التصورات التى تمنحه معنى وتجعله ملائما، وبالتالى ممكنا، هو ذلك الذى يشكل عالم خيال الاقتصاد. وهو ينتظم حول ثلاثة مستويات متبادلة الاعتماد: مستوى أنثروبولوجى، مستوى مجتمعى، مستوى مادى - تقنى. ويبرز هذا الأخير باعتباره الأول وأساس المجموع فى سياق الأيديولوجيا الاقتصادية، لكنه يبدو وكأنه نتيجة من منظور المستويين الآخرين.

---

* نسبة إلى إقليمى سافوا وأوفيرنى بفرنسا - المترجم.

ويتعلق المستوى الأنثروبولوجى بالتصور التحتى للإنسان. ويستند هذا التصور إلى ترابط ثلاثة معتقدات: الطبيعية، اللذية، الفردية. والحقيقة أن الذرّة الاجتماعية تحسب ملاذّها وآمالها، وتعقلن فعلها، من أجل حجب حاجاتها الطبيعية.

ويتعلق المستوى المجتمعى بذلك التصور للمجتمع الذى ينتج عن هذا الإدراك للإنسان بوصفه إنسانا اقتصادياHomo Oeconomicus . وهذا التصور يشخصه أسلوب تنظيمى تعاقدى للحياة فى المجتمع فيما يتعلق بالسياسة وفيما يتعلق بالاقتصاد. إنها إذن مسألة رابطة ذات غاية ربحية: فالسلم والأمن وضمان الملكية الخاصة هى الأسس التى تسمح لتقسيم وتنظيم العمل بمنح أكبر ثروة لأكبر عدد من البشر.

ويتعلق المستوى المادى - التقنى بتصور الطبيعة الذى يفترضه مسبقا مثل هؤلاء البشر فى مثل هذا المجتمع. وهذه الطبيعة معطى عدائى ينبغى امتلاكه والسيطرة عليه بالعمل والإنتاج.

وتمنح هذه الرؤية للإنسان وللمجتمع وللطبيعة معنى للعمل ولمجمل المقولات الاقتصادية. فالأمر يتعلق بمجال دلالى ذاتى المرجعية تماما. ونحن نتعرف فى ذلك بلا صعوبة، تحت شكل آخر، على الأبعاد المألوفة من الآن لمتعدد الأضلاع الغربى. ويندرج نموذج الرسمى (العمل والاقتصاد) فى هذا الحقل الدلالى. إنها مسألة نشاط ذى طابع تقنى (التحويل/ الصناعة) يستخدم وسائل (أدوات وآلات) للتأثير فى مادة أولية (مستخرجة من الطبيعة). ويوجد النموذج الأصلى لهذا النشاط فى الحرفة قبل الرأسمالية فى حين أن المعيار ذا الطابع الاجتماعى للإكراه يتحقق فى نظام العمل المأجور الرأسمالى.

حقا إن النشاط العينى «المأجور» للغالبية الساحقة من البشر المحدثين لا تجمعه صلة مع النموذج الحرفى لعمل الخيال الاقتصادي. ويتجلى ذلك على نحو ملموس مع أزمة العمل المنتج وصعود الخدمات. والواقع أن الإقرار الاجتماعى بأنشطة ينظر إليها تقليديا على أنها «زوائد غير صحية للصناعة وللمجتمع»، من شبكات المينيتيلminitel الوردية* إلى الدعاية، يؤدى إلى تدمير ذاتى لمفهوم العمل. على أن هذا التدمير الذاتى كان متوقعا برعب منذ البداية من جانب مالتوس الذى كتب ما يلى: «إذا كانت المشقة التى يتحملها المرء ليغنى أغنية عملاً منتجا، فلماذا ينبغى استبعاد الجهود التى يبذلها المرء لإجراء حديث مسلّ ومفيد والتى تقدم بالتأكيد نتيجة شيقة للغاية، من عداد الإنتاجات الراهنة؟ لماذا لا ندرج فيها

---

* المينيتيل minitel: جهاز اتصال يوصل المشترك ببنوك المعلومات عبر التليفون. وقد انتشر استخدامه فى فرنسا لإقامة تعارف بين الراغبين - المترجم.

الجهود التى نحتاج إلى بذلها لنضبط عواطفنا ولنصبح ممتثلين لكافة القوانين الإلهية والبشرية التى هى بلا شك أثمن الطيبات؟ لماذا ينبغى، باختصار، أن نستبعد أى فعل **هدفه الحصول على اللذة أو تفادى الألم**، سواء فى نفس اللحظة أو فى المستقبل؟ الواقع أن بمستطاعنا أن ندرج فى ذلك على هذا النحو كافة أنشطة البشر خلال كافة لحظات حياتهم»(٩).

وأمام هذا الخطر لفقدان العمل والاقتصاد لمعناهما، وضع مالتوس والاقتصاديون الحاجز التعسفى المتمثل فى العمل المأجور، على الستارة الخلفية لعالم الخيال الاقتصادى. والواقع أن ذلك كان ضروريا حتى «يدور هذا».

والحقيقة أن الأزمة الراهنة للعمل المنتج تصيب مباشرة نمط الشرعية السائد فى العالم الغربى. ويظل العمل، فى الواقع، أساس الشرعية الاجتماعية ولا ندرى على أساس أية أسطورة أخرى كان بوسع السلطة والثروة أن تجدا تبريراً لا غنى عنه فى إطار نظام الدولة - الأمة.

والواقع أن أزمة العمل، دون أن تكون مرتبطة مباشرة بنهاية السياسة ونظام الدولة - الأمة، تسهم إسهاما بالغا فى تقويض أسس الحضارة الغربية. وكان بوسع تاريخ هذه الأخيرة أن يبدو للعقول المتفائلة خلال فترة طويلة كمسار من التدمير الخلاق على كافة المستويات. وهذا المسار التدميرى لا سبيل إلى إنكاره. وقد جرت التفاعلات الخلاقة بصورة فعالة خلال فترة طويلة بفضل حيوية نسيج اجتماعى وطده نظام الدولة - الأمة وأخلاق العمل. وقد استطاعت المجتمعات الغربية أن تصدر تناقضاتها، أن ترجىء آجال الاستحقاقات عن طريق هروب أبدى إلى الأمام. على أنه، إذا كان تحليلنا صائبا، فإن قلب جهاز التوازن ذاته هو المصاب من الآن فصاعدا. ولم يعد بوسع التفاعل الخلاق أن ينشأ داخل جسد بسبيله إلى التخلل، ولا يمكنه أن يحدث إلا من خارجه وإلى حدّ ما ضده.

المجتمع والروابط الاجتماعية غير الرسمية.

ومع أن هذه الأزمة تصيب بعمق بالغ ذات جوهر الغرب فإننا لا نريد التفكير فيها من هذه الزاوية بقدر ما نريد ببساطة أكثر أن نفكر فيها كأسلوب لاقتراب ممتاز من دلالة غير الرسمى فى العالم الثالث. والواقع أن العمل غير الرسمى لا يمكن فهمه كنقطة انطلاق إلا كنشاط إنسانى يحرز ويحقق نتائج متماثلة، وحتى متطابقة، وعلى أية حال قابلة للمقارنة مع نتائج العمل الرسمى دون الدخول فى إطار **فرضيات أيديولوجية** للاقتصاد.

وهكذا يحتفظ الاقتصاد غير الرسمى بصلة مزدوجة من التطابق والاختلاف مع الاقتصاد الرسمى. ويتمثل التطابق فى واقع أن هذا الاقتصاد يؤدى إلى إنتاج سلع وخدمات مشابهة لتلك الخاصة بالقطاع «السوى»، فيشبع فى ظاهر الأمر الحاجات السوية، المقرة، ويخلق استخدامات مشابهة، ويولد دخولا من مستوى مقارب فى كثير من الأحيان. على أن هذا التطابق خديعة يستسلم لها الاقتصاديون بكل سهولة. ذلك أن الاقتصاد غير الرسمى ليس نشاطا مأجورا بالمعنى الدقيق. فهو لا يخضع لمنطق المجتمع الأجرى، حتى عندما يدفع أجرا لقوة عمل. على أن هذه الأخيرة هى فى كثير من الأحيان عائلية وقَبَلية ودائما غير نموذجية، ولا يخضع النشاط حقيقة لكل ما يفترضه العمل مسبقا فى الغرب (أخلاق الواجب، الرسالة الخلاصية، الخ).

وأخيرا فإن غاية الإنتاج غير الرسمى لا تتمثل فى التراكم اللانهائى، الإنتاج من أجل الإنتاج. كما أن الادخار، فى حالة وجوده، ليس مخصصا للاستثمار من أجل إعادة إنتاج موسعة. ولا ينمو هذا القطاع عن طريق تركيز الوحدات بل عن طريق مضاعفتها. وتقوم الموارد إلى حد بعيد بإشباع حاجات ثقافية: النفقات الاحتفالية، تضامن الجماعة.

والواقع أن العالم الثالث، رغم التغريب، بعيد عن بلوغ مرحلة الفردية التى تسود مجتمعات الشمال الصناعية. وعندما يسأل المرء شخصا ما فى أفريقيا السوداء (وفى كثير من مناطق العالم الأخرى) عن عدد الأشخاص الذين يعتقد أنهم يدخلون فى عداد أسرته، يدور الجواب حول ثلاثمائة. وقد أوضح لى صديق من بنين أنه فى العيد الأخير للأسرة تم تجاوز هذا الرقم وأنه لم يتمكن الجميع من الحضور، حيث كانت الاجتماعات التى تضم أكثر من ثلاثة أشخاص محظورة - وفقا لقانون منقول حرفيا عن القانون الفرنسى - بسبب حالة الحصار! وفى المناطق الحضرية، حيث تكون الأسر الكبيرة مشتتة بالضرورة، تظهر تنظيمات صغيرة جدا على أساس ذاكرة شعبية وهويات ثقافية. وتتولى هذه التنظيمات شئون الحياة اليومية من خلال تدابير بارعة للبقاء. ولا يخص هذا فقط الإنتاج والبيع، بل يشمل كذلك البناء الذاتى، تعاونيات الشراء، تناول الطعام معاً، تنظيم الفراغ والأنشطة الترفيهية (بما فى ذلك المسرح الشعبى).

وفى بلدان أمريكا اللاتينية بوجه خاص، تجلت الأخلاق التضامنية فى أشكال عديدة من التنظيمات الصغيرة جدا المدارة ذاتيا: التنظيمات الاقتصادية الشعبية فى تشيلى، الجماعات الكنسية القاعدية فى البرازيل، تنظيمات الأحياء، حركات الشباب والنساء، الروابط المحلية، جماعات البيئة، الخ.

والواقع أن الأنشطة المنتجة فى مثل هذا السياق، حتى إذا استخدمت تكنولوجيات معقدة أحيانا، والمعرفة العلمية المتاحة، سرعان ما تغدو مندرجة فى روابط اجتماعية أخرى. ولا يتخذ الحذق والإبداعية شكل المشروع الرأسمالى. وعلى العكس يخضع المشغل أو جراج النخلة (بلا عقار آخر سوى ظل شجرة) أو السمكرة التعويضية لدينامية اجتماعية أصيلة. ويغدو المرء بارعا دون أن يكون مهندسا، مجازفا دون أن يكون مقاولا، ماهرا دون أن يكون صاحب صناعة. كما أن التجريد الفعلى من الأهلية داخل النظام لا يستبعد انتهاز فرصة ثانية خارج النظام.

وليس معنى هذا أن الوصول إلى «التصنيع الكامل الفاعلية»(١٠) يغدو مستحيلا، إنه يحدث هنا وهناك، فى البلدان الأكثرَ إصابة بالتغريب، كما أنه سيحدث طالما لم تصل أزمة الغرب إلى بداية لتحييد التغريب. وفى أكثر الأحيان، لم تجر محاولته لأنه ليس مغريا حيثما يكون الاندماج فى الاقتصاد العالمى هزيلا. وهكذا يغدو المظهر المتطرف لهذه الأزمة فى نفس الوقت مدخلاً لحلّ.

والحقيقة أن هذه المقاومات لإغراء الغرب مصدر للأمل. فهى تسمح بتوقع ألا يكون موت الغرب بالضرورة نهاية العالم...

كما أن لظهور الاقتصاد غير الرسمى والروابط الاجتماعية غير الرسمية مغزى أعمق لاسيما وأنهما يترابطان مع المقاومات والمخلفات والاستمراريات فى مواجهة التغريب. وفى حين أن أزمة نظام الدولة - الأمة تعرض النسيج المجتمعى للبدان الصناعية للأخطار وتشكل تهديدا جسيما على ذات وجود العلاقة الاجتماعية، فإنه لا يمكنها إلا أن تحرر القوى الحية والتضامنات النشطة المكبلة بأغلال القوموية والنظام المصطنع لدولة التقليد الأعمى. وفى حين أن الآلة التقنية - الاقتصادية توشك على التوقف لانعدام الأساس الاجتماعى، فإن الطاقات المبدعة لمجتمعات العالم الثالث المحولَة والمنفية من خلال رفض الآلة يمكن أن تجد نفسها تتضاعف.

والحقيقة أن أزمة النظام «الغربى» كنتيجة لتناقضات إدخال الآلة التقنية - الاقتصادية فى عمق النسيج الاجتماعى هى الشرط الضرورى للازدهار المحتمل لعوالم جديدة، لحضارة جديدة، لعصر جديد.

استنتاج عام
هل ينبغى إنقاذ بابل؟

«وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة. وحدث فى ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض هلم تصنع لبنا ونشويه شيا. فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه فى السماء ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض.»

توراة أورشليم، سفر التكوين ١١: ١ – ٦*

هل استسلمنا – عندما رسمنا هذه اللوحة العامة للغرب بخطوطها العريضة – للرغبة فى تسويد اللوحة وانقدنا لهذه الكراهية للذات والتى تدفع الأنبياء إلى إعلان سقوط بابل؟

ولا شك فى أنه ينبغى تلطيف الإحساس الكارثى الذى يمكن أن ينشأ عن قراءة متسرعة بعض الشىء للصفحات السابقة. فالحقيقة أن نهاية الغرب ليست بالضرورة نهاية العالم.

فكيف يمكن، بالاضافة إلى ذلك، الاحتفاظ بالأمانى «التحررية» التى جلبتها الحداثة؟ على أنه ينبغى استبعاد كل مانوية (مثنوية) فى تحليل لا يستبعد، بطبيعة الحال، لا جانبا كبيرا من الحدس ولا الدفاع المتحمس عن ضحايا المظالم، بل يبذل قصارى جهده فى سبيل استخلاص المحتمل والمأمول بتجرد ورصانة.

بعيدا عن الرغبة فى نهاية العالم

من المفارقات أن الغرب الذى اخترع التقدم والنمو والتنمية، والذى يعيش بالإيمان الراسخ تماما بمسيرة لا نهائية تشكل غايته الخاصة كما أنها جيدة فى حد ذاتها، هو الذى اخترع أيضا التدهور والانحطاط والفوضى.

والحقيقة أن المجتمعات السابقة، ولا سيما المجتمعات غير الغربية، لم تفكر فى نفسها فى سياق «التاريخ»، ولم يكن بوسع عظمتها وانحطاطها إلا أن يكونا الحكم الذى تصدره نظرة خارجية. وحتى عندما كانت تفكر فى نفسها فى إطار فكرة دورات الحضارة، فإن طور الانتكاس لم يكن سوى جزر مؤقت، لم يكن سوى مرحلة فى نظام ثابت لا يتغير. كما أن الفوضى عند الإغريق أو التشوش عند العبريين موقف كونى أصلى، سابق لظهور النوع البشرى.

* راجع بداية إشارات هذا القسم – المترجم.

و«يخترع» مفكرو عصر التنوير سقوط الامبراطورية الرومانية، وانحطاط العالم العربى، وتدهور الامبراطورية السماوية، فى حين كانت الأسلحة الغربية تؤدى إلى تحليل امبراطورية المغل الأكبر فى الهند، بعد أن أدت فى القرن السادس عشر إلى دمار حضارات الهنود الأمريكيين[1].

ومحل التصورات الدورية القديمة لأفلاطون وأرسطو عن فساد وتحلل الأشكال السياسية، ومحل تصورات مفكرى الإسلام – تصور ابن خلدون، بين آخرين، عن سقوط السلالات المالكة الحضرية التى أوهنت عزيمتها الحضارة الحضرية وهى خميرة الفردية والأنانية اللذية وحلول قبائل بدوية، حيث تبقى «العصبية» assabya كما هى، محلها– ، ومحل تصورات المؤرخين الصينيين الذين يفسرون تعاقب السلالات المالكة على الامبراطورية السماوية التى لا تتغير وذات الـ ١٨ إقليما بفقدان تفويض السماء، محلّ هذه التصورات جميعا يُحلّ فلاسفة القرن الثامن عشر تحليلا لجدل الأسباب الداخلية والأسباب الخارجية يدخل فيه، إلى جانب أو مكان الفساد الأبدى للمبادىء وتحلل النخب، الاعتقاد فى «قابلية لا محدودة للكمال» للروح الإنسانية (تورجو – كوندورسيه). وتغدو البرجوازية الصاعدة مقتنعة بتفوق المجتمع (والروح) الحديث وترى دلائله فى كل مكان: الأشكال السياسية، تهذيب الأخلاق، نمو التجارة. ويسهم كل هذا فى المسيرة **التى لا رجعة فيها** للحضارة، بما فى ذلك تراجعاتها الجلية. وعلى مر السنين والأحداث، يكتسب هذا المذهب قوة بحيث يغدو من المستحيل التعبير عن أدنى شك حول **بداهة** التقدم، الخالى من كل محتوى آخر سوى نفسه. إنه تقدم التقدم.

وستغدو هذه «المبادىء» الجديدة مطلقة تقريبا فى إطار العلوم الاجتماعية للقرن التاسع عشر وستتحول إلى بداهات عملية فى القرن العشرين، فى شكل التقدم التقنى والتراكم اللا محدود للرأسمال.

على أن الأمر لن يعدم دعوة إلى تطبيق نفس مبادىء **انحطاط** الآخرين على الغرب. ذلك أن المؤرخين الاقتصاديين يضفون طابعا نسبيا على المسيرة التقدمية بالإقرار بالأزمات والركودات الاقتصادية كحقائق ثابتة. ويتنبأ ماركس بوجه خاص بأزمة كبرى من شأنها أن تؤدى إلى تبديل النظام الرأسمالى. ويوفق باريتو بين «تداول النُخب» وتقلبات الاقتصاد. على أن النمو الخطى للتقدم التقنى وتطور القوى المنتجة يظلان ثابتين شأنهما فى ذلك شأن تنمية الاقتصاد. والواقع أن الحضارة الغربية التى ارتكزت على التقنية والاقتصاد يمكنها أن تشهد تحولات وثورات، على أن تقدمها لا يقاوم ومركزها حصين. والحقيقة أن كل تراجع

يسمح لها على العكس بقفزات جديدة إلى الأمام.

وبطبيعة الحال، يمكن للمفكرين «الرجعيين» أو «المثاليين»، الذين لا يزالون يبنون التاريخ على مبادىء، أن يعلنوا «تدهور» الغرب مثل أوزفالد شبنجلر وآرنولد توينبى. والواقع أنهم يبدون منعزلين ولا يُحملون حقا على محمل الجد. وما أهمية ضياع الامبراطوريات الاستعمارية، الثورة الروسية، الحربين العالميتين، اضطرابات العالم الثالث، مادامت الدورة التجارية تتواصل. بل لقد حل محلها بعد الحرب العالمية الثانية نمو قوى ومتواصل. ورغم المصاعب الجديدة فإن توحيد العالم تحت رايتى التقدم التقنى والتنمية الاقتصادية، وهما القيمتان البانيتان للغرب، لم ينطلق فى يوم من الأيام على هذا النحو.

والحقيقة أن أنبياء نهاية العالم كانوا فى كثير من الأحيان ذوى أرواح حزينة يظنون الدراما الداخلية الخاصة بهم دراما كونية، أو ينتمون على الأقل إلى طبقة أو جماعة أو بلاد بسبيلها إلى التلاشى، ويوسعون إلى حجم عالم كامل ما ليس سوى حادث محلى طارىء.

وقد أبدى كارل شميت Carl Schmitt من قبل هذه الملاحظة: «أن لا يملك شعب بَعْدُ القوة أو الإرادة للحفاظ على نفسه فى مجال السياسة لا يعنى نهاية السياسة فى العالم. إنه يعنى فقط نهاية شعب خائر العزيمة»(٢).

ولاشك فى أن تأملنا هذا لا يفلت من هذا الموقف. فواقع أننى أنتمى إلى أوروبا العجوز، وأننى فرنسى، يجعلنى عرضة لمثل هذه الرؤية. ورغم الآمال المعقودة على بناء وحدة أوروبية فإن حكومات البلدان الأعضاء لا تنتهى إلى التفاهم حول العقبات التى تحول دون وحدة سياسية حقيقية. كما أن فرنسا، وهى الدولة العظمى من الدرجة الثانية، لا تنتهى إلى رؤية الدراما المحتومة لتدهورها على المسرح العالمى.

ونحن نزعم، بطبيعة الحال، أنه إذا كان هذا الموقف يجعلنا أكثر تأثرا بإدراك سمة للزمن قد تغدو سمة نهاية عصر، فإن تحليلاتنا تتجاوز الطرف الصغير للأرض الذى يقع فيه مرصدنا وتصلح لعالم أرحب.

ولكى نحاول التخلص من «كراهية الذات» التى عزونا إليها، ليس بلا مبرر فى أكثر الأحيان، «نحيب الرجل الأبيض»، من الضرورى ألا نسرف فى سرد أهوال نهاية العالم. وليس هناك مكان ليكون المرء نبى شؤم. وحتى إذا لم يبد لنا أخلاقيا أن نعارض انحطاط الغرب فإنه لا يبدو لنا ممكنا كذلك أن نتمناه. وتستند الرؤية الكارثية إلى الاصطدام بين ترهات جلية وسمات نقدية. فنحن نعلم أننا فانون؛ وحتى إذا اعتقدنا أن الغرب يشكل استثناءً، فقد تعلمنا أن الحضارات فانية. وأخيرا فنحن لا نجهل أن مخزون الأسلحة النووية كاف تماما

لتفجير الكرة الأرضية إلى شظايا، وأنه لا يمكننا أن نثق لا بحكمة ولا بحصافة المسئولين. ولهذا فعند كل علامة أزمة، عند إغراء الانتقال مباشرة إلى الحدود القصوى، هناك هفوة صغيرة يبدو لنا من الضرورى تفاديها.

وفى سبيل التفكير على نحو معقول فى نهاية الغرب، ينبغى أن نجدّ فى التخلص فى آن واحد من حلم الخلود ومن الافتتان بالكارثة. والواقع أنه ليس هناك سوى مثال واحد معروف حقا عن نهاية حضارة، وهو المثال الذى تسلط على الحداثة، إنها نهاية العالم القديم وبدقة أكثر سقوط الامبراطورية الرومانية. وإنما إلى هذا النموذج نرجع دائما لنتصور أن ذلك يمكن أن يكون تدهورنا نحن. حسنا! الواقع أن هذا النموذج على وجه التحديد، عندما نفهمه حق الفهم، يمكن أن يكون أى شىء إلا أن يكون كارثياً. ذلك أن هذه النهاية لم تنته بعد، ولم يكن السقوط الدراماتيكى سوى أسلوب من أساليب المؤرخين فى كتابة التاريخ **بعدياً** a pos-teriori. والحقيقة أنه بين القرنين الثالث والرابع بعد المسيح، إذا حصرنا أنفسنا فى الفترة الأكثر درامية، كانت هناك حقا كوارث، فى مختلف أركان الامبراطورية، غير أن هناك دائما كوارث محلية فى كافة الفترات. كما كانت هناك فترات هدوء مؤقت عام، وظروف محلية سعيدة.

ولم يحدث فى أية لحظة أن ساد الشعور بكارثة فريدة وشاملة. وحتى استيلاء ألاريك على روما فى ٤١٠ ليس رمزاً للسقوط إلا فى نظرنا نحن. أما فى نظر المعاصرين فلم يكن سوى مشهد تعيس من مشاهد المنافسات داخل الامبراطورية وكان الدليل على أن راڤينا* تفوق روما عددا.

وسيكون فقدان المعنى بطيئا جدا وطويلا للغاية، حيث أن الأسطورة الامبراطورية ستبقى فى بيزنطة، وفى الغرب الكارولينجى، وفى الامبراطورية المقدسة التى لن تسقط إلا فى ١٨٠٦! والحقيقة أن العالم القديم كان ميتاً دون أن يعرف ذلك أحد بعد. فمن ذا الذى سيخبرنا إذن بموت حضارتنا؟

الحنين إلى العالمى

إذا كان الغرب قد بدا لنا بوصفه هذه الآلة الجهنمية التى تسحق البشر والثقافات من أجل أهداف جنونية لا يعرفها أحد وتوشك نهايتها أن تكون الموت، فإنه ليس سوى ذلك. على أن

* راڤينا: عاصمة الامبراطورية الغربية فى عهد هونوريوس – المترجم.

هناك فى المشروع الهيلينى - اليهودى - المسيحى الطموح إلى إنسانية متآخية. فبالتوازى مع محو ثقافة الكرة الأرضية ومع الامبريالية بكافة أشكالها، أنتج الغرب وهيأ الحلم بمدينة محررة يكون فيها لكافة البشر مكانهم، ويغدو فيها كل شخص مواطنا حرا. هذا المشروع - هل هو مرغوب فيه، هل هو ممكن، وبأية شروط؟ والواقع أن هذا الحلم بغزو للسماء والذى اعتقد بعضهم إمكان تحقيقه بواسطة التقنية هو بالضبط حلم بال. لقد اعتقد الرب ذاته ذلك. «فنزل الرب المدينة لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل والآن لا يمنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه.»(٤).

والواقع أنه جاءت الأوقات التى يكون فيها البشر شعبا واحد ويتكلمون لغة واحدة ولا يكون فيها أى هدف غير قابل للتحقيق بالنسبة لهم. غير أن المدينة التى بنوها مشوهة. فهناك يسود الظلم، العنف، الكراهية. وهى ذاتها تتمزق. أما التقنية، التى كان ينبغى أن تحقق الوفرة وتهدىء الخصومات، فإنها تقدم للظلم والعنف والكراهية وسائل مضاعفة. إن خطر الدمار المباشر أقوى مما كان فى أى وقت مضى.

فهل ينبغى إذن، لأن الحلم انقلب إلى كابوس، أن نجحد وعوده؟ أم ينبغى النضال فى سبيل إنقاذ برج بابل؟ أليس من المرغوب فيه أن تنتصر ثقافة عبر قومية متماثلة؟ لنفترض أن هذه الثقافة العالمية، بدلا من أن تفضى إلى **الإقصاء** الكلى الذى غرقت فيه غالبية الهنود الأمريكيين، نجحت فى إقامة اتصال وتفاهم الجميع وكل شخص. والحقيقة أنه لا شىء يمكن أن يبدو مرغوبا فيه أكثر من ذلك. ومهما كان أحد الغربيين واعيا بشرور وأخطار الغرب بوصفه آلة تقنية - اقتصادية، فمن المستحيل عليه أن يجحد عددا من القيم التى أنتجتها الحضارة الهيلينية - اليهودية - المسيحية. ذلك أن حقوق الإنسان واحترام الكائن البشرى، تماما كاحترام الثقافات وحقوق الشعوب، هى جزء من هذا التراث الذى يمثل تحقيقه هدفا لا يمكننا التخلى عنه؛ وبعد تحقيق ذلك، يبدو من الضرورى رفض فتيشية عبادة الحياة البيولوجية الخالصة، وأسطورة التماثل. لقد دمر الغرب «الأنا وحدية الثقافية». ولاشك فى أن هذا التدمير لا رجعة فيه. ولن يحدث أبدا بعد الآن، بقدر ما يمكننا استباق المستقبل، «أن يكون بوسع جماعة بشرية مفردة أن تسمى نفسها "البشر"، "البشر الحقيقيين"». وإذا كان ما بعد الحداثة la post - modernité يشهد إحياء ثقافات متباينة، فإن هذه الأخيرة لن تكون أبدا بعد الآن كما كانت من قبل على الإطلاق. والحقيقة أن هذه الاستحالة لأن تتجاهل ثقافة وجود ثقافات أخرى تختلف تماما عن الوعى السابق بأن البرابرة كانوا رغم كل شىء بشرا. فهل

ينبغى الأسف على ذلك والأمل فى استعادة الأنا وحدية الثقافية؟ والواقع أن استعادة ميراث العقل التحريرى بصورة مشروطة لا تخلو من طرح مشكلات؛ فهل يمكن تفكيك المكونات؟

وتمثل مفارقة المساواة واحدة من هذه المشكلات الأكثر مأسوية المطروحة على العقل العملى الغربى. ذلك أنه لا إخاء حقيقى بدون مساواة حقيقية، لكن لا مساواة بدون تطابق الشروط وتكافؤ الأوضاع. ويتمثل الحل النظرى لهذا التناقض فى طرح التكافؤ من خارج مجال التناظر. فكافة البشر متساوون ويتساوون بقدر ما يكونون **غير قابلين للمقارنة**. وبالأحرى فإن هذا الاعتراف بحق الاختلاف مشكوك فيه بقدر ما أكده من قبل فلاسفة عصر التنوير وبقدر ما لم يمنع أحدا من التجاوزات التى نعرفها.

ويقول لنا ريمون آرون Raymond Aron ما يلى: «الخطر، هذا الشبح العالمى، إن كان قائما، ليس خطر التماثل بقدر ما هو خطر الامتثال»[٥].

ونحن نلتقى هنا بأثر الأفكار الثاقبة لألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville. ذلك أن الإرهاب الدينى الذى يصدمه وهو يرى الصعود الذى لا يقاوم للمساواة يرتبط كثيرا بإدراك هذا الخطر للامتثال. وقد رأينا على مستوى الدول - الأمم إلى أية هاوية انتهى الامتثال الذى أفضت اليه مماثلة شروط المواطنين و«تحويلهم إلى كتلة متجانسة مصمتة» massification. ذلك أن الشمولية تُؤْثر المتماثل، كما أن الممتثل يفضى إليها مباشرة.

والحقيقة أن عولمة المسار التنميطى، حتى من خارج «عاهات» الغرب، يمكن أن تهدد بأسوأ المنعطفات. فالامبراطورية - العالم القائمة على الإخاء توشك تماما أن تغدو امبراطورية الأخ الكبير Big Brother لأورويل. وبالأحرى فإن الخطر كبير بقدر ما يمكن لهذا المجتمع العالمى أن يظل تقنيا. غير أنه، إذا قبلنا التحليل المفحم لجاك إلّول، «فى الحقيقة، هناك سبيل، لكن سبيل واحد: الديكتاتورية العالمية الأكثر شمولية التى يمكنها أن توجد. وهذه على وجه التحديد هى الوسيلة الوحيدة للسماح للتقنية بانطلاقها الكامل ولحل المصاعب الهائلة التى تراكمها هذه التقنية»[٦].

وأخيرا يمكننا، باسم النزعة الإنسانية الغربية ذاتها، أن نحتفظ ببعض الاحتياطات إزاء عالم واحد وحتى إخائى. وربما كانت تعددية الإنسان على المستوى الثقافى كما على المستوى الوراثى هى شرط بقائه. ومن يدرى ما إذا كانت الثقافات التى يجرى اليوم إنكارها والهزء بها لن تكون غدا، بحكم خصوصياتها ذاتها، الأكثر قدرة على أن تواجه تحديات التاريخ؟ والواقع أن إفقار التراث الثقافى للبشرية والذى يعد الغرب مسئولا عنه إلى حد بعيد يمكن أن يؤدى

إذن إلى خسارة هائلة. وليس من المؤكد على الإطلاق أن الاختلاف الثقافى يمكن أن يتكيف مع مستوى هام لعالمية أصيلة.

ويصرخ العالم الإثنولوجى مارك أوچيه Marc Augé: «ينبغى أن نقول فى الواقع أنه لو أننا دفعنا هذا الحد للاختلافات إلى ذروته لمضينا إلى حد انعدام الاتصال بين الثقافات، وفى رأيى فإن كل شىء يثبت العكس»(٧). وهذه النظرة متفائلة للغاية. وبطبيعة الحال فإن التجربة **الشخصية** للعالم الأنثروبولوچى تقوم على إمكانية الاتصال وتثبتها، غير أن التجارب الجماعية للعلاقات فيما بين الثقافات تقود إلى رؤية أكثر تحفظا. وتبدو لى الملاحظات الكولونيالية لپيير لوتى Pierre Loti، بصدد علاقات الصينيين والبحارة الأوروبيين، أكثر ملاءمة: «فضلا عن ذلك، فإن هؤلاء العامة، المدفونين فى أكفانهم من الأشجار والمعزولين عن كل شىء، لم يندهشوا لكونهم كذلك، بل بالأحرى لرؤية أنه كان ممكنا أن يكونوا بخلاف ذلك... وكانوا يحسون إحساسا عميقا بأنهم غير معروفين بعضهم لبعضهم الآخر»(٨).

والحقيقة أن الاعتراف بإنسانية تعددية هو طريق خلاص ربما كان موروثا من العقل التحررى الذى يستحق الحنين إليه الإنقاذ وسط الفوضى والأنقاض والآمال التى يولدها تحلل الغرب. على أنه يجدر الحذر من الفخاخ التى لا تحصى للعالمية الزائفة.

والواقع أن موقف مفكر فى مثل صفاء كورنيليوس كاستورياديس وتنديده بالغرب ينطوى على ما يزرع الأوهام: «لقد طرحتم سؤالين: «هل نحن متفوقون على الآخرين؟» ثم بعد ذلك «ألا ينبغى تأكيد قيمة العالمية؟» وفيما يخصنى، لن أخشى الإجابة بنعم على سؤالكم الأول. وكان قد اتفق أن كتبتُ، مفسراً أورويل: كافة الثقافات متساوية، غير أن هناك واحدة منها تعد أكثر مساواة من الثقافات الأخرى، لأنها الوحيدة التى تعترف بمساواة الثقافات»(٩). وهذه السفسطة الجلية تماما لا تجسد، بصوة أقل، موقفا عرقيا يهتدى بالإدراك الملائم، لكن الأحادى الجانب، لحدود احترام الثقافات والاختلاف.

«رجم الزناة غير مقبول فى نظرنا، وكذلك قطع أيدى السارقين، وعادة تعقيم وختان البنات الصغيرات... ولا يمكن لاحترامى للثقافات أن يحول دون ذلك وتبرز علامة استفهام بقدر ما أعتقد أن هناك مع ذلك ترابطا بين ذلك وبين الباقى. هنا، بلاشك بمقتضى قيمى الخاصة، أىْ القيم التى أقرّها والتى أختارها فى إطار ثقافتى الخاصة، يتوقف مجرد احترام ثقافة الغير، إننى أحاول أن أتفهم، غير أننى لا أحترم بمعنى أن أقبل»(١٠).

وكاستورياديس محق ومخطىء فى آن معا. فهو محقّ عندما يؤكد على غير المقبول فى

نظرنا. ويمكننا أن نضيف إلى ذلك القرابين البشرية التى أفزعت الفاتحين الأسبان وبررت محارق التحقيق لتسريع الإبادة الجماعية للأزتيك. ذلك أن كافة العادات البربرية هذه تصدم تصورنا عن احترام الحياة. على أننا نقتل عن طيب خاطر فى وقت السلم المدنى من خلال حوادث الطريق أكثر مما يقتل المتوحشون من خلال أى من طقوسهم. وهذه الملاحظة التى يبديها الإثنولوچيون صحيحة، لكن لا علاقة لها بالمسألة. إنها لا تعنى أكثر من حقيقة أن كل مجتمع، بما فى ذلك مجتمعنا، له طقوسه فى العنف والإبادة. والواقع أن طقوسنا هى على الأقل فى مثل دناءة طقوس «المتوحشين»، كما أن التعذيب والإبادات الجماعية الراهنة تتجاوز فى بربريتها احتفال أكل لحوم البشر عند هنود «التوبينامبا» أو القرابين البشرية عند الأزتيك، وحتى إعدامات المهرطقين حرقا منذ عهد ليس ببعيد. والحقيقة أن الفظاعات، التى يصعب الدفاع عنها، لا تقارن ولا تحصى. على أن الغربيين يمكنهم أن يؤكدوا أن طقوسنا البربرية لم تحقق الإجماع فى يوم من الأيام وأنه كانت هناك دائما نوايا طيبة لنبذها. وذلك بلا جدال أقل تأكيدا فى المجتمعات الكُلانية. ومن أجل فهم أو على الأقل توضيح هذا التعصب بدقة، ينبغى ألا نهتم بانتهاكات ما نزعمه من احترام حياة وسلامة الكائن البشرى بقدر ما نهتم بهذا العرف الآخر الذى يصدم احترامنا للموت، «أكل لحوم البشر» anthropophagie. وأنا لا أقصد بهذا واقع قتل المرء لقريبه ليأكله، الأمر الذى يحيل مرة أخرى إلى مسألة احترام الحياة، بل أقصد فقط واقع أكله حالما يقتل، مهما تصادف أن يكون سبب وفاته (عقوبة جنائية أو طقس أو موت طبيعى).

وقد أقنعتنى رحلة حديثة إلى بابوازى - غينيا - الجديدة حيث كان قد جرى منذ عهد قريب دفع حب القريب إلى نتائجه القصوى، والمناقشات هناك مع المبشرين، وحتى مع الإثنولوچيين، بأن الناس يعانون هناك من شرخ جوهرى. ذلك أن المرء لا يمكنه أن يكون متحضراً وأن يأكل اللحم البشرى. غير أن العقل النفعى يمكنه بالأحرى أن يوجه إعادة المعالجة هذه للموتى وهذا «الاستخدام» الاقتصادى للبقايا الفانية. على أننا نعلم أن أكل لحوم البشر لدى «المتوحشين» قلّما يرتكز على العقل النفعى وحده. ذلك أنهم يلتهمون فى أكثر الأحيان أقاربهم ليحتفظوا بفضائلهم داخل الأسرة أو أعداءهم ليحرموا منها العشائر المعادية. والواقع أن أكل لحم البشر هذا لا يستبعد إطلاقا، بل على العكس تماما، عبادة واحترام الموتى.

والحقيقة أن أكل لحم البشر لا يتعارض حتى مع الاعتقاد بخلود الروح. ولاشك فى أنه يطرح بعض المشكلات فيما يتعلق ببعث اللحم البشرى، غير أن تلك المشكلات ذاتها لا تستعصى على التذليل. ذلك أن الاهتمام الخاص بأكل لحم البشر يعبر عن أنه ليس هناك،

فيما يبدو لى، أى دليل عقلانى يثبت «الدونية» الثقافية للحضارات التى تتميز بأكل لحم البشر. ولا يتأتى للحياة هنا أن تقدم سراباتها باللعب على الانتقال من الكيف إلى الكم. وإذا كنت أشارك تماما، بطبيعة الحال، فى هذا المحرم (تابو)، فأنا أعترف بأننى لا أفهمه حقا، كما أننى أسجل قوته الخارقة. وكان ينبغى أن يتمثل الموقف العقلانى الوحيد فى التسامح: «إذا كنت لا تُحبّه فلا تنفّر الآخرين منه». غير أن هذا «الاختلاف» على وجه التحديد لا يطاق. ولاشك فى أنه، فى جوهره، من نفس نوع اختلاف محرمات (تابوهات) غذائية عديدة يكون التعصب لها، حتى داخل الغرب، هو السائد تماما.

فالأمريكيون يمتنعون عن أكل لحم الخيل ويرغبون فى منع الآخرين عن أكله. وهم يعتقدون أن الفرنسيين، الذين يشتبهون فى أنهم يأكلونه «أكلة لحوم بشر»[١١]. ومثل القرابين البشرية، استُخدم أكل لحم البشر كتبرير لقيام الغرب بفرض التسامح واحترام الثقافات بالحديد والنار. وهكذا فنحن هنا، إن لم يكن فى قلب الطابع **الذى لا يطاق** للاختلاف الثقافى فعلى الأقل فى قلب حدوده.

وهنا لا يعود بوسعنا أن نقتفى أثركاستورياديس وأولئك الذين يفكرون مثله؛ ذلك أن تأكيد أن الغرب يعترف بمساواة الثقافات قابل تماما للجدال. ومن المؤسف أن هذه المساواة لا يُعترف بها إلا **بعد الوفاة** post - mortem، كما هو الحال مع قيمة الهندى. وفضلا عن ذلك فلاشك فى أن هذا الاعتراف ليس أعلى من، ولا من طبيعة مختلفة عن، اعتراف كافة الثقافات الأخرى الغارقة فى الأنا وحدية الثقافية. فهناك الإغريق الذين كانوا يعترفون بقيمة البرابرة وثقافاتهم، كما يشهد الإثنولوجيون بكثرة الحالات التى يحدث لهم فيها أن يجدوا أمامهم محاورين متحررين من التحيزات مثلهم تماما (وأكثر فى أغلب الأحيان). وتمنعنا هذه المصادفات السعيدة فى كافة المجتمعات من أن نيأس من الحنين إلى الإخاء لكنها تأبى علينا الإفراط الشديد فى التفاؤل. وليست هناك، فيما نعتقد، عالمية حقيقية يمكن أن تكون احتكارا لثقافة، وإن كانت ثقافتنا. والحقيقة أن عالمية القيم عبر التاريخية والأنطولوجية وَهْم مثل مُثُل أفلاطون. ولا يستند نفورنا من الأعراف البربرية للآخرين إلى عبادة لقيم عالمية حقا، بل إلى عبادة **تفسيراتنا الوحيدة** الغربية. وقبل أن نحلم بعالمية حقيقية، يجدر بنا التساؤل حول بربرية حضارتنا، بل حتى **تعصُبها فى أعين الآخرين**. وهناك كثير من سمات أخلاقنا تبدو مرعبة وشائنة فى أعين المجتمعات غير الغربية. وإذا كانت هذه الأخيرة قد تسامحت معها فى نهاية المطاف، فذلك لأنه لم يكن لها الخيار ولم يكن بمستطاعها أن تحظر عندنا ممارساتها، كما حظرنا نحن، عندها، تلك التى بدا لنا أنها لا تطاق.

إنه لأمر فظيع فى نظير الهندوسى ذبح وأكل بقرة، ولاشك فى أن ذلك يصدمنا أكثر كثيرا مما يصدمنا ترك أرامل البراهميين يقذفن بأنفسهن فى نيران محارق أزواجهن. ومن الجلى أنه لو أن الهند كانت قد غزت العالم، لشكل تطهر الأرامل جزءاً من حقوق المرأة، ولأصبح اغتيال الأبقار محظورا بوصفه جريمة ضد احترام الحياة. ومن الجلى بالتالى أن العالمية الحقيقية الوحيدة التى يمكن تصورها لا يمكنها أن تستند إلا إلى إجماع عالمى حقا. وهى تمر من خلال حوار أصيل بين الثقافات. ومثل هذا الحوار ممكن لأن إمكانية الحوار قائمة. وهو لا يمكنه أن ينجح إلا إذا كان كل طرف مستعدا لتقديم تنازلات. ونحن نشارك الاقتناع بأن كل ثقافة تملك الكثير الذى تعلمه للثقافات الأخرى، وبأن بوسعها أن تغتنى بإسهامات عديدة. وليس من المؤكد رغم ذلك أن كل طرف يمكنه أن يلعب لعبة المعاملة بالمثل، أى بصورة ملموسة أن يجحد «بربريته» فى سبيل حمل الآخر على أن يجحد بربريته هو من أجل السماح للاثنين بالاستمتاع بمقايضاتهما المتبادلة. وحيث أنه ليس هناك أى أمل فى بناء أى شىء حى على الإطلاق على احتيال عالمية زائفة مفروضة بالعنف ومؤيدة بنفى الآخر، فإن الرهان على أن هناك مجالا مشتركا للتعايش الأخوى ينبغى اكتشافه وبناؤه، يستحق عناء الإقدام عليه.

ملحق

دخول الشركات المتعددة الجنسية

المشروعات الصناعية المتعددة الجنسية	بلد المنشأ	الدخول الصافية بملايين الدولارات	عدد العاملين
آي. بي. إم	الولايات المتحدة	٦٥٨٢,٠٠	٣٩٤٩٣٠
چنرال موتورز	الولايات المتحدة	٤٥١٦,٥٠	٧٤٨٠٠٠
كناديان باسيفيك	الولايات المتحدة	٣٤٢٢,٠٦	١٢٠٠٠٠
كريزلر	الولايات المتحدة	٢٣٨٠,٠٠	١٠٠٤٣٥
چنرال اليكتريك	الولايات المتحدة	٢٢٨٠,٠٠	٣٣٠٠٠٠
دى بون ده نيمور	الولايات المتحدة	١٤٣١,٠٠	١٥٧٧٨٣
تويوتا	اليابان	١٢٥٥,٩٥	٥٩٥٠٠
رينولدز إندستريز	الولايات المتحدة	١٢١٠,٠٠	٩٧٥٥١
بات	بريطانيا العظمى	١١٣٢,٥٦	٢١٢٨٢٢
ماتسوشيتا اليكتريك اندستريال	اليابان	١٠٠٩,٥٣	١٣٢٨١٤
إيستمان كوداك	الولايات المتحدة	٩٢٣,٠٠	١٢٣٩٠٠
پروكتر آند جامبل	الولايات المتحدة	٨٩٠,٠٠	٦١٧٠٠
فيليب موريس	الولايات المتحدة	٨٨٨,٥٠	٦٨٠٠٠
امبريال كيميكال اندستريز	بريطانيا العظمى	٧٨١,٣٠	١١٥٦٠٠
هيتاشى	اليابان	٧٠٧,٣٨	١٦١٥٣٣
يونيليڤر	بريطانيا العظمى	٦٣٧,٠٦	٣١٩٠٠٠
نسله	سويسرا	٦٣٢,٣٠	١٣٧٩٥٠
كوكاكولا	الولايات المتحدة	٦٢٨,٨١	٤٠٥٠٠
داو كيميكال	الولايات المتحدة	٥٨٥,٠٠	٤٨٨٠٠
آي. تى. تى	الولايات المتحدة	٤٤٨,٠٥	٢٥٢٠٠٠
جوديير تاير آند رابر	الولايات المتحدة	٤١١,٠٠	١٣٣٢٧١
ديلمر - بنز	ألمانيا الاتحادية	٤٠٢,٠٤	١٩٩٨٧٢
هوكست	ألمانيا الاتحادية	٣٧٦,٤٤	١٧٧٩٤٠
فيات	إيطاليا	٣٥٦,٠٠	٢٣٠٨٠٥
باير	ألمانيا الاتحادية	٣٥٤,٤٧	١٧٤٧٥٥
رينو	فرنسا	(١٤٣٥,٨٦)	٢١٣٧٢٥

دخول الدول

البلد	إجمالى الناتج الداخلى (المحلى) بملايين الدولارات	عدد السكان (ملايين)
الولايات المتحدة	٣٢٧٥٧٠١	٢٣٤,٥
اليابان	١٠٦٢٨٧٠	١١٩,٣
جمهورية ألمانيا الاتحادية	٦٥٣٠٨٠	٦١,٤
فرنسا	٥١٩٢٠٠	٥٤,٧
المملكة المتحدة	٤٥٥١٠٠	٥٦,٣
البرازيل	٢٥٤٦٦٠	١٢٩,٧
الهند	١٦٨١٧٠	٧٣٣,٢
المكسيك	١٤٥١٣٠	٧٥,٠
كوريا الجنوبية	٧٦٦٤٠	٤٠,٠
الجزائر	٤٧٢٠٠	٢٠,٦
تايلندا	٤٠٤٣٠	٤٩,٢
كولومبيا	٣٣٣٣٠	٢٧,٥
الفليبين	٣٤٦٤٠	٥٢,١
هونج كونج	٢٧٥٠٠	٥,٣
بنجلاديش	١٠٦٤٠	٩٥,٥
تونس	٧٠٢٠	٦,٩
بورما	٦١٩٠	٣٥,٥
زائير	٥٤٤٠	٢٩,٧
تنزانيا	٤٦٥٠	٢٠,٨
أثيوبيا	٤٢٧٠	٤٠,٩
هاييتى	١٦٣٠	٥,٣
مالى	٩٨٠	٧,٢
بنين	٩٣٠	٣,٨
توجو	٧٢٠	٢,٨
موريتانيا	٧٠٠	١,٦
تشاد	٣٢٠	٤,٨

إشارات المؤلف

المقدمة

١ - Christian Maurel, L'Exotisme colonial, Robert Laffont, Paris, 1985, p. 15.

٢ - Romain Rolland, correspondance à E. Bloch. Coll. "Lettres", Payot, Lausanne, 1984, p. 153.

٣ - حول هذه النقاط الأخيرة («التعقيم» asexualisation، وضع المرأة، الخطر البيئى)، لابد أن هناك إيضاحات ينبغى الإسهام بها، وتعميقات ينبغى القيام بها. وهناك آخرون، أكثر دراية بهذه المسائل، قاموا بذلك وسيقومون به أيضا أفضل مما يمكننى أن أفعل.

الفصل الأول

١ - Robert Nisbet, Social Change and History, Aspects of Western Theory of Development, New york - Oxford University Press, 1969, p.124 .

٢ - لنلاحظ أن القرن التاسع عشر سيقتفى بطريقة محمومة أثر تقاليد الرحلات الاستكشافية، من اسكندر هومبولت إلى شاركو، لكن مرورا بليفنجستون وستانلى. ويغدو فتح المناطق البيضاء من خريطة نصفى الكرة الأرضية رياضة. فالمطلوب هو الغوص والاستقصاء حتى أعماق المحيطات، والوصول إلى القمم «التى لم تمس» إلى أن يتحقق الذهاب لنصب أعلام صغيرة فوق القمر. ويجمع الولع بالمآثر الباهرة بين التعطش إلى المعرفة والسعى إلى المجد. والواقع أن هذا الهوس بالمآثر الباهرة، من أكملها بذلا بلا مقابل إلى أحقرها بحثا عن المنفعة، هوس غربى على وجه الحصر. ذلك أنه لم يحدث قط أن كانت لدى سكان التبت الرغبة فى تسلق جبال إفرست. كما أن الفضول الحقيقى لقدماء المصريين أو للصينيين لم يتجه قط إلى المنافسة الجماعية.

وفى القرن العشرين، بعد أن أصبح رصيد الكشوف الجغرافية الممكنة فى سبيله إلى النفاد، لم يسجل دفتر الأرقام القياسية أكثر من نتائج سخيفة وتافهة، غير أن الثرثرة عن المآثر السابقة تروج للجماهير بطريقة مبهرة ومبرمجة، فى صورة دورات سياحية أو عروض رياضية. هكذا أصبح كل غربى فاتحا للعالم، على الأقل خلال فترات عطلته.

٣ - ما يمكن أن نعتبره أول مشروع استعمارى فى العصر الحديث هو فتح جزر الكنارى على يد فارس نورماندى - چان دو بيتانكور - فى ١٤٠٢ (فى غمرة حرب المائة عام)، وقد جرى فهمه وعرضه وكأنه مأثرة تليق بأماديس الغالى.

٤ - Harry Magdoff, L' Impérialisme de l' époque coloniale à nos jours, Maspero, Paris, 1979/ 37; voir Faut - il refuser le développement?, chap.II, PUF, Paris, 1986, p. 48 et s.

٥ - Lénine, L' Impérialisme stade suprême du capitalisme, O. C., tome xxII, Éditions de Moscou, p.274-275.

٦ - Anatole France, Sur la pierre blanche, Nelson - Calmann - Lévy, Paris, 1905, p.188-191.

٧ - Cornélius Castoriadis, De l' utilité de la Connaissance, Cahiers Vilfredo Pareto, Revue européenne des sciences sociales, No79,1988,p.121.

٨ - René Bureau, Le Péril blanc, Propos d'un ethnologue sur l' Occident, L' Harmattan, Paris, 1978, p.61.

٩ - Cf. Armand Mattelard, Multinationales et systèmes de communication, Anthropos, Paris,1976.

١٠ - Cf. Franck Magnard et Nicolas Tenzer, La crise africaine: quelle politique de coopération pour la France?, coll. "Politique d'aujourd'hui", PUF, Paris, 1988, p.161.

١١ - Anatole France, op. cit. ,p182.

الفصل الثانى

١ - Pierre Clastres, Recherches d'anthropologie politique, Le Seuil, Paris, 1980, p.56.

٢ - لنتذكر أن لفظة Maures (Mauri باللاتينية) التى سمى بها الرومان قبائل المغرب وموريتانيا الحاليتين مشتقة من اللفظة الفينيقية Mahurim «أهل الغرب»

٣ - نعلم أن أحد أسباب القطيعة بين روما وبيزنطة كان يتمثل فى رفض هذه الأخيرة للاعتقاد القائل أن الروح القدس يفيض عن الابن، مثلما يفيض عن الآب، والذى تحول إلى عقيدة مذهبية فى مجمع ليون فى ١٢٧٤.

٤ - Fernand Braudel, L' Identité de la France, tomeII, Arthaud - Flammarion, 1986, p.105.

٥ – لنتذكر أن لفظة كاثوليكى مشتقة من اللفظة اليونانية Katholicos أى «عام».

٦ – Voir Louis Dumont, Essais sur l'individualisme. Une perspective anthropologique sur l'idéologie moderne, Seuil, Paris, 1983, p.42.

انظر أيضا تحليلنا النقدى لهذا الكتاب:

"L'anthropologie et la clef du paradis perdu", L' Homme et la Société, No 71 - 72, janvier - juin 1984, p.65-80.

٧ – Louis Dumont, op. cit., p. 42.

٨ – ID., ibid., p. 255.

٩ – ID., ibid., p. 255.

١٠ – Martin Heidegger, Qu' est - ce que penser?, PUF, Paris, 1973, p. 112.

١١ – يختصر جالتونج Galtung هذا النموذج فى دليل من عشر سمات:*

« – **سمات مميزة للكسمولوجيا الاجتماعية الغربية:** التصور الغربى للمكان، وهو تصور وسطى وعالمى؛ تصور الزمن الخطى، وهو تصور متمحور حول الحاضر؛ تصور تحليلى أكثر منه تاريخيا للابستمولوجيا؛ تصور العلاقات الإنسانية فى إطار السيطرة.

« – **سمات مميزة للبنية الاجتماعية الغربية:** تقسيم العمل، وهو تقسيم رأسى ومركز؛ إخضاع المحيط لشروط المركز؛ التهميش: التقسيم الاجتماعى بين الخارج والداخل؛ التفتيت: تذرير atomisation الأفراد داخل الجماعات؛ التمزيق: التقسيم داخل الأفراد».

ولا شك فى أن ما هو جوهرى ماثل هنا، غير أن بوسعنا أن نتجادل حول سمات أكثر خصوصية. على سبيل المثال: التعارض بين الخارج والداخل: أليس أساسيا فى الفكر الصينى؟ انظر: le développement dans la perspective des besoins fondamentaux "Il faut manger pour vivre"in Cahiers de l' INED, n° 11, Paris, 1980, PUF.

١٢ – على وجه الخصوص : Faut - il refuser le développement?, chap.VI, PUF, Paris, 1986.

١٣ – J. - P. Dupuy et J. Robert, La Trahison de l' opulence, PUF, Paris, 1976.

١٤ – Jean Ziegler, La Victoire des vaincus. Opression et résistence culturelle. coll. "L' Histoire immédiate", Seuil, Paris, 1988

والتحليل الذى يفرده المؤلف للثقافة ينتهى إلى تشوش كبير. وبوسعنا أن نتساءل ما إذا كان هذا الاعتراف المتأخر بالثقافة لدى هذا المناصر للعالم الثالث لا يهدف إلى احتضانها من أجل خنقها على نحو أفضل. وهو يكتب: «الثقافة تتلقى المعنى من التجربة وتعطى معنى للتجربة»، p. 32، غير أن التجربة لا تشكل جزءاً منها!

١٥ - Cf. Paulo Freire, Pour un dialogue des civilisations, Denoël, Paris, 1977, p. 197.

١٦ - Fernand Braudel, op. cit., tome 1, p. 73.

١٧ - Cf. Eugen Weber, La Fin des terroirs. La modernisation de la France rurale 1870 - 1914, Fayard, Paris, 1983.

١٨ - ID., ibid., p. 2'1.

١٩ - يشدد جورج سوريل مقتفيا أثر رينان على هذه المقابلة بين سكان المدن citadins والمواطنين citoyens. وهو يقول أن سكان المدن les urbains ليسوا «معتمدين» مطلقا كالفلاحين، لكنهم مواطنون. Cf. Georges Sorel, Illusions du progrès, chap II, Rivière Paris, 1908.

٢٠ - انظر تحليلات حنا أريندت Hannah Arendt المفحمة فى: Les Origines du totalitarisme, coll. "Points", Seuil, Paris, 1982.

٢١ - Robert Jaulin, La Décivilisation, politique et pratique de l' ethnocide, Éd. Complexe, Bruxelles, 1'974.

٢٢ - هذا المدخل إلى خصوصية الغرب من خلال التأمل الذاتى يشبه تحليلات الفلاسفة. ويغدو الغرب مكان ميلاد التجربة الفلسفية. وهذا لا جدال فيه ومضحك فى آن معا. فإذا كان من المشروع استيعاب الفلسفة والميتافيزيقا الغربية فإن المبدأ السقراطى: **اعرف نفسك بنفسك** يغدو الأساس لإنكار مأسوى للآخر، فى آن معا كآخر فى سياق مشاريعه الخاصة للتأمل الذاتى (البوذية على سبيل المثال)وكذات(الهوية اليهودية Judaïté فى الفلسفة الألمانية). ونحن نعلم أن هذا الإنكار (الذى يمضى حقا إلى ما وراء التجربة الفلسفية) ينتهى إلى إبادة الآخرين والذات.

٢٣ - René Bureau, op. cit., p. 1'2.

٢٤ - Marshal Salhins, Au coeur des sociétés. Raison utilitaire et raison culturelle, Gallimard, Paris, 1980, p. 274.

٢٥ - من أجل خلاصة موجزة للمجادلات حول هذه النقطة يمكن الرجوع إلى كتابنا: Faut il refuser le développement? -وينبغى أن نلاحظ أنه من ١٨٥٠ إلى ١٩٥٠ كانت «الآلة» تحت السيطرة التامة لل «واسب» Wasp (البروتستانت البيض الأنجلو ساكسون White Anglo - Saxon Protestants وفقا لأطروحة ماكس فيبر Max Weber. والواقع أن المجتمعات المكونة من الأفراد المجتثى الجذور ذوى الأصل الغربى، فى الولايات المتحدة، وفى الدومنيونات الأنجلو ساكسونية، أكثر أداءً من الدول الأوروبية القديمة. ومنذ عدة عقود، وبوجه خاص مع الأزمة الراهنة، نشهد انتقاما حقيقيا لغير «الواسب»، لليابانيين والكوريين، إلى حد ملحوظ، لكن أيضا فى الولايات المتحدة ذاتها، انتقام الأقليات الأسبانية - الكاثوليكية. وفى بعض السياقات، يتضح أن كُلانية ما، مشوبة بروح الفتح، أكثر فعالية من الفردية الخالصة.

٢٦ - روى هذه الحكاية جان زيجلر Jean Ziegler, op. cit., p. 21.

الفصل الثالث

١ - J. Meunier et A. - M Savarin, Massacre en Amazonie, J'ai lu, Paris, 1970, p. 65.

٢ - Karl Polanyi, La Grande Transformation, Gallimard, Paris, P 1983 (1944).

٣ - يجازف جان بوارييه Jean Poirier حتى بلفظة dysculturation (العجز الثقافى) للدلالة على تدميرات الأبنية destructurations التى أحدثتها الانقلابات التكنولوجية التى أدخلها «العصر الرابع» l' ère quaternaire "Progrès technique et progrès social", dans L' Idée de progrès, Vrin, Paris, 1982, p. 173.

٤ - J. Meunier et A. - M. Savarin, op. cit., p. 149.

٥ - Émile Durkheim, De la division du travail social (2e éd.), Alcan, Paris, 1902, p. 225.

٦ - Cité en note dans Le crépuscule des idoles (Introduction), Garnier - Flammarion, Paris, 1985, p. 63.

٧ - وحتى فى سياق الهوس الجمعى لدى الإثنولوجيين فالجمع أيضا «اقتصاد جمعى...»

٨ - Claude Lévy - Straus, La Pensée sauvage, Plon, Paris, 1962, p. 329.

٩ - Marcien Towa, Essai sur la problématique philosophique dans l'

Afrique actuelle, Éd. Clé, Yaoundé, 1971, p. 39 - 45 et 56. cité par Abdou Touré dans La Civilisation quotidienne en Côte d' Ivoire, procès d' occidentalisation, Karthala, Paris, 1981, p. 66 et 72.

١٠ - J. - L Satie, The Economic Journal, vol. Lxx, 1960, citè par Dominique Perrot, Interculture, No95,avril1987,p.9.

١١ - Cité par René Bureau, op. cit, p.211.

١٢ - تعبير بيير جوديه Pierre Judet.

١٣ - Gustave Massiah et Jean - François Tribillon, Villes en déveploppement, coll. "Cahiers libres", La Découverte, Paris, 1988.

١٤ - Cornélius Castoriadis, De l' utilité de la connaissance, op., cit., p. 1'08.

١٥ - Hélé Beji, Désenchantement national. Essai sur la décolonisation, Maspero, Paris, 1982.

١٦ - إذا كان الاحتجاج رخوا بالأحرى، فربما كان ذلك بكل ببساطة لأن مشروع المدينة الزراعية agro - ville هذا ليس سوى حالة متطرفة من العمل العادى للآلة.

١٧ - Voir Cengiz Aktar, L' Occidentalisation de la Turquie, Essai Critique, L' Harmattan, Paris, 1985.

الفصل الرابع

١ - Bertrand De Jouvenel, Du pouvoir (Ire éd. 1945), Coll. "Pluriel", Hachette, 1972, p. 90.

٢ - G. Destanne De Bernis, "De l' existence de points de passage obligatoires pour une politique de développement", Cahier de l' ISMEA, série F, no 29, Paris, février, 1983, Y a - t - il un modèle obligé de développement?

٣ - Le Choix industriel de l' Algérie, éd. SNED, 1975, p. 2 et 3.

٤ - فى هذه الكتابات المتحررة من الأوهام، يعد نموذجيا السجل البالغ الأمانة الذى يقدمه هـ. رولان وإى. ريمون: H. Raulin et E. Raymond, L' Aide au sous - développement, PUF, Paris, 1980.

٥ - Dans Pierre Jacquemot, Économie et sociologie du tiers monde, L'

Harmattan, Paris, 1981, p. 5 0.

٦ – Voir la contribution de Pierre Judet, dans IFRI, Les Pays les plus pauvres, Economica, 1 981.

٧ – Marc Rakovski, Le Marxisme face aux pays de l' Est, Savelli, Paris, 1977, p. 142 - 1 43.

٨ – ID., ibid., p. 156 يدافع أرجيرى عما نويل Arghiri Emmanuel بقوة عن وجهة نظر كهذه فى كتابه: Le Profit et les crises, Maspero, Paris, 1 974.

٩ – Marc Rakovski, op. cit., p. 1 51.

١٠ – «النظام الزراعى – الغذائى الواحد (إذا قدر له أن يُعَمَّم على المستوى العالمى) سيبتلع أكثر من كل الطاقة المستهلكة فى العالم»، M. - F. Mottin et R. Dumont, L' Afrique étranglée, Seuil, Paris, p. 3'2.

١١ – Ignacy Sachs, Stratégies de l' écodéveloppement, Éd. Ouvrières, p. 1 2.

١٢ – نحيل القارىء حول هذه النقطة إلى مساهمتنا: "Si la misère n' existait pas, il faudrait l' inventer" dans Rist et sabelli, Il était une fois le développement, Éditions d' En bas, Lausanne, 1986, p. 143 - 1 53.

١٣ – Turgot, OEuvres complètes, tome 11, éd. Daire, p. 8 00.

١٤ – Carré De Malberg, Théorie de l' État (1922), éd. du CNRS, 2. vol., Paris, 1962, tome I, p. 7 1.

١٥ – ID., ibid., p. 7 1.

١٦ – حتى فى بلدان الشرق، نجد السيادة الاقتصادية للدولة خرافية إلى حد بعيد. وفى العالم الثالث، قادت الرغبة فى تحقيق السيادة الاقتصادية فى كثير من الأحوال إلى تأميم ذى نتائج تدعو إلى السخرية.

١٧ – o315François Perroux, Le Capitalisme, coll. "Que sais - je?" No315, PUF, Paris, 1962, p. 1 25.

١٨ – Hannah Arendt, op. cit., tome II, L' Impérialisme, p. 1 80.

١٩ – Gérard Grellet, Structure et Stratégies du développement économique, coll. "Thémis", PUF, 1986, p. 3 3.

٢٠ - Alain Lipietz, Mirages et miracles, problémes de l'industrialisation dans le tiers monde, La Découverte, Paris, 1986, p. 4 3.

٢١ - Michel Beaud, "Interdépendences", Le Monde, 17 février 1 987.

٢٢ - François Mitterrand, La Paille et le Grain, Flammarion, 1975, p. 53 - 54.

٢٣ - CEREM: Centre d' études et de recherches sur les entreprises multinationales de l' Université de Paris - X - Nanterre.

٢٤ - جدول من إعداد تراجتنبرج فى: Trajtenberg in :Concentracion y transnacionolizacion, Instituto para America Latina, Centro de Economia Transnacional, Buenos Aieres, juillet 1985, cité par W. Andreff, Cahiers du Gemdev, No6,p.181.

٢٥ - Jean Masini, Multinationales et pays en développement. Le profit et la Croissance, PUF, IRM, 1986, p. 32 et 3'3.

الدخول الصافية هى الأرباح وحدها قبل الضرائب، فهى بالتالى أدنى كثيرا من أرقام الأعمال وأدنى بشكل ملحوظ من القيمة المضافة التى تتطابق بالأحرى مع إجمالى الناتج الداخلى PIB.

٢٦ - تعبير ج. جانْى، انظر: G. Gagne, "L'État commercial ouvert", Bulletin du MAUSS, No17,mars1986,p.71-103.

٢٧ - Edmond Jouve, Le Droit des peuples, coll. "Que sais - je?", PUF, 1986, p. 8 8.

٢٨ - Jacques Ellul, Le Système technicien, Calmann - Lévy, Paris, 1977, p. 2 89.

الفصل الخامس

١ - Mahábhárata, Chant VIII, 37, traduction Garnier - Flammarion, tome 2, p. 1 68.

٢ - René Bureau, op. cit., p. 151 - 1 52.

٣ - Patricia Highsmith, Au Nabuti: bienvenue à une délégation des nations unies, coll. "Catastrophes", calmann - Lévy, Paris, 1 988.

٤ - Cornélius Castoriadis, De l'utilité de la connaissance, op. cit., p. 108.

٥ - Jean Ziegler, op. cit., p. 53.

٦ - الـ «أتييكيه» نوع من الكُسْكُسى عنصره الأساسى دقيق المانيوك، والـ «أكاسّا» كرة من الفطير عنصرها الأساسى دقيق الذرة. ويمكننا أن نضيف: الـ «فُوفُو»، والـ «جارى»، والـ «شيكوانجه»، والـ «دُولُو»، والـ «سُودابى»، الخ.

٧ - حول سجلّ الشهداء الطويل للپاسكوان، تُكْمل الشهادة المؤثرة لفرانسيس مازيير.... فى: Francis Mazière, Fantastique île de Pâques, (Laffont, Paris, 1965)

الكتاب الكلاسيكى للإثنولوچى ألفرد ميترو Alfred Métraux, L' Ile de Paques, Gallimard, Paris, 1941.

٨ - Jean Chesneaux, "Tiers monde "offshore" ou tiers monde quart - mondisé et libération du troisième type", Tiers - Monde,No 100, oct. - décembre 1984.

٩ - Thomas Robert Malthus, principes, Arthaud, Paris, 1820, p. 28.

١٠ - وفقا للتعبير الموفق للغاية والذى سبق الاستشهاد به لپيير چوديه.

استنتاج عام

* Bible de Jérusalem, Genèse 11: 1 - 6 .

(سفر التكوين، الأصحاح ١١ الآيات ١ - ٥ فى النص العربى - المترجم)

١ - Tahar Memmi, "Sous - développement et décadence", Tiers - Monde, No100, décembre 1984.

٢ - Carl Schmitt, La Notion de politique, traduction de Steinhauser, Calmann - Lévy, Paris, 1972, p. 97.

٣ - Pascal Bruckner, Le Sanglot de l'homme blanc, Le Seuil, Paris, 1983.

٤ - Genèse, 11: 7. (سفر التكوين، المرجع السابق، الأصحاح ١١ الآيتان ٦ - ٧ - المترجم.)

٥ - Raymond Aron, Les Désillusions du progrès, Calmann - Lévy, Paris,

p. 1 17.

٦ - Jacques Ellul, op. cit, p. 2 87.

٧ - De L' utilité de la connaissance, op. cit., p. 9 6.

٨ - Pierre Loti, Matelot, Calmann - Lévy, Paris, 1948, p. 1 75.

٩ - Cornélius Castoriadis, De L'utilité de la connaissance, op. cit., p. 9 9

١٠ - ID., ibid., p. 1 09.

١١ - انظر؛ التحليل الثاقب لمارشال سالان - Marshall Salhins, op. cit., p. 2 11 - 2 12.

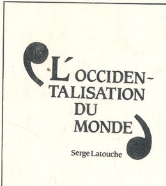
فهرس

مقدمة ٧
١ - الصعود الأكيد للغرب: انتقام الصليبيين ١١
أولا: المد والجزر القديمان ١٢
من إخفاق الحروب الصليبية إلى انتصار الفاتحين الأسبان ١٣
سباق الأعلام ١٥
إفلاس العناصر الثلاثة للامبريالية وأزمة النظام القديم ١٩
ثانيا: انتصار نموذج عالمى ٢٤
التأليه العالمى للعلم والتقنية ٢٤
سيطرة ما هو اقتصادى: السوق الواحد وخرافة التنمية ٢٦
الغزو الثقافى ٢٧
تنميط عالم الخيال ٢٨
٢ - ما هو الغرب؟ ٣١
أولا: الغرب: مكان ومصير ٣٢
من شبه الجزيرة الأوروبية إلى الشكل الثلاثى الأضلاع ٣٢
عبء الرجل الأبيض ٣٣
تحت راية الصليب ٣٤
الرسالة الأخلاقية أو الفلسفية للغرب ٣٨
الغرب والرأسمالية ٤٠
ثانيا: الخصوصية الغربية ٤٤
ثقافة «ثقافية» وثقافة «حضارية» ٤٤
الثقافة ضد الحضارة ٤٧
الغرب بوصفه معاداة ثقافة ٤٩
٣ - التغريب بوصفه اجتثاث جذور على مستوى الكرة الأرضية ٥٧
أولا: محو الثقافة والتخلف ٥٨
محو الثقافة والإبادة الإثنية ٥٩

ثانيا : وسائط اجتثاث الجذور ٦٥
التصنيع ٦٦
التمدين ٦٨
الـ «القوموية» ٧١
التغريب والتحديث والتنمية ٧٣
٤ - حدود تغريب العالم ٧٧
أولا : إخفاق التنمية ٧٨
ثانيا : أزمة النظام الغربى ٨٦
مفهوم القومية الاقتصادية ٨٨
أزمة القومية الاقتصادية والمجتمعات الصناعية ٩٣
«محو الحدود الإقليمية» المجتمعى و«التحويل عبر القومى للثقافة» ٩٦
نهاية مجتمع الأمم ٩٨
٥ - بعيدا جدا أو فى مكان آخر ١٠١
أولا : المخلفات والمقاومات والتحويلات ١٠١
ثانيا : صعود آفاق جديدة ١٠٩
أزمة الرسمى ومغزاها ١١٠
المجتمع والروابط الاجتماعية غير الرسمية ١١٤
استنتاج عام ١١٨
هل ينبغى إنقاذ بابل؟
بعيدا عن الرغبة فى نهاية العالم ١١٨
الحنين إلى العالمى ١٢١
ملحق ١٢٨
إشارات المؤلف ١٣٠

رقم الإيداع ٩٢/٩٦٦٣
الترقيم الدولى 977-5222-01-x

هذا الكتاب



ليس التغريب ، من زاوية ما ، سوى « الهيئة » الثقافية للتصنيع ، غير أن تغريب العالم الثالث هو قبل كل شىء هو محو ثقافة ، أى تدمير بحت للهياكل الاقتصادية والاجتماعية والعقلية التقليدية لكى لا يحل محلها فى نهاية المطاف سوى كومة ضخمة من الخردة مصيرها الصدأ . ويقود المأزق الصناعى مباشرة إلى المأزق المجتمعى . ولن يصنع الإخفاقان فوق ذلك سوى شىء واحد : رفض نقل وزرع « التغريب » .

كتاب العالم الثالث

تصميم الغلاف: محيى الدين اللباد



دار العالم الثالث

٢٢ (أ) شارع حسين حجازى ، القاهرة
تليفون ٣٥٥٥٥٠٢ / ٣٩٢٢٨٨٠ فاكس ٣٥٥٠٨٧١